نقد كتاب الشعر الجاهلي

محمد فريد وجدي

نقد كتاب الشعر الجاهلي

نقد كتاب الشعر الجاهلي

تأليف
محمد فريد وجدي

هنداوي

نقد كتاب الشعر الجاهلي

محمد فريد وجدي

رقم إيداع ٢٠٣٦٠ / ٢٠١٣
تدمك: ٣ ٠٠٥ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سحر عبد الوهاب.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2014 Hindawi Foundation for Education and Culture.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

مقدِّمة الكتاب ٧
نَقْدُ كِتَاب الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ ١١

الكتاب الأول ١٣
مَنْهَجُ البَحْثِ ٢١
مِرآةُ الحَيَاةِ الجَاهِليَّةِ يَجِبُ أنْ تُلْتَمَسَ فِي القُرآنِ لا فِي الشِّعرِ الجَاهِلِيِّ ٢٩
الشِّعرُ الجَاهِليُّ واللُّغَةُ ٦٧
الشِّعرُ الجَاهِليُّ واللَّهَجَاتُ ٨٩

الكتاب الثاني ٩١
ليس الانتحال مقصورًا على العرب ٩٣
السياسة وانتحال الشعر ٩٧
الدِّينُ وانْتِحَالُ الشِّعر ١٤٧
القَصَص وانْتِحَالُ الشِّعر ١٦١
الشُّعوبيةُ وانتحالُ الشِّعر ١٦٧
الرواة وانتحال الشعر ١٧٧

مقدِّمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله محمدٍ خاتم النبيين، وعلى إخوانه المرسلين، وآله وصحبه وتابعيهم إلى يوم الدين.

أمَّا بعد: فقد قرأتُ في الجرائد منذ شهورٍ تَقَاريظَ لكتابٍ وضعه الأستاذ الدكتور طه حسين، أسماه «فِي الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ» فقلت في نفسي: مُدرِّس الآداب العربية في الجامعة المصرية أَرَادَ أن لا يَقْصُر ثمرات جهوده العقلية على تلاميذه؛ فنشرها ليستفيدَ منها الكافة، فحبذا لو احتذى مثالَه جميع المدرسين. ولكني لم ألبث أن قرأتُ فصولًا ضافيةَ الذيول لبعض شيوخ الأدب في المدارس المصرية، يشنون فيها على هذا الكتاب حربًا طاحنة تذهب باليابس والأخضر؛ باعتبار أنه قد استطرد إلى ذِكْرِ مسائلَ اتَّبع فيها غيرَ سبيل المؤمنين، بل جَحَد بعض ما نصَّ عليه الكتاب المبين. ثم لم تمضِ غير أيامٍ حتى قرأتُ في الجرائد أنَّ علماء الجامع الأزهر قد اجتمعوا وقرَّروا أنَّ في كتاب الدكتور طه حسين كفرًا صريحًا، وطالبوا الحكومة بمصادرته، ومَنْع مؤلِّفه عن التدريس كَيْ لا يَفْتِنَ نَابِتَةَ الأمة بما يبثه فيها من الأضاليل. وبينما الناس ينتظرون جواب الحكومة إذا بالدكتور يعلن أنه لم يقصد الطعن في الدِّين، وأنه يُؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ... إلخ إلخ.

هذه الحَلَقَات المُتَّصلة من الحوادث التي أثارها هذا الكتابُ حفزتْنِي إلى الاطلاع عليه، فرأيت فيه أخطاءً اجتماعية وبسيكولوجية وفلسفية لا يصح السكوت عليها، وألفيتُ الدكتور — لا ضطراره إلى تصيُّد الأسباب التي حملتْ ذوي النفوس المريضة على اختلاق الشعر ونسبته إلى الجاهليين — قد عوَّل على كتب المحاضرات، وهي قَرارةُ الأكاذيب،

ومُستنقعُ المفتريات من كل نوع؛ فجاء كتابه بما حمل من أوزار المفترين، وبما غلا هو فيه من تقصِّي إغراءات المتناظرين، وتسويلات المتنافسين، من القادة الأعلَيْنَ، طامسًا لمعالم أكبر ثورة اجتماعية حدثت في العالم، ألا وهي ظهور الديانة الإسلامية، وما استتبع انتشارها من سقوط دولٍ وقيام دول، وفناء لغاتٍ وشعوبٍ في لغات وشعوب، وتبدل مبادئ وأصول بمبادئ وأصول، وطروءِ عهدٍ جديد على الإنسانية انتقلت به درجاتٍ كثيرة في معارج العلم والفلسفة والأخلاق والعمران.

لا ندَّعي هنا أنَّ الدكتور طه حسين قصد إلى تشويه جمال هذه الثورة الكبرى في كتابه، ولكنه بغلوِّه في تحري أسباب الاختلاق على الجاهليين التقط من كتب المحاضرات جميعَ ما فيها مما يتعلق بالاختلاق وبالعوامل التي حَمَلَتْ عليه، وبالمطامع التي دَفعتْ إليه، ولم يُسَرِّ على كل ذلك ما يقضي به عليه مذهب ديكارت من النقد والتمحيص، بل وَثِقَ به ثقة مطلقة حملته على إصدار الأحكام جُزافًا في تركيب المسلمين الأولين، وتأليف مجتمعهم، ممَّا لا يتفق وأثر هذه الثورة التي قاموا بها في عالم الاجتماع والعلم والمدنية، ولا يتلاءم وما اعترف به عنها خصومها ومناظروها قديمًا وحديثًا.

فبينما علماء الغرب لا يتمالكون أنفسهم من الدَّهَشِ من قُوَّةِ هذه الحركة الاجتماعية التي انبعثت من بلاد العرب فَجْأَةً فرجَّتِ العالمَ كُلَّه رجَّاتٍ أذهلته عن كل شيءٍ إلا عنها، ولا يزال دَوِيُّها يَرِنُّ في آفاقه؛ يصعب علينا أن نرى واحدًا منَّا يضع كتابًا لغرضٍ قليل الخطر هو إثبات أنَّ الشعر الجاهلي مختلقٌ، يكون أثره على قارئه أن يحتقر هذه الثورة الكبرى، ويستخفَّ برجالها الذين أخذوا حظًّا من تمثيلها والاضطلاع بأعبائها، وقد آتت العالم ببركاتٍ لا يزال يعترف لها بها إلى اليوم.

فإذا كان الإنجليزي يفخر بأنَّ آباءَه كانوا أول من فكر في وضع حدٍّ لحكم الفرد، وإذا كان الفرنسي يفخر بأنَّ أسلافه أولُ من فكَّر في تعيين حقوق الإنسان الطبيعية؛ فهلَّا يفخر المسلمون بأنَّ أوائلهم كانوا — بإيعازٍ من دينهم — أولَ من أعلن الناس كافَّةً بأنَّ الإنسانية قد بَلَغَت سنَّ الرُّشد، وأنَّها أصبحت لا يصح أن تخضع لطوائف تنتحل لنفسها حق الوصاية عليها، وأنَّ السلطان للجماعة لا للفرد، وأن المعول على العقل لا على الموروثات، وأنَّ الإيمان بالدليل لا بالتقليد، وأنَّ التمايز بالمزايا لا بالجنسية ولا بالقومية، وأنَّ الحكم بالشورى لا بالاستبداد، وأنَّ الدين هو الفطرة التي فطر اللهُ النفوسَ عليها، لا الرسوم ولا الأشكال التي يُزينها الوهم ويُولّدها الخيال، وأنَّ أصلَ كل الأديان واحدٌ، وما فرَّق الناسَ شيعًا وأحزابًا إلا قادتهم بما صوروه لهم من الأباطيل والأضاليل … إلخ إلخ.

قلت: فهلَّا يفخر المسلمون بهذه العراقة في الأصول العالية مع الفاخِرِين، ويتحققون أنَّ لهم أكبرَ أثرٍ في ترقية الإنسانية مع العاملين.

إنِّي ما كدت أتم قراءة كتاب الدكتور طه حسين حتى وجدتني مدفوعًا لوضع نقدٍ عليه أستهدف به غرضين:

أولهما: مناقشته في المسائل التي تتعلق بتكوين الأمة الإسلامية، ولا يتفق حكمه فيها والمقرَّرات التَّاريخيَّة، ولا الأصول الاجتماعية، وأرى الإغضاء عنها ضارًّا كلَّ الضرر بِنَابِتَةِ هذا الجيل وهم في هذا الدور من الانتقال السريع.

وثانيهما: مقابلة أول ثمرات الجامعة المصرية بما تستحقه من العناية، وهذه العناية لا تعني في عالم العلم غير النقد والتمحيص.

فاللهَ أرجو أن يجعل عملي هذا خالصًا من شوائب المراءاة والمماراة، وأن ينفع به الناس، إنَّه الموفق للهداية، المعين على بلوغ الكفاية.

نَقْدُ كِتَاب الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ

نبدأ بما تصدَّينا له من نقد كتاب الشعر الجاهلي فصلًا فصلًا؛ فَنُعْنَى بإيراد ملخَّص كلِّ فصل منه بعبارات المؤلف نفسه، ثم نُردفها بملاحظاتنا عليها فنقول:

الكتاب الأول[1]

تمهيد

كتب الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ما مُلخصه:[2]

«هذا نحوٌ من البحث عن تاريخ الشعر العربي جديدٌ لم يألفه الناس عندنا من قبل. وأكاد أثق بأنَّ فريقًا منهم سيلقوْنه ساخطين عليه، وأنَّ فريقًا آخر سَيَزْوَرُّون عنه ازورارًا، ولكني على سخط أولئك وازورار هؤلاء أريد أن أذيع هذا البحث.[3]

نحن بين اثنتين: إما أنْ نقبل في الأدب وتاريخه ما قال القدماء، وإما أنْ نضع علم المتقدمين كله موضع البحث بل الشك. أريد أن لا نقبل شيئًا مما قال القدماء في الأدب وتاريخه إلا بعد بحثٍ وتثبُّتٍ إن لم ينتهيا إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان.[4]

بين يدينا مسألة الشعر الجاهلي نُريد أنْ ندرسها وننتهي فيها إلى الحق. فأمَّا أنصار القديم فأمامهم الطريق معبَّدةٌ، أليس قد أجمع القدماء على أنَّ طائفة كثيرة من الشعراء

[1] صدرت الطبعة الأولى من كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين، عن مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٤هـ/١٩٢٦م. وقد قسمه من الداخل إلى ثلاثة كتب — ما يوازي أبوابًا: الكتاب الأول من ص١ إلى ص٤١ وتحته عدة عناوين، والكتاب الثاني (أسباب انتحال الشعر) من ص٤٢ إلى ١٢٤، والكتاب الثالث (الشعر والشعراء) من ص١٢٥ إلى ص١٨٣.

[2] شغل التمهيد في كتاب الدكتور طه حسين من ص١ حتى ص١٠.

[3] ينظر: في الشعر الجاهلي، ص١.

[4] ينظر: السابق ص٢.

قد عاشت قبل الإسلام، لهم قصائدُ ومقطوعاتٌ حفظها عنهم رواتهم، وتناقلها عنهم الناس، حتى جاء عصر التدوين فدُوِّنت في الكتب، فلم يبقَ إلا أنْ نأخذ عنهم ما قالوا راضين به، مطمئنين إليه. فإذا لم يكن لأحدنا بدٌّ من أن يبحث وينقد ويحقِّق، فهو يستطيع هذا دون أن يجاوز مذهب أنصار القديم. فالعلماء قد اختلفوا في رواية الشعر الجاهلي بعض الاختلاف، فَلْنوازن بينهم، ولنرجح روايةً على رواية، ولْنُؤْثِرْ ضبطًا على ضبط. هذا مذهب أنصار القديم، وهو المذهب الذائع في مصر، وهو المذهب الرسمي أيضًا، مضت عليه مدارس الحكومة وكتبها ومناهجها.[٥]

وأما أنصار الجديد فالطريق أمامهم معوجَّةٌ ملتويةٌ؛ فقد خلق الله لهم عقولًا تجد من الشك لذة، وفي القلق والاضطراب رضًا. هم لا يطمئنون إلى ما قال القدماء، وإنَّما يَلْقونه بالتحفظ والشك، ويتساءلون: أهناك شعرٌ جاهليٌّ؟ فإنْ كانَ هُناك شعرٌ جاهليٌّ فما السبيل إلى معرفته؟ وما هو؟ وما مقداره؟ وبِمَ يمتاز من غيره؟ هم لا يعرفون أنَّ العرب ينقسمون إلى باقية وبائدة، وعاربة ومستعربة، ولا أنَّ أولئك من جُرْهُم وهؤلاء من ولد إسماعيل، ولا أن امرأ القيس وطرفة وابن كلثوم قالوا هذه المطوَّلات، ولكنهم يعرفون أنَّ القدماء كانوا يرون ذلك، ويريدون أن يتبينوا أكان القدماء مصيبين أم مخطئين؟ فهم يشكُّون، ونتائج هذا المذهب عظيمة الخطر؛ فهي إلى الثورة الأدبية أقرب، وحسبك أنَّهم يشكُّون فيما كان الناس يرونه يقينًا، وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنَّه حَقٌّ لا شكَّ فيه، وأول شيء أَفجؤك به في هذا الحديث هو أني شككت في قيمة الشعر الجاهلي، وانتهى بي البحث إلى شيء إنْ لم يكن يقينًا فهو قريب من اليقين؛ ذلك أنَّ الكثرة المطلقة مما نُسمِّيه شعرًا جاهليًّا ليست من الجاهلية في شيء، وإنَّما هي منتحلةٌ مختلقةٌ بعد ظهور الإسلام. فشعر امرئ القيس أو طرفةَ أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء الناس في شيء، وإنَّما هو انتحال الرواة، أو اختلاق الأعراب، أو صنعة النحاة، أو تكلف الْقُصَّاصِ، أو اختراع المفسِّرين والمحدِّثين والمتكلِّمين.»[٦] انتهى.

[٥] ينظر: السابق ص٣، ٤.

[٦] ينظر: السابق ص٥–٧.

رأينا في هذا الكلام

إنَّ العِبارات التي أتينا عليها في الفصل المتقدم هي ملخص التمهيد الذي وضعه الأستاذ الدكتور طه حسين في صدر كتابه. وقد انتحى فيه مذهبًا لا نقول حسنًا فحسب، بل نقول هو المذهب الوحيد الذي لا يصح الجري على خلافه، ليس في نقد ما تركه لنا الأقدمون في الأدب فقط، بل وفي كل ما تركوه في جميع فروع المعلومات البشرية، هذا مُقتضى النهضة الأدبية التي نندفع في تيارها اليوم.

وقد اقتضت كل نهضة أدبية في الأمم مثل هذا الشعور حيال ما تركه لها أسلافها؛ فغيروا بذلك وجوه تواريخهم، وتأدوا به إلى معارف حقةٍ كان لها أكبر الآثار في بلوغهم الكمال الأدبي الذي وصلوا إليه.

فتمهيد الدكتور طه حسين هو المنتظر من أستاذ الآداب في الجامعة، ولو جرى على خلافه لاعتُبر غير خليقٍ بمكانه منها، ولأضاع على الأمة مالًا جمًّا يُنفق على دروس الآداب، وعلى الطلاب أعوامًا نفسية يبذلونها من أعمارهم في دراستها، ولما كان نتيجة كل هذه الجهود في النهاية أكثر من ظهور مؤلفٍ لا يفترق عن مئات الكتب الموجودة بالمكتبات إلا في التبويب والترتيب، ولَبَقِينا حيث كنَّا من هذا العلم النفيس الذي دخل في أطوارٍ كثيرة لدى الأمم الغربية، وأصبح بعيد الأثر في تهذيب نفوسهم، وتلطيف شعورهم كما هي ثمرته اليانعة في كلِّ جيل.

نعم يَشُقُّ على كثيرٍ مِنَ النَّاس أنْ يشكَّ فيما كان يعده من العقائد المقررة سنين طويلة، وأن يُسَرِّيَ على كل ما قرأه في كتب الأدب أسلوبًا من النقد قد لا يُبقي فيه ولا يذر. ولكن التبعة التي يشعر بها حفَظة الأدب وحمَلة أمانته تضطرهم إلى تمحيصه، وتحرير مسائله وإنْ كَرِهَ ذلك النَّاس أجمعون.

وَكُلُّ الذي نأخذه على الدكتور طه حسين في هذا التمهيد ذَهابه إلى أنَّ الشكَّ الذي اعتراه في الشعر الجاهلي حادثٌ أدبيٌّ جديد، وأنَّ العلماء الأقدمين كان قُصارى ما عملوه في الشعر الجاهلي أنَّهم اختلفوا في روايته بعض الاختلاف، وتفاوتوا في ضبطه بعض التفاوت، والحقيقة أنَّهم نظروا فيه وشكُّوا في نسبته إلى الشعراء الذين عَيَّنَهم الرواة، وقرروا أنَّ هؤلاء قد كذبوا على القدماء حتى اختلط القديم بالجديد ولم يعد من الممكن تمييزُ بعضه عن بعضه الآخر.

فقد ذكروا أنَّ حمادًا الروايةَ الذي كان عائشًا في القرن الثاني للهجرة كان يضع القصائد المطولة وينسبها للعرب، وأنَّ مُعاصره حماد عَجْرَد قد حذا حذوه، واستَنَّ

بِسُنَّتِهما خلفٌ الأحمر، وقد ذكروا عن الأخير أنَّه تَنَسَّك في آخر حياته، وأراد أنْ يَدُلَّ أهلَ الكوفة على ما صنعه لهم ليميزوه عن كلام العرب فأبوا عليه لاستحالة ذلك، محتجين بأنَّ أكاذيبه كانت قد انتقلت إلى الآفاق.

وقال الإمام الجاحظ المتوفى سنة (٢٥٥هـ): «إنَّ خلفًا هذا أورد على الناس نَسيبَ الأعراب، وهو مِن أرقِّ الشعر، وما أحرَاه أنْ يكون مصنوعًا.»[٧]

وقال العلامةُ ابن سلام في كتاب «الشِّعر والشُّعراء»: «زاد النَّاس في قصيدة أبي طالب التي قالها في النبي ﷺ حتى لا يُدرَى أين منتاها!»[٨]

وقال الأصمعي: «أقمت في المدينة زمانًا ما رأيت بها قصيدةً واحدةً صحيحةً إلا مُصَحَّفة أو مصنوعة.»[٩]

وروى الجاحظُ أيضًا: «أنَّ بعضهم قال لأحد الرواة: إنَّك تكذب في الحديث، فقال: وما عليك إذا كان الذي أَزِيدُ فيه أحسن منه، فوالله ما ينفعك صِدقه ولا يضرك كَذِبه.»[١٠]

وقال المفضل الضبي — من أكبر علماء اللغة الأقدمين: «سُلِّط على الشعر من حماد الرَّاوِية ما أفسده فلا يَصْلح أبدًا، فقيل له: وكيف ذلك؟ أيُخطئ في روايته أم يلحن؟ قال: ليته كان كذلك؛ فإنَّ أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، ولكنَّه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها، ومذاهب الشعراء ومعانيهم؛ فلا يزال يقول الشعر يُشبه به مذهب رجلٍ، ويدخله في شعره، ويحمل ذلك عنه في الآفاق؛ فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد، وأين ذلك؟!»[١١]

---

[٧] ينظر البيان والتبيين، والعبارة: «... فما هو إلا أن أورد عليهم خلف الأحمر نسيب الأعراب، فصار زهدهم في شعر العباس (العباس بن الأحنف) بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب ...» ج٤ ص٢٣، ت: عبد السلام هارون، ط الخانجي ط٥، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

[٨] ينظر طبقات فحول الشعراء لابن سلام، تحقيق محمود محمد شاكر، ط دار المدني، ج١ ص٢٤٤، ٢٤٥.

[٩] ينظر معجم الأدباء لياقوت الحموي. ونص العبارة: «حدث الأصمعي قال: أقمت بالمدينة زمانًا مع جعفر بن سليمان الهاشمي واليها، فما رأيت بالمدينة قصيدة واحدة صحيحة إلا مصحفة أو مصنوعة.» ترجمة رقم ٧٠٥، عيسى بن يزيد بن دأب الليثي.

[١٠] ينظر البيان والتبيين. ونص العبارة: «وقلت لحُبَاب: إنك لتكذب في الحديث ...» ج٢ / ٣٣٩.

[١١] ينظر الأغاني طبعة دار الكتب ٦ / ٨٩. ومعجم الأدباء، ترجمة ٥٩٨، المفضل الضبي.

ونأخذ على الدكتور طه حسين أيضًا تحامُله على الطائفة التي سماهم بأنصار القديم، وذهابه إلى أنَّهم مطمئنون إلى ما قاله القدماء، وأنَّهم أغلقوا على أنفسهم باب الاجتهاد في الأدب، فإنْ كان يقصد بهذا القول أنَّهم لا يجرءون على أنْ يفعلوا فعله في نقد الشعر وتمحيصه، فقد وجب علينا أنْ نرده إلى الصواب فيه، ولا نجد أَفْعَلَ في إقناعه مِن نَقل ما كتبه الأديب المشهور الأستاذ مصطفى أفندي صادق الرافعي[١٢] في كتابه «تاريخ آداب العرب» الذي نشره في سنة (١٩١١م) أي قبل خمس عشرة سنة، من صفحة (٣٦٦ إلى ٣٨٣) فقد جاء فيه قوله:

> لما جاء الإسلام واندفع به العرب إلى الفتوح اشتغلوا عن الشعر بالجهاد والغزو حينًا من الزمن، فلما راجعوا روايته بعد ذلك وقد أخذ منهم السيفُ والحيفُ، وذهب كثيرٌ من الشعر وتاريخ الوقائع بذهاب رواته، صنعت القبائل الأشعار ونسبتها إلى غير أهلها تتكثر بها وتعتاض مما فقدته، وأخذه عنهم الرواة.
>
> وأول القبائل التي وضعت الشعر في الإسلام قريش، وكانت أقل العرب شعرًا وشعراء، ووضعوا على حسان بن ثابت أشعارًا كثيرة، ولما شمَّر الرواة في طلب الشعر للشَّاهد والمَثَل، استفاض الوضع في العرب وتفرغ قوم منهم لذلك.

وقال الأستاذ الرافعي عند ذكره شعر الشواهد:

> هذا النوع الذي يدخل فيه أكثر الموضوع ... والكوفيون أكثر الناس وضعًا للأشعار التي يُستشهد بها، واستمروا على الوضع حتى بعد أنْ استبحرت الرواية في أواخر القرن الثالث.
>
> وكان من الرواة قومٌ انفردوا بعلم القبائل وأخبارها وأشعارها، وهؤلاء الذين فتقوا هذه الفتوق في الأدب، وقد كانت علوم أولئك النفر تدور على الخبر، والشعر مما لا ينبني عليه دينٌ، ولا يدخل النَّاس منه في حَرَج، ولا يكون فيه من بعدُ إلا إِفسَادُ التَّاريخ العربي، وأَهْوِنْ بذلك ما دَام هذا التَّاريخ قائمًا بالتَّأويلات والمفاخرات والمناشدات وبكل ما نَسَخه الإسلام أو جاء بخير منه. وليست الغاية

---

[١٢] مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي [١٢٩٨–١٣٥٦هـ/ ١٨٨١–١٩٣٧م] ينظر الأعلام للزركلي ج٧، ص٢٣٥.

من أكثره إلا ضربًا من السمر ونوعًا من لهو الحديث، وقد تَزَيَّد فيه العربُ أنفسهم، وهذا هو السبب في أنك لا تكاد تجد للجاهلية تاريخًا صحيحًا، ولا ترى فيما تتصفحه إلا التَّكاذيب والمُبالغات وما يتصل بها.

أما أهل الشِّعر فيضعون منه لثلاثة أغراض: للشواهد على العلوم، والشواهد على الأخبار، والاتساع في الرواية.

وقد نشأ شعر الشواهد من الاستشهاد بالشعر على التفسير والحديث وعلى كل ما قامت به الرواية.

فلما كثر القصاص وأهل الأخبار اضطروا من أجل ذلك أن يصنعوا الشعر لما يُلَفِّقونه من الأساطير؛ فوضعوا من الشعر على آدم فَمَن دونه من الأنبياء وأولادهم وأقوامهم. وقد كتب محمد بن إسحاق[١٣] المتوفى سنة (١٥٠هـ) في السيرة من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرًا قَطُّ وأشعار النساء، ثم جاوز ذلك إلى عادٍ وثمود فكتب لهم أشعارًا كثيرة حتى صار فضيحةً عند علماء السير ورواة الشعر.

والاتِّساع في الرواية كان من أسباب الوضع، يقصد به فحول الرواة أنْ يتسعوا في روايتهم فيستأثروا بما لا يُحسن غيرُهم من أبوابها؛ وَلِذَا يضعون على فحول الشعر قصائد لم يقولوها، ويزيدون في قصائدهم التي تُعرف لهم، ويُدخِلون من شعر الرجل في شعر غيره هوًى وتعنُّتًا، ورأس هذا الأمر حمادٌ الرواية الكوفي[١٤] المتوفى سنة ١٥٥هـ.

وقد وضع خَلَفٌ الأَحْمر[١٥] الراوية قصائد عدة على فحول الشعراء ذكروا منها قصيدة الشَّنْفَرَى المشهورة بلامية العرب، وله قصائد أخرى نص على بعضها العلماء وبينوا أنَّها مصنوعة، وقد وضع على شعراء عبد القيس شعرًا كثيرًا.

١٣ محمد بن إسحاق بن يسار المُطَّلِبِي بالولاء، المدني، من أقدم مؤرخي العرب، من أهم كتبه: «السيرة النبوية».

١٤ حماد بن سابور بن المبارك، أبو القاسم، أول من لقب بالراوية [٩٥–١٥٥هـ].

١٥ خلف بن حيان، أبو محرز، المعروف بالأحمر، راوية عالم بالأدب، شاعر، من أهل البصرة، توفي نحو سنة ١٨٠هـ.

ومن أشهر رواة الكوفيين خالد بن كلثوم الكلبي،[١٦] وله صنعة في الأشعار المدونة على القبائل، وقد ألف فيها كتابًا.

انتهى ما اقتطفناه من كتاب الأستاذ مصطفى أفندي صادق الرافعي.

يرى القارئ مما مر أنَّ علماءَ اللغة قديمًا وحديثًا قد رأوا في الشعر الجاهلي ما رآه الدكتور طه حسين أخيرًا، فإذا كان في هذه البلاد أو في غيرها رجال يعتقدون أنَّ الشعر الجاهلي سليمٌ من الخلط والخبط والوضع فذلك ممن لا يُعتد بعلمه ولا يُؤخذ بقوله، وكلُّ ما في المسألة أنَّ الأُدباء الأقدمين لم يبلغوا في تعيين أسباب الوضع المبلغ الذي ترضاه عقولنا اليوم، وهذا هو الفراغ الذي تصدى الدكتور طه حسين لسدِّه في كتابه الذي ننتقده اليوم.

[١٦] ينظر خبر عن خالد في طبقات فحول الشعراء لابن سلام، ج١ ص١٤٨، لعله هو خالد المراد هنا.

مَنْهَجُ البَحْثِ[1]

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ما مُلَخَّصه:

«أحبُّ أنْ أكونَ واضحًا جليًّا، وأنْ أقولَ للنَّاس ما أريد أنْ أقولَ دون أنْ أضطرهم إلى أن يتأولوا وَيَتَمَحَّلوا ويذهبوا مذاهب مختلفة في النقد والتفسير والكشف عن الأغراض التي أرمي إليها.[2]

أريد أن أقول: إنَّي سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدَثين من أصحاب العلم والفلسفة، أريد أنْ أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه (ديكارت)[3] للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث، والنَّاس جميعًا يعلمون أنَّ القاعدةَ الأساسيَّة لهذا المنهج هي أنْ يتجرد الباحثُ من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن ممَّا قيل فيه خلوًّا تامًّا، والنَّاس جميعًا يعلمون أنَّ هذا المنهج الذي سَخِط عليه أنصار القديم في الدِّين والفلسفة يوم ظهر قد كان من أخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثرًا، وأنَّه قد جدَّد العلم والفلسفة تجديدًا، وأنَّه قد غَيَّر مذاهب الأدباء في أدبهم، والفنانين في فنونهم، وأنَّه الطابع الذي يمتاز به هذا العصر الحديث.[4]

---

[1] شغل مضمون هذا العنوان في كتاب الدكتور طه حسين من ص١١ حتى ص١٤.

[2] ينظر: في الشعر الجاهلي ص١١ (٣).

[3] «ديكارت [١٥٩٧–١٦٥٠] فيلسوف فرنسي ...» ينظر: المنجد في الأدب والعلوم، لفردينان توتل ط المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ص٢٠٥.

[4] في الشعر الجاهلي ص١١، ١٢.

فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أنْ نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء، ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برَّأنا أنفُسَنا من كلِّ ما قِيل فيهما من قبل.[٥]

نعم، يجب — حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه — أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها، وأنْ ننسى ديننا وكل ما يتصل به، وأنْ ننسى ما يُضادُّ هذه القومية وما يُضاد هذا الدين. يجب أن لا نتقيَّد بشيء، ولا نُذعن لشيء إلا مناهج البحث العلمي الصحيح، ذلك أنَّا إذا لم ننسَ قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنُضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف، وَسَنَغُلُّ عقولنا بما يُلائم هذه القومية وهذا الدِّين. وهل فَعَل القُدماء غير هذا، وَهل أفْسَد على القدماء شيءٌ غير هذا؟[٦]

كان القُدماء مُسلمين مُخلصين في حبِّ الإسلام، فأخضعوا كل شيء لهذا الإسلام وَحبِّهم إيَّاه، ولم يعرضوا لمبحث علمي ولا لفصلٍ من فصول الأدب، أو لون من ألوان الفن إلا من حيث إنَّه يؤيد الإسلام ويُعزُّه ويُعلي كلمته؛ فما لاءم مذهبهم هذا أخذوه، وما نافره انصرفوا عنه انصرافًا.[٧]

فَلْنَدَع لومَ القُدماء على ما تأثروا به في حياتهم العلمية مما أفسد عليهم العلم، ولنجتهد في ألَّا نتأثر كما تأثروا، وألَّا نُفسد العلم كما أفسدوه، لِنجتهد في أنْ ندرسَ الأدب العربيَّ غير حافلين بتمجيد العرب أو الغض منهم، ولا مكترثين بنصر الإسلام أو النعي عليه، ولا معنيين بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلميِّ والأدبيِّ، ولا وجلين حين ينتهي بنا هذا البحث إلى ما تأباه القومية، أو تنفر منه الأهواء السياسية أو تكرهه العاطفة الدينية،[٨] وإني غير مُسرِف حين أطلب منذ الآن إلى الذين لا يستطيعون أن يبرءوا من القديم، ويخلصوا من أغلال العواطف والأهواء حين يقرءون العلم أو يكتبون فيه، ألا يقرءوا هذه الفصول، فلن تُفيدَهم قراءتها إلا أنْ يكونوا أحرارًا حقًّا.»[٩]

٥ ينظر: في الشعر الجاهلي، ص١٢.

٦ السابق، ص١٢.

٧ السابق، ص١٢، ١٣.

٨ السابق، ص١٣، ١٤.

٩ ينظر: في الشعر الجاهلي، ص١٤.

رأينا في هذا الكلام

أنا لا أتمالك نفسي من أنْ أقولَ صراحةً إنَّ هذا الكلام ثمين، ولا أغالي إنْ قلتُ إنَّه أعرقُ في الإسلام من كل كلامٍ قرأته قبل هذا، ولا يعيبه إلا شيء واحد، وهو أنَّه مفرغ في قالب الخروج على الجماعة، على حين أنَّه مذهب القرآن الذي هو دستور هذه الجماعة. فلو كان قال إنَّه سيُعالج البحث في الأدب العربي وتاريخه ناسيًا قوميته وكل مشخصاتها، ودِينه وكل ما يتَّصل به، وغير متقيد بشيء، ولا مذعنٍ لشيء، إلا مناهج البحث الصحيح، جاريًا بذلك على مذهب القرآن (لا ديكارت) لكانت كلماته هذه عُدَّت أجمل تفسير لآيات الكتاب التي وردت خاصة بمنهج البحث عن الحقائق.

نعم، أصبح يَعِزُّ على المعاصرين أنْ يجعلوا للدين أو لِمَا يتصل به سلطانًا على مناهجهم العلمية، وأضحى من لا يكون على أقصى حدٍّ من حدود الحرية الفكرية غير جدير بالثقة؛ لتقيده بآراء يعدُّها مقدسةً ويحاول أن يخضع كل حقيقة لسلطانها، ونحن نعذرهم في هذا الشعور؛ لأنَّهم لا يعرفون الإسلام ولا يدرون أنَّه سَنَّ منهاجًا للبحث عن الحقائق ليس وراءه مرمى، فإنْ كَانَ المانعُ الأَنَفَة من الاتباع، فالاتباع حاصل لديكارت؛ فهل من مرجِّح للأنفة من اتباع محمد وعدم الأنفة من اتباع ديكارت؟ وهل فرقٌ في التبعية بين أن يُقال هذا قرآني وهذا ديكارتي؟

أما أنَّا فلا أجد محلًّا للأَنَفَة من اتباع المذاهب الإصلاحية على الإطلاق، وإنْ كنت أجد فرقًا بين الإعلان بتبعيتي لمذهب ديكارت وتبعيتي لمذهب القرآن. وهذا الفرق هو أنَّ ديكارت رجل فرنسي ليس بيني وبينه أية علاقة من جنسٍ أو لغةٍ أو صلةٍ من أي نوع كانت. وأمَّا القرآن فهو كتاب الأمة التي أنا منها، وبيني وبينه كل أنواع الصلات المعنوية التي تربط الإنسان بشيء من الأشياء، وقد سبق ديكارت بعشرة قرون، وأسلوبُه أدق من أسلوبه، وأجمع لوجوه الاحتياط منه.

أما وقد تأدينا إلى هذا القول فلا مناص لنا من تبيين ماهية المذهب القرآني في البحث عن الحقائق لنرى هل يفي بحاجة الدكتور طه حسين ويزيد أم لا:

(١) يريد الدكتور طه حسين أن لا يتقيد بمذهب مَن سبقه من المتكلمين، وأن لا يعتد بآرائهم؛ فإنَّ لهم ما رأوا وله ما يرى. والقرآن يقره على ذلك، بل يُطالبه به؛ فإنَّه بعد ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحق قال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا

تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤ و١٤١] وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] وقال: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

(٢) يرى الدكتور طه حسين — إن صوابًا أو خطأً — أنَّ المتقدمين قد شايعوا أوهامهم وأهواءهم في تقرير ما قرروه عن العلم فلا يُريد مجاراتهم فيه، والقرآن يُؤيده في مذهبه هذا؛ فهو يَنْعَى على المُتأثرين بالأهواء والآخذين بالظنون؛ فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦] أي يكذبون. وقال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

(٣) يطلب الدكتور طه حسين أن يتوخى في بحثه عن الحقيقة نسيان قوميته وكل مشخصاتها، وقد مَحَق القرآن القوميات ومشخِّصاتها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]. وشرح رسول الله ﷺ هذه الآية بقوله: «لقد أذهب الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها بالآباء؛ كلكم من آدم وآدم من تراب. لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح.»[١٠]

ويزيد القرآن على هذا، التوصية بعدم الخوض فيما لا نعلم، ويقرر بأنَّ الإنسان مسئولٌ عن اعتمال حواسه وقلبه في معالجة الباطل؛ فقال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[١١] [الإسراء: ٣٦].

وقد تَجَاوَزَ القرآن حدود كل مذهب فلسفي؛ فعد الإنسان مسئولًا حتى عن الخواطر التي تجيش في قلبه، والهواجس التي تهجِس في باله تنزيهًا له عن الأباطيل والأضاليل حتى ما كان منها منزويًا في أَحْنَاء صدره؛ فقال: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

فإذا كان لديكارت منهج في البحث عن الحقائق عُرِفَ بالمنهج الديكارتي La méthode cartésienne فإنَّ للقرآن منهجًا نُسمِّيه بالمنهج القرآني La méthode coranique

[١٠] ورد برواية: «يا أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر؛ إلا بالتقوى، إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم ...» خطبة حجة الوداع، شعب الإيمان للبيهقي رقم: ٥١٣٧.

[١١] تَقْفُ: أي ولا تتبع.

وقد قابلناه بمنهج ديكارت فَبَزَّه وزاد عليه، فيكون لا محل لطلب الدكتور أن ينسى المسلم دينه في أثناء البحث عن الحقيقة؛ فإنَّ دينًا يخوِّله كل هذه الحرية في البحث، ويخوِّفه كل هذا التخويف من الوقوع في الباطل، ويهديه لهذا المنهج من التثبُّت؛ جدير أنْ يجعله الإنسان دستوره في كل ما يتصدى له من أنواع العلوم.

إنَّما يُخشَى من تأثير الدِّين على مثل هذا البحث الذي تصدى له الأستاذ طه حسين — وهو الأدب — إذا كان من الأديان التي تُعاكس حريةَ البحث في أصول الجماعات وفي درجاتها من الارتقاء، وفي مكاناتها بين الأمم، وفي تأثيرها العالمي، وفي مصادر لغاتها، وفي قيمة آدابها. ولكن إذا كان كالدين الإسلامي ينص على أنَّ الأمم كلها سواء: أبوهم آدم وآدم من تراب، وأن لا فضل لعربيٍّ على أعجمي، ولا لأعجمي على عربيٍّ، ولا لأبيضَ على أسودَ إلا بالتقوى أو بعملٍ صالح كما رأيت، وعلى أنَّ الباحث يجب أن يتبع الحق حيث كان؛ جريًا على قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، وعلى أنَّه يجب أن ينظر في جميع مصادر المعرفة ليتصيدَ الحق من جميع مظانِّه؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] وعلى وجوب الحكم بالعدل ولو على النفس والأقربين؛ لقوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وعلى أنَّ الأمم كلها سواء في تحمُّل تبعة أعمالها، فلا محاباة ولا استثناء؛ لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، وعلى أنَّ الإنسان يجب عليه أنْ يخضع لسلطان الدليل لا للموروثات ولا للأوهام؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. قلنا: ولكن إذا كان دينٌ كالدين الإسلامي ينص على هذا كله؛ فكيف يجب نسيانه في أثناء البحث وهو أكمل دستور عُرِفَ عن الباحثين في الحقائق إلى اليوم؟! وبأي مرجِّح نجعل الأسلوب الديكارتي نُصب أعيننا في أثناء بحث ما نريد بحثه، ونفخر بالانتماء إليه، ولا نجعل الأسلوب القرآني نُصْبَ أعيننا في البحث ونباهي بالجري عليه؟

يقول الدكتور طه حسين: «إنَّا إذا لم ننسَ قوميتنا وديننا وما يتصل بهما فسنضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف، وسَنَغُلُّ عقولنا بما يُلائم هذه القومية وهذا الدين.»

ونحن نُجيبه على هذا بقولنا: كيف نضطر إلى المحاباة وإرضاء العواطف وهذا الدِّين نفسه يزجرنا عن المحاباة وإرضاء العواطف فيقول: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء: ١٣٥]. بل وينص على أنْ نعدل حتى مع أعدائنا الذين

يكرهوننا فيقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] أي: ولا تحملنَّكم عداوة قومٍ على أن لا تعدلوا فيهم وفي الحكم عليهم بل اعدلوا.

وكيف نغل عقولنا بما يلائم هذه القومية وهذا الدين، وديننا نفسه لا يعترف بقوميةٍ، بل يعد النَّاس كلهم سواء، ويحضنا على اعتبارهم كذلك؟

ويقول الدكتور طه حسين: «وهل فعل القدماء غير هذا؟ وهل أفسد على القدماء شيء غير هذا؟»

نقول: هَبْ أنَّهم ما فعلوا غير هذا، فما جَريرة الدِّين في ذلك وهو ينهى عنه ويحث على نقيضه؟ وهل من العدل أنْ نَأخذَ الدِّين بجريرة من لم يجرِ على أصوله؟

هل لي — وأنا أرى في كتاب الدكتور طه حسين أخطاءً كثيرة — أنْ أرفض الجري على مذهب ديكارت وعلى تناسيه وتجاهُله؛ لأنَّ الدكتور أعلنَ أنَّه من أخصِّ أشياعه فلم يُحسن الجَرْي عليه باعتماده على حكايات كتب المحاضرات التي لا يقوم على ثبوتها شِبْهُ دليل، بل التي يقوم ألف دليلٍ على مناقضتها للواقع؟!

ويقول الدكتور طه حسين: «كان القُدماء مسلمين مخلصين في حبِّ الإسلام، فأخضعوا كل شيء لهذا الإسلام وحبِّهم إياه، ولم يعرضوا لمبحثٍ علمي، ولا لفصلٍ من فصول الأدب، ولون من ألوان الفن إلا من حيث إنَّه يُؤِّيد الإسلام ويُعزه ويُعلي كلمته؛ فَمَا لاءَمَ مَذهبهم هذا أخذوه، وما نَافَره انصرفوا عنه انصرافًا.»

نَقول في الجواب على هذا الكلام: إنَّ مَن فَعَل هذا فعليه تَبِعَتُه؛ فإنَّ دينًا ينصُّ على وجوب اتباع الأصول التي ذكرتُها في كل موطن من مواطن الحياة، فلا يكون في حاجة لمن يُعزُّه ويُعلي كلمته بما يُنافي قواعده ويُضادُّ وصاياه، فإنَّه هو نفسه يُعز ويُعلي كلمته بسُمُوِّ تلك القواعد والوصايا. فإذا كان القدماء قد أخذوا ما لاءم مذهبهم ذلك وانصرفوا عمَّا نافره، فتلك فَعلتهم ولا ذنب للدين فيها، ولا تبعة علينا نحن ممَّا فعلوا: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤ و١٤١].

والدين الإسلامي لم يضع للمباحث حدًّا: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، ولم يُبيِّن ما يجب أخذُه وما يجب تركه من ثمرات الجهود الإنسانية، بل ترك العقول حرة تجول في كل مجال، وتأخذ من المعارف والصنائع ما يُؤهلها إليه

استعدادُها في دائرة المصلحة الشخصية العمومية. فمَن جرى على غير هذه السُّنَّة فعليه وزر ما فعل، ولا عاب[١٢] على الدِّين من جراء عمله.

ويقول الدكتور طه حسين: «لِنجتهد في أنْ ندرس الأدب العربي غير حافلين بتمجيد العرب أو الغَضِّ منهم، ولا مكترثين بنصر الإسلام أو النعيِّ عليه، ولا معنيين بالملاءمة بينه وبين نتائج البحث العلمي والأدبي، ولا وَجِلِين حين ينتهي بنا هذا البحث إلى ما تأباه القومية، أو تنفر منه الأهواء السياسية، أو تكرهه العاطفة الدينية.»

نقول: إنَّ هذا الكلام لا غُبار عليه، وهو مذهب كل طالب للحقيقة، إلا قوله: «ولا مكترثين لنصر الإسلام أو النعيِّ عليه»؛ فإنَّ مثل هذا القول لا يصح إطلاقه على دين لا مَرْمَى له إلا إيصال الإنسان إلى الحقيقة؛ وهو لذلك ينهج له من مناهجَ بَزَّ بها الفلاسفة وفيهم ديكارت، الذي أعلن مُؤلفنا غير مرة أنَّه من أتباعه، وقد أثبتنا ذلك بنصوص الآيات مما لا سبيل إلى إنكاره.

الخلاصة: أننا نعد منهج الدكتور طه حسين في البحث — وهو المنهج الذي لخصناه في هذا الفصل — من أكمل المناهج، بل هو المنهج الوحيد الذي ينطبق على أصول الفلسفة العصرية المنتجة إلا ما ارتكبه من غَمْطِ حَقِّ الإسلام في هذا الموطن، فإنَّه إنْ كان يعرف مكان الإسلام من هذا المنهج كان الأوْلى به أن يقول: إنَّ المتقدمين ارتكبوا ما ارتكبوه من إفساد الأدب والعلم بعدم جريهم على المنهج الذي يحضُّهم عليه القرآن، وإنَّه سيجري على ذلك المنهج الذي يُوافق ما جاء بعده بألف سنة؛ كمنهج روجر باكون[١٣] وديكارت وغيرهما، وإنْ كانَ لا يعرف الإسلام كان يجب عليه أن يُلم به قبل أن يَخُطَّ حرفًا في الأدب العربي؛ فإنَّ علاقته بآداب هذه الأمة وعقليتها وتأثيره فيهما ممَّا لا يمكن إنْكاره أو عدم الاعتداد به على أية حال.

---

[١٢] العاب: العيب.

[١٣] «[١٢١٤–١٢٩٢] راهب فرنسيسكاني إنجليزي من كبار علماء القرون الوسطى ومجدِّدي الطريقة الاختيارية في العلوم ...» ينظر: المنجد في الأدب والعلوم، ص٦١.

مِرآةُ الحَيَاةِ الجَاهِلِيَّةِ يَجِبُ أنْ تُلْتَمَسَ فِي القُرآنِ لا فِي الشِّعرِ الجَاهِلِيِّ[1]

قال الدكتور طه حُسين تحت هذا العنوان ما مُلَخَّصه:

«على أنِّي أحبُّ أن يطمئن الذين يَكْلَفون بالأدب العربي القديم ويجدون شيئًا من اللذة في أن يعتقدوا أنَّ هناك شعرًا جاهليًّا يُمثِّل حياةً جاهلية انقضى عصرها بظهور الإسلام. فلن يمحوَ هذا الكتابُ ما يعتقدون ويجدون في درسها ما يبتغون من لذة علمية وفنية، بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا، فأزعم أنِّي سأكتشف لهم طريقًا جديدة واضحة قصيرة سهلة يصلون منها إلى هذه الحياة الجاهلية، أو بعبارةٍ أصح يصلون منها إلى حياة جاهلية لم يعرفوها، إلى حياةٍ جاهلية قَيِّمة مشرقة ممتعة مخالفة كل المخالفة لهذه الحياة التي يجدونها في المطوَّلات وغيرها مما يُنسب إلى الشعراء الجاهليين. ولكني لا أسلك إليها طريق امرئ القيس والنابغة والأعشى وزهير؛ لأنِّي لا أثق بما يُنسب إليهم، وإنَّما أسلك لها طريقًا أخرى وأدرسها[2] في نصٍّ لا سبيل إلى الشك في صحته، أدرسها في القرآن فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي،[3] أدرسها في القرآن، وأدرسها في شعر الشعراء الآخرين الذين جاءوا بعده، ولم تكُن نفوسهم قد طابت عن الحياة والآراء التي أَلِفَها آباؤهم قبل ظهور

---

[1] شغل مضمون هذا العنوان في كتاب الدكتور طه حسين من ص١٥ حتى ص٢٣.

[2] ينظر: في الشعر الجاهلي، ص١٥.

[3] السابق، ص١٦.

الإسلام، بل أدرسها في الشعر الأموي نفسه،[٤] فحياة العرب الجاهليين ظاهرة في شعر الفرزدق[٥] وجرير[٦] وذي الرُّمة[٧] والأخطل[٨] والراعي[٩] أكثر من ظهورها في هذا الشعر الذي يُنسب إلى طرفة[١٠] وعنترة[١١] والشماخ[١٢] وبشر[١٣] بن أبي خازم.[١٤]

قلت: إنَّ القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية. وهذه القضية غريبة ولكنها بَدَهية حين تُفكر فيها قليلًا، فليس من اليسير أنْ نفهم أنَّ النَّاس قد أعجبوا بالقرآن إلا أن تكون بينهم وبينه صلةٌ هي الصلة التي تُوجد بين الأثر الفَنِّي البديع وبين الذين يُعجبون به حين يسمعونه أو ينظرون إليه. وَلَيْس من اليسير أنْ نَفْهم أنَّ العرب قد قاوموا القرآن وجادلوا النبيَّ فيه إلا أنْ يكونوا قد فهموه ووقفوا على أسراره ودقائقه، وليس من الممكن أن نصدِّق أنَّ القرآن كان جديدًا كله على العرب، فلو كان كذلك لما فهموه ولا آمن به بعضهم، ولما جادل فيه بعضهم الآخر، إنَّما كان القرآن جديدًا في أسلوبه، جديدًا فيما يدعو إليه، جديدًا فيما شرع للناس من دين وقانون، وفي القرآن رَدٌّ على الوثنيين وعلى اليهود وعلى النصارى والصابئة والمجوس، وهو كان يقصد بالرد على هذه المِلل فرقًا من العرب كانت تمثل هذه الملل في البلاد العربية نفسها،[١٥] هاجم الوثنية فعارضه الوثنيون، واليهود فعارضه اليهود، والنصارى فعارضه النصارى، ولم تكن هذه المعارضة هَيِّنة ولا لَيِّنة، وإنَّما كانت تُقدر بمقدار ما كان لأهلها من قوة ومَنَعَة،[١٦] فأما وثنية قريش فَقَد

[٤] السابق، ص١٦.

[٥] همام بن غالب بن صعصعة التميمي، أبو فراس، الشهير بالفرزدق، توفي سنة ١١٠هـ.

[٦] جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي [٢٨–١١٠هـ].

[٧] غيلان بن عقبة [٧٧–١١٧هـ].

[٨] غياث بن غوث [١٩–٩٠هـ].

[٩] عبيد بن حصين بن معاوية بن جندل النميري توفي سنة ٩٠هـ.

[١٠] طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي (نحو ٨٦–٦٠ق.هـ).

[١١] عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية، توفي نحو سنة ٢٢ق.هـ.

[١٢] الشماح بن ضرار بن حرملة بن سنان: شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، توفي سنة ٢٢هـ.

[١٣] بشر بن (أبي خازم) عمرو بن عوف الأسدي، شاعر جاهليٌ فحلٌ، توفي نحو سنة ٢٢ق.هـ.

[١٤] ينظر: في الشعر الجاهلي، ص١٦.

[١٥] السابق ص١٧.

[١٦] السابق ص١٧، ١٨.

أخرجت النبي من مكة ونصبت له الحرب، وأما يهودية اليهود فقد ألَّبَت عليه وجاهدته جهادًا عقليًّا، ثم انتهت إلى الحرب. وأما نصرانية النصارى فلم تكن معارضتها قويةً؛ لقلة أهلها في البيئة التي ظهر فيها النبي، والقرآن في كل ذلك إنَّما كان يتحدث عن العرب وعن نحلٍ ودياناتٍ ألفها العرب.[١٧]

فأمَّا هذا الشعر الجاهليُّ الذي يُضاف إلى الجاهليين فيُظهر لنا حياةً غامضةً جافةً بريئةً أو كالبريئة من الشعور الدينيِّ القويِّ والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية، أَوَلَيْس عجيبًا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين![١٨]

أما القرآن فيمثل لنا شيئًا آخر؛ يُمثل لنا حياةً دينيةً قويةً تدعو أهلها للجدال عنها. فإذا رأوا أنَّ الجدال قد أصبح قليل الغناء لجئوا إلى الكيد ثم إلى الاضطهاد ثم إلى الحرب.[١٩]

أفتظن أنَّ قريشًا كانت تُذيق أبناءها ألوانَ العذابِ ثُم تنصب لهم الحرب وتُضحي في سبيلها بقوتها وحياتها لو لم يكن لها من الدِّين إلا ما يُمثِّله هذا الشعر الذي يُضاف إلى الجاهليين؟ كلا![٢٠]

فالقرآن إذن أصدق تمثيلًا للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذي يُسمُّونه بالجاهلي. ولكنَّ القرآن لا يُمثل الحياة الدينية وحدها، وإنَّما يُمثِّل شيئًا آخر لا نجده في هذا الشعر، يمثل حياةً عقليةً قويةً، وقدرةً على الجدال والخصام، وقد وصفهم بها القرآن، وفيمَ كانوا يُجادلون؟ في الدِّين وما يتصل به من المسائل كالبعث والخلق والاتصال بالله، وفي المعجزة وما إلى ذلك.[٢١]

أفتظن أنَّ قومًا يُجادلون في هذه الأشياء جدالًا يصفه القرآن بالقوة يكونون من الجهل والغباوة والغِلظة بحيث يُمثلهم لنا هذا الشعر الذي يُضاف إلى الجاهليين؟ كلا، لم يكونوا جُهَّالًا وإنَّما كانوا أصحاب علمٍ وذكاءٍ وعواطف رقيقةٍ وعيشٍ فيه لين ونعمة.[٢٢]

---

[١٧] ينظر في الشعر الجاهلي، ص١٨.

[١٨] السابق ص١٨، ١٩.

[١٩] السابق، ص١٩.

[٢٠] السابق نفسه.

[٢١] السابق ص١٩، ٢٠.

[٢٢] السابق ص٢٠.

والقرآن يُعطينا عن العرب صورة أخرى؛ فهو يُحدثنا بأنَّ العرب كانوا على اتصال قوي بمن حولهم من الأمم، قسمهم أحزابًا وفرقهم شيعًا، أليس القرآن يُحدِّثُنا عن الرُّوم وما كان بينهم وبين الفرس من حربٍ انقسمت فيها العرب إلى حزبين مختلفين؛ حزبٍ يُشايع أولئك وحزبٍ يُناصر هؤلاء؟ فأنت ترى أنَّ القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم، وهو يصف اتِّصالهم الاقتصادي بغيرهم من الأمم في السورة المعروفة: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [سورة قريش، آية ١، ٢].[٢٣]

وسيرة النبي تُحدِّثنا أنَّ العرب تَجَاوَزوا بُوغاز باب المندب إلى بلاد الحبشة، ألم يُهاجر المهاجرون الأولون إلى هذه البلاد؟ وهذه السيرة نفسها تُحدِّثنا بأنَّهم تجاوزوا الحِيرة إلى بلاد الفرس، وبأنَّهم تَجَاوَزوا الشَّام وفلسطين إلى مصر، فلم يكونوا إذن معتزلين ولا بِنَجْوةٍ من تأثير الفرس والروم والْحَبَش والهند وغيرهم من الأمم المجاورة لهم، ولم يَكُونوا على غير دينٍ، ولم يَكُونوا جُهَّالًا ولا غِلاظًا، وَلَم يكونوا في عُزلة سياسية أو اقتصادية، كذلك يُمثلهم القرآن.[٢٤]

وإذا كانوا أصحابَ علمٍ ودينٍ، وأصحابَ ثروةٍ وقوةٍ وبأسٍ، وأصحابَ سياسة متصلة بالسياسة العامة، متأثرة بها مؤثِّرة فيها، فما أخلقهم أن يكونوا أمةً متحضِّرة راقيةً لا أمة جاهلةً همجيةً، وكيف يستطيع رجل عاقل أنْ يُصدِّق أنَّ القرآن قد ظهر في أمة جاهلة همجية!»[٢٥]

[٢٣] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٢١، ٢٢.

[٢٤] السابق ص٢٢.

[٢٥] السابق ص٢٣.

(١) رأينا في هذا الكلام

(١-١) تَمهيدٌ

قبل أنْ نَنَاقش الدكتور طه حسين فيما أدلى به من الآراء في الفصل المتقدم رأينا أن نأتي على موجزٍ من تاريخ الأمة العربية؛ فنقول:

تاريخ العَرب في الجَاهِليَّة

لا يزال في تاريخ العرب في الجاهلية غموضٌ كبيرٌ على كثرة ما تكلم فيه المتكلمون، وكل ما كتب في الكتب العربية من تاريخ العرب يُراد به الوجهة الأدبية لا التاريخية غالبًا؛ فأين هو من الحقائق المؤيدة بالأساطير والنقوش التي لا مجال للشك فيها؟

يُوجد للتاريخ العربي مصادر غير عربية أقدمها التوارة؛ فإنَّ في سِفْر التكوين شيئًا من أخبار العرب، وفي أسفارٍ أخرى ذكر بعض قبائلهم وملوكهم.

وقد ألمَّ المؤرخ اليوناني هيرودوتس[٢٦] المتوفَّ في أوائل القرن الخامس قبل الميلاد بشيء من ذكر العرب. وألمَّ غيره من المؤرخين بذكر أشياء عن العرب ليس فيها كبير فائدة، وإنَّما الفضل في الإفاضة في تاريخ العرب للمؤرخين: استرابون وبلينيوس[٢٧] وبريبلوس وبطليموس؛[٢٨] فإنَّهم ألموا بجميع ما قيل عن العرب وفصلوه تفصيلًا.

الآثار العربية والتاريخ

للآثار فائدةٌ كبيرةٌ جدًّا في كشف تواريخ الأمم؛ فقد كان تاريخ المصريين لا يزال غامضًا لولا ما دوَّنوه من أخبارهم على آثارهم ومعابدهم.

[٢٦] مؤرخ ورحالة يوناني، ملقب بأبي التاريخ [٤٨٤–٤٢٥ق.م] ينظر المنجد في الأدب والعلوم فردينان توتل، ص٥٥٩.

[٢٧] ينظر المصدر السابق ص٨٤.

[٢٨] ينظر المصدر السابق ص٧٨.

كذلك للعرب آثارٌ باليمن والحجاز وغيرها عليها نقوشٌ حميريةٌ بالقلم المسند أو نقوشٌ آراميةٌ بالقلم النبطي وغيره، فلما اهتدى بحَّاثو أوروبا إلى أماكنها قصدوها لحلِّ رموزها وكشف النقاب عن تاريخ العرب.

أول من تصدى لهذه المباحث العالم الألمانيُّ ميخايلس المتوفَّى سنة ١٨٩١م، ثُمَّ عثر الضابط الإنجليزي ولسند سنة ١٨٣٨م على نقوش حميريةٍ باليمن اهتم بها العلماء غاية الاهتمام ولم يستطيعوا حل رموزها إلا بعد سنين.

ووجد الضابط الإنجليزي كروتندن في صنعاء نقوشًا ظن أنَّها من خرائب مدينة مَأرِب.

أول من تصدى من الفرنسيين للبحث عن هذه النقوش كان المسيو (أرنو) فإنَّه اخترق اليمن سنة ١٨٤٣، وعاد ومعه ٥٦ نقشًا نقلها من صنعاء والخريبة وحرم بِلْقِيس.

ثم جاء المستعرب (أرسيا ندر) فَحَلَّ رموزَ الآثار التي وجدها أرنو، وذلك سنة ١٨٤٥.

ثم إنَّ وزارة المعارف في باريز أرسلت المستعرب يوسف هاليفي سنة ١٨٦٩ إلى اليمن، فسار حتي بلغ مَأرِب ورجع معه ٦٨٠ نقشًا.

ثم جاء إدورد غلازر الألماني فَسَاحَ في اليمن مِرارًا ونقل منها ألف نقشٍ بينها نقوشٌ غاية في القيمة التَّاريخيَّة.

ثُمَّ حاول الوصول إلى مَأرِبَ رجالٌ آخرون فهلكوا في الطريق.

وعثر الباحثون أيضًا في شمال بلاد العرب على آثار الأنباط؛ فوجدوا منها آثارًا كثيرة في مدينة بَطْرا ومدينة الحِجْر، واكتشفوا في حُوران والعُلَى نقوشًا بالخط المسند الحِمْيَري؛ فكشفت جميع هذه النقوش النقابَ عن جزء من التاريخ العربي القديم، وما بقي منه أكثر.

ثم إنَّ البَحَّاثين عثروا في آثار بابل وآشور ومصر وفِنيقيةَ على شيءٍ من تاريخ العرب، فوجدوا في بابل نقوشًا بالخط المسماري وقفوا منها على تاريخ العمالقة من العرب البائدة،

واستدلوا من النقوش التي وجدوها في آشور وبابل على قيام دولة حمورابي[٢٩] العربية [التي] استولت على بابل عدة قرون قبل الميلاد بأكثر من ألفي سنة.

من هم العرب؟

العرب من الساميين، والساميون هم الشعوب الذين يتكلمون بالعربية والعبرانية والسريانية والحبشية، ومنها الشعوب التي كانت تتكلم باللغة الفنيقية والآشورية والآرامية.

ومعنى ساميين أنَّهم منسوبون إلى سام بن نوح عليه السلام.

والناقد البصير يحكم لأول وهلة أنَّ هذه اللغات مشتقة كلها من أصلٍ واحد؛ لتشابهها لفظًا وتركيبًا.

وقد اصطلح مؤرخو العرب أن يُقسِّموا تاريخهم قبل الإسلام إلى قسمين:

العرب البائدة، والعرب الباقية؛ فالبائدة: عندهم التي بادت قبل الإسلام. والباقية قسمان: العرب القحطانية باليمن، والعرب العدنانية بالحجاز وما يليها.

العرب البائدة: هي قبائل عادٍ وثمود والعمالقة وطَسْمٍ وجديسٍ وأميم وجُرْهُم وحضرموت ومن يتصل بهم، ويُقال لهم: العرب العاربة.

وقد كان لهذه القبائل ملوكٌ ودولٌ، وقد امتد ملكهم إلى الشام ومصر.

وروى المؤرخون أنَّ هذه القبائل كانت تسكن أولًا في بابل من آسيا الصغرى ثُم هاجروا إلى جزيرة العرب، وقالوا: إنَّ بني عادٍ والعمالقة ملكوا العراق.

ثم إنَّ مؤرخي العرب يُقسِّمون القبائل البائدة إلى قسمين: العماليق وهم من نسل لاوَذَ بن سام، وسائر القبائل الأخرى من إِرَم بن سامٍ.

فالعمالقة في نظر مؤرخي العرب من نسل لاوذ بن سام، والعرب البائدة من نسل إرم؛ أي آراميين.

والعمالقة هم أهل شمال الحجاز مما يلي جزيرة سيناء، فتحوا مصر مدة الفراعنة، وأسسوا فيها أسرة ملكية.

---

[٢٩] سادس ملوك السلالة الأولى في بابل، ومؤسس إمبراطوريتها، وضع مجموعة شرائع تعتبر أقدم ما بلغ إلينا من أمثالها عن الأقدمين. أيام ملكه بين ١٧٢٨ و١٦٨٦ق.م ينظر المنجد في الأدب والعلوم، فردينان توتل ص١٦٧.

قلنا: إنَّ العرب ملكوا العراق وأسسوا بها دولة، ونقول: إنَّ هذه الدولة سمَّاها المؤرخون المحدثون دولة حمورابي، وهو اسم أكبر ملوكها ومؤسس أقدم شريعة في العالم، وزعموا أنَّه كان من أهل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، أغار على الدولة البابلية الأولى فاقتبس قومُه تقاليد البابليين ومدنيتهم، واستخدموا لغتهم، ثم فني المقهورون في القاهِرين وصارت الدولة البابلية عربية بحتة.

أما دولة العمالقة في مصر فتبتدئ من سنة ٢٢١٣ إلى ١٧٠٣ قبل الميلاد، جاءوها من طريق برزخ السويس أو البحر الأحمر، فأقاموا بها، وكثر عددهم فيها، ثم لما سنحت لهم الفرصة وثبوا على ملوكها وملكوا البلاد دونهم. وكان أول ملوكهم سلاطيس، حكم بعده بنوه إلى سنة ١٧٠٣ فتمكن المصريون من انتزاع الملك من أيديهم وطردهم؛ فتفرقوا في جزيرة العرب قبائل وأفخاذًا، وأنشئوا دولًا في اليمن والحجاز وسائر جزيرة العرب.

أما عادٌ فهي من القبائل الآرامية؛ ولذلك سُمِّيَتْ أيضًا عاد إرم، والعرب يضربون المثل بهم في القِدَم.

أما ثمود فكان مقامها في الحِجْر المعروفة بمدائن صالح في وادي القُرَى بطريق الحاجِّ الشامي، وكان اليهود يسكنونها قبل الإسلام.

أما طسمٌ وجَدِيس فقد قال عنهما مؤرخو العرب إنَّهما من إرم مثل سائر العرب البائدة، وذكروا أنهما سكنتا اليمامة في شرق نجدٍ وقاعدتها الفرية. وكانت طسم صاحبة السيادة إلى أنْ تولاها رجلٌ ظلومٌ فأنفت جديسٌ من الخضوع له فقتلوه هو وخاصة قومه، فهرب رجلٌ إلى تُبَّع اليمن حسان بن أسعد فشكا إليه ما أتته طسمٌ واستنجده؛ فأرسل إلى طسم وجديس جيشًا فأفناهم معًا.

دولة الأنباط: ذكر العرب دولة الأنباط في كتبهم وأرادوا بهم أهل العراق، وقد تحقَّق المنقبون في الآثار والمتتبعون لتواريخ اليونان والرومان وما ذُكِرَ في التوراة أنَّ دولة الأنباط كانت عربيةً قامت بمشارف الشام في الجنوب الشرقي من فلسطين ممتدةً إلى رأس خليج العقبة، يحُدها من الجنوب باديةُ الحجاز، ومن الشمال فلسطينُ، ومن الشرق باديةُ الشام، وكان اليونان يُسمُّون هذه المملكة ببلاد العرب الحِجْرِيَّة، وكانت عاصمتها بَطرَا (الحِجْر).

كان أقدم سكان هذه الجهة الحَوْرِيِّين، وهم سكان الكهوف القدماء، وكانوا قبائل على كلٍّ منها رئيسٌ، غزاهم داود ملك اليهود وكانوا يسمونهم الأدوميين، وبقوا تحت

سيادة اليهود إلى أن ضعف أمرهم، فاستقلوا، وكبر سلطانهم في عهد بَخْتَنَصَّرَ؛[٣٠] إذ ساعدوه في حروبه لليهود، ثم دهمهم الأنباط من الشرق فملكوا مملكة أدوم قبل القرن الرابع للميلاد، وبقيت إلى أوائل القرن الثاني بعده حتي دخلت في حوزة الرومان سنة ١٠٦، وهم عربٌ على الأرجح.

أما مدينه بَطْرَا عاصمتهم فكانت قائمةٌ في مستوًى من الأرض تحيط به الصخور عند ملتقى طرق القوافل بين تدمُر وغزة وخليج فارس والبحر الأحمر واليمن، وكان العرب يُسمونها الرَّقِيم.

كان للنبطيين ملوكٌ ووزراء ونظامٌ سياسيٌّ واقتصاديٌّ، وكان الاسم الغالب على ملوكهم الحارثُ أو عبادة أو مالك، فكان الحارث الأول سنة ١٦٩ قبل الميلاد وهو أول ملوكهم.

أما مدينة تدمُر فهي الواقعة في طرف البادية التي تفصل الشام عن العراق، وتبعد نحو ١٥٠ ميلًا عن دمشق نحو الشمال الشرقي، تُحيط بها جبالٌ.

من أشهر ملوكها (زينوبياء)[٣١] وهي امرأةُ أُذَيْنَةَ، وكانت وصيةً على ابنها القاصر، فملكت مصر والشام والعراق وما بين النهرين وآسيا الصغرى إلى أنقرة؛ فقاتلها القيصر الروماني أورليان[٣٢] وهزمها.

كانت زينوبيا من أعجب النساء شجاعةً ودهاءً، وكانت تركب الخيل وتجالس قُوَّادَهَا.

وقد رجَّح بعضهم أنَّ زينوبيا هي التي يُسميها العرب الزَّبَّاء ملكة الجزيرة بعد أبيها عمرو بن الظَّرِب بن حسان العِمْليقي، ويذكرون أنَّها احتالت على جَذِيمة الأبرش[٣٣] — ملك الحيرة الذي قتل أباها — حتى قتلته.

دول اليمن: اليمن هو الجزء الجنوبي الشرقي من جزيرة العرب، وكان ينقسم إلى ٨٤ مخلافًا، والمخلاف تحته مدنٌ ومحافد وقرى.

أما تاريخ اليمن فمن أشد التواريخ سَقَمًا واضطرابًا.

---

[٣٠] ملك الكلدانيين [٦٠٤–٥٦١ق.م] المنجد في الأدب والعلوم ص٦٦.

[٣١] ينظر المنجد في الأدب والعلوم ص٢٤٠.

[٣٢] أوريليانوس: إمبراطور روماني [٢٧٠–٢٧٥] انتصر على زينب ملكة تدمر وجاء بها أسيرة إلى روما. ينظر: المنجد في الأدب والعلوم ص٤٧.

[٣٣] ينظر: المنجد في الأدب والعلوم ص١٣٤.

أول من ملك اليمن يعرُبُ بن قحطان[٣٤] فإنَّه قهر قوم عادٍ باليمن والعمالقة بالحجاز، وولَّى إخوته على ما كان بأيديهم؛ فولَّى أخاه جُرْهمًا على الحجاز، وعاد بن قحطان على الشِّحْرِ، وحضرموت بن قحطان على جبال الشِّحر، وعُمَان بن قحطان على عمان.

ثم تولى بعده ابنه يَشْجُبُ بن يعرب، ثم ابنه عبد شمسٍ وهو سبأٌ الذي بنى سدَّ مأرب المشهور.

وقد أعقب سبأٌ هذا عدة أولاد أشهرهم حِمْيَرٌ وكهلان، ولما مات سبأٌ خلفه ابنه حمير وهو مؤسس الدولة الحميرية، وهي طبقتان: الملوك التَّبابعة، وملوك حمير. للمؤرخين اختلافاتٌ كبيرةٌ في عددهم وعصورهم وتتابعهم، ولكنهم اتفقوا بأنَّ آخر ملوك حمير وأول التبابعة هو الحارث الرائش.

أما التَّبابعة فأولهم الحارث الرائش المذكور، وآخرهم ذو جَدَنٍ[٣٥] حكم بعد ذي نواس[٣٦] الذي غلبه الأحباش وأخذوا اليمن منه، وقد بلغ عدد التبابعة ٢٦ تُبَّعًا.

ثم فتح الأحباش اليمن في آخر عهد التَّبابعة، وكان عليها التُّبَّعُ ذو نواس، فهرب وهلك في هروبه، فخلفه ذو جدن، فقهره الأحباش أيضًا، وأقاموا باليمن تلك الآثارَ التاريخية الدَّالَّة على قيام ثلاث دول في اليمن، وهي: الدولة المعينية، والدولة السبئية، والدولة الحميرية، ولا بد لنا من كلمة على كل منها.

(الدولة المعينية) لم يتنبه علماء التاريخ إلى هذه الدولة إلا حديثًا، ولم يكن لها ذكر في تواريخ العرب أنفسهم، وما نبههم إليها إلا ورود ذكرها في كلام المؤرخ اليوناني استرابون، وقد ذكرهم غيرُه من المؤرخين القدماء كبلينيوس وذيونيسيوس وبطليموس؛[٣٧] فكان العلماء يظنون أنَّ المعينيِّين هم المنائيون نسبة إلى مِنى بقرب مكة، ولكن المستعرب هاليفي لما ارتاد بلاد الحوف في شرق صنعاء اكتشف أنقاض معينٍ، وقرأ اسمها عليه مكتوبًا بالقلم المسند، ووجد بجانبها براقش، ونقل معه ثلاثمائة وثلاثة نقوش منها ٧٩ وجدت بمعين، ١٥٤ وجدت ببراقش، و٧٠ وجدت بالسوداء، فقرأ المستعرب المذكور أسماء

[٣٤] يعرب بن قحطان بن هود، قيل إنَّه كان سلطانًا من سلاطين اليمن، وجَدَّ ملوكِ حمير. وقيل إنَّه أول من تكلم باللغة العربية فسُمِّيَ يعرب. المنجد في الأدب والعلوم ص٥٧٤.

[٣٥] ينظر: القاموس المحيط [مادة: ج د ن].

[٣٦] ينظر: القاموس المحيط [مادة: ن و س].

[٣٧] ينظر: المنجد في الأدب والعلوم ص٧٨.

الكثيرين من ملوك الدولة المعينية، ووقف على كثير من نظامها. وقد بلغ عدد من عثر على أسمائهم من ملوك معين ٢٦ يشترك كلُّ عددٍ منهم في اسم ويتميزون بالألقاب؛ فمنهم (أب يدع) يثيع أي المنقذ، و(أب يدع) ريام أي السامي.

وقد ثبت أنَّ سلطان هذه الدولة امتد إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وشواطئ خليج العجم وبحر العرب؛ أي إنَّها استولت على جميع شبه جزيرة العرب، وكانت دولةَ تجارة وسلام لا فتح ولا حرب.

والظاهر أنَّ أصل هذه الدولة قبيلةٌ من عرب العراق الذين أسسوا دولة حمورابي في بابل، فلما بادت دولتهم هنالك نزحوا إلى اليمن وأسسوا فيها المعينية.

(الدولة السبئية) دولة سبأ قحطانيةٌ ويسمَّون بالعرب المتعرِّبة، ولكنَّ المؤرخين من العرب أغفلوا ذكر أصل هذه الدولة، والذي عُرِفَ الآن أنَّ هذه الدولة تأسَّسَت في القرن الثامن قبل الميلاد بعد الدولة المعينية، وقد بلغ عدد من عُرِفَتْ أسماؤهم من ملوك هذه الدولة أكثرَ من ثلاثين ملكًا استدلُّوا عليهم من النقوش الأثرية، وقد كانت دولةَ سلامٍ وتجارة، وقد دفعت الجزية للآشوريين. ويظهر من النقوش أنَّ هذه الدولة مرت على أربعة أدوار تتميز بألقاب ملوكها؛ فكان ملكهم في الدور الأول يلقب بلقب (مَكْرِب سبأ)، وكان في الدور الثاني يلقب (بملك سبأ)، وفي الدور الثالث (بمكرب سبأ وريدان)، وفي الدور الرابع (بمكرب سبأ وريدان وحضرموت وغيرها).

يُرجَّح أنَّ هذه الدولة وُجِدت سنة ٨٥٠ وزالت سنة ١١٥ قبل الميلاد.

(دولة حمير) الحميريون فرع من السبئيين، وحمير عند العرب هو ابن سبأ، ويظهر أنَّ الحميريين كانوا يقيمون في ريدان قبل توليتهم بمدة قرون، فلما سنحت لهم الفرصة أخضعوا إخوانهم السبئيين ثم أشركوهم معهم فصار ملكهم يُدعى (ملك سبأ وذو ريدان).

كان آخر ملوك حمير ذا نُواس سنة ٥٢٥ ميلادية؛ فكان مدة بقاء الدولة السَّبَئيّة ٦٤٠ سنة.

(فتح الأحباش لليمن) العلاقة بين اليمن والحبشة كانت موجودةً من القدم؛ لقرب البلدين. وقد طمع بعض ملوك الحبشة في الاستيلاء على اليمن؛ فرُوي أنَّ أحدهم حاول امتلاكها في أوائل القرن الثاني للميلاد، وأنَّ واحدًا آخرَ ملك بعض مدنها في أواخر القرن الثالث، فطرده الحميريون، ثُمَّ عاد الأحباش في منتصف القرن الرابع فاكتسحوا اليمن كلها؛ فحدثت بينهم وبين العرب وقائعُ كثيرة، ولا سيما بين ملك الحبشة العلي إسكندري وبين الهدهاد ملك حمير، ثم بين العلي عميدة وبين الهدهاد وبلقيس، ثُمَّ تَمَّ للأحباش فتح

اليمن بمساعدة الرومان، ومكثوا بها إلى سنة ٣٧٤ ميلادية، ثم استردها الحميريون إلى سنة ٥٢٥؛ حيث أعاد الأحباش عليها الكَرَّةَ وملكوها ثانية؛ فحدث في هذه المدة ما حدث من أبرهة بن الأشرم[٣٨] الذي تصدى لهدم الكعبة.

ثم مَلَّ الحميريون سلطة الأحباش؛ فذهب أحد أمرائهم — واسمه سيف بن ذي يَزَن[٣٩] — إلى الفرس واستنجد بهم فأنجدوه بجيش قهر به الأحباش؛ فوقعت اليمن تحت سيادة الفرس إلى أن فتحها المسلمون في عصر النبي ﷺ.

مدنية العرب في اليمن: تبين القارئ مما تقدم أنَّ أهل اليمن لم يَقِلُّوا عن أهل مصر وفِنيقية مدنيةً في العصور القديمة، إذ كان منهم الملوك الفاتحون والتجار المتنقلون وكان لديهم مدنٌ عامرةٌ وآثار جميلةٌ، ويظهر أنَّهم اقتبسوا ذلك من البابليين أولًا على عهد دولة حمورابي التي أغارت عليهم قبل نحو أربعة آلاف عام، وقد عثر البَحَّاثون على آثار قصورهم وأطلال معابدهم وقطع من سَكَّتِهم (أي نقودهم).

وقد عرف أيضًا أنَّه كانت لهم تجارة واسعة في أنواع البخور والطُّيوب والصُّموغ، وروي أنَّهم كانوا يَفْلحون الأرض ويستثمرونها، وكانوا يستخرجون المعادن من باطن الأرض كالذهب والفضة والأحجار الكريمة. وكانت لهم قصورٌ شاهقةٌ؛ كقصر غمدان، وقصر ناعط، وقصر ريدة، وقصر صرواح، هذا غير القلاع والسدود والجسور.

(الدول القَحطانية الأخرى) كان عرب اليمن كثيرًا ما ينزحون من بلادهم عند نزول الشدائد بهم، فينزلون الحجاز أو اليمامة أو البحرين أو عمان، وقد تيسَّر لبعضهم إنشاء دولٍ في بعض تلك الجهات. وقد عد العرب من دولهم الغساسنة بالشام، والمناذرة بالعراق، وكندة بنجد.

وقد اعتبر العربُ تسع عشرة قبيلةً خارج اليمن من بني قحطان؛ أي يمنية غير عدنانية، وهي: قبائل طيئ والأشعر وبجيلة وجذام والأزد وعاملة وكندة ولخم ومذحج وهمذان ومازن وغسَّان وعدنان ومزيقيا وأزد شنوءة والأوس والخزرج وخزاعة. ولكلٍّ من هذه القبائل بطونٌ وأفخاذٌ وعمائر وعشائر لا سبيل لحصرها هنا، وقد نشأت من بعضها — وهي غسَّانُ ولخم وكندة — دولٌ سيرد ذكرها.

[٣٨] ينظر: المنجد في الأدب والعلوم ص٤.

[٣٩] ينظر: الأعلام للزركلي ج٣ ص١٤٩.

وقد اتفق العلماء على أنَّ هذه القبائل كلها قحطانيةٌ، وأنَّهم خرجوا من اليمن بعد انهدام سد مأرب على أثر سيل العرم، وإنَّا لذاكرون موجزًا من تاريخ كل دولة من هذه الدول الثلاث المارِّ ذِكْرُها.

دولة الغَساسِنَة

قلنا: إنَّ بني غسان هاجروا من اليمن لتهدُّم سَدِّ مَأرِب بسيل العرم، فنزلوا مشارف الشام وحاربوا قومًا من قُضَاعَةَ يقال لهم الضَّجَاعِمَةُ، وأخذوا ما بأيديهم وأسَّسوا هنالك تحت حماية الرومان في الجهة التي تُعرف الآن باسم البلقاء وحُوران، فبلغوا درجة عالية من المدنية. يقول بحَّاثو الغرب: إنَّ عدد ملوك الغساسنة لا يتجاوز العشرة، وإنَّ أولهم جَبَلَة بن شمر، وآخرهم جَبَلَة بن الأيهم[٤٠] الذي قهره المسلمون وأخذوا بلاده.

امتد مُلْكُ الغساسنة حتى عَمَّ مشارف الشام وتدمُر وفلسطين ولبنان، وبنى ملوكهم القصور الفخمة والقناطر الضخمة. من قصورهم المشهورة: القصر الأبيض، وقصر المشتى، وقصر الفضاء، وقصر السويداء، وقصر أبين، وغيرها.

دولة اللَّخْمِيِّينَ في العراق

أول من حكم العراق آل تَنُوخ ومنهم جَذِيمة الأبرش، ثم صار الحكم بعده إلى ابن أخته عمرو بن عَدِيٍّ وهو من آل نصر: فرع من لخمٍ. وقعت دولة اللخميين تحت سلطة الفرس، كما كانت قد وقعت دولة الغساسنة تحت سلطة الرومان، ويطلق العرب على ملوكهم اسم ملوك الحيرة.

كان أول ملوك الحيرة عمرو بن عديٍّ كما قدَّمنا وآخرهم المنذر المغرور. وكانت عاصمتهم مدينة الحِيرة وهي على نحو ثلاثة أميال من الكوفة في موضع يُقال له النَّجَف على الساحل الغربي للفرات، وكانت آهِلَةً بالقصور والمباني العظيمة والحدائق الغَنَّاء، وبقيت الحيرة عامرة في الإسلام بضعة قرونٍ، وكان بجوارها القصران المشهوران وهما: الخَوَرْنَقُ والسَّدِيرُ.[٤١]

---

[٤٠] ينظر: الأعلام للزركلي ج٢ ص١١١.

[٤١] ينظر القاموس المحيط مادتا [خ ر ن ق، س د ر].

دولة كندة

كندة بطن من كهلان، فهم قحطانيون، أصلهم من البحرين والمُشَقَّر، هاجروا إلى حضرموت فأقاموا ببلدة اسمها كندَة فكانوا هنالك موالين للحميريين.

فاتفِق أنَّ حُجْرَ بن عمرو آكِل المُرَار[42] سيد كندة كان أخا حسان بن تُبَّعٍ — ملك حمير — من أمه، فولاه قبائل معدٍّ كلها.

تأسست هذه الدولة في القرن الخامس، وانقرضت بوفاة امرئ القيس سنة ٥٦٠.[43]

تاريخ العرب العدنانية

العرب العدنانية هم ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام؛ وذلك أنَّ إبراهيم هاجر بامرأته هاجر وابنها إسماعيل إلى بلاد العرب، فأسكنهما بمكة وبنى البيت الحرام، ثُمَّ عاد إلى الشام، فلما كبر إسماعيل تزوج بامرأة من بني جُرهم أصحاب مكة في ذلك العهد، قيل: فولدت له اثني عشر ولدًا، فتناسلوا حتى بلغ عددهم الملايين، وكانت العرب تُسمِّيهم الإسماعيلية والعدنانية أيضًا نسبة إلى عدنان جَدِّ ذُرِّيَّة إسماعيل.

والفرق بين العرب العدنانية والعرب القحطانية ينحصر في النظام الاجتماعي وفي الدين واللغة.

فمن الوجهة الاجتماعية يمتاز العرب العدنانية عن القحطانية بأنَّ جمهورهم أهل بداوةٍ يسكنون الخيام، ويربون الماشية، ويرحلون وراء المياه والأعشاب، فهم لا يبنون بيوتًا، ولا يؤسسون أمصارًا، إلا أهل مكة فإنهم تحضَّروا منهم.

ومن الوجهة الدينية يمتاز القحطانيون بأنَّ آلهتهم تقرُب من آلهة البابليين، منها عشتار وأيل وبعل ... إلخ، ولكن آلهة العدنانيين كانت لا تشترك مع سواها، ولها أسماءٌ خاصة كاللَّاتِ والعُزَّى ومناة وهُبَل.

ومن الوجهة اللغوية يوجد بين الطائفتين خلافٌ جوهريٌّ، وإن كان الجميع يتكلمون العربية، والخلاف يتناول الإعراب والضمائر والاشتقاق والتصريف.

كان هؤلاء العرب العدنانية على حالة قبائل، وكان لهم ماشيةٌ كثيرةٌ وتجارةٌ.

---

[42] ينظر: الأعلام للزركلي ج٢، ص١٦٩، والقاموس المحيط مادة [م ر ر].

[43] ينظر: الأعلام للزركلي ج٢ ص١١.

وكان مقامهم في تهامة والحجاز ونجدٍ على حالة بداوةٍ، إلا قريشًا فقد تحضرت وسكنت مدينة مكة.

ثم إنَّ هذه القبائل نزحت من بلادها لطلب العيش؛ فأنشأ بعضها دولًا وضاع ذكر البعض الآخر.

فكان أول من نزح بني قضاعة، فتفرقت بطونها من جزيرة العرب في نجد والبحرين ومشارف الشام؛ فأنشأ بعضها دولًا بالعراق والشام، وكان نزوح هذه القبيلة حواليَ القرن الأول للميلاد.

دول قضاعة

من بطون قضاعة (جهينة) و(بليٌّ) وكانت منازلهم بين ينبع ويثرب ومصر على شواطئ البحر الأحمر، ولم تكن لهم دولٌ ذات ملوك، ولكنهم غلبوا على بادية مصر وصعيدها أجيالًا.

ومن دول قضاعة (تَنُوخ) وهو فرعٌ كبيرٌ من قضاعة، وقال بعض المؤرخين: إنَّ تنوخًا كانت مزيجًا من قضاعة والأزد، وكانت دولتهم في أوائل ظهور النصرانية.

كان لتنوخ دول في مشارف الشام والعراق منها دولة جَذِيمة الأبرش، كانت عاصمتها في المضيرة بين بلاد الخانوفة وقرقيسيا، ويرى المؤرخون أنَّ هذه الدولة كانت في نحو القرن الثالث من الميلاد.

لم تطل أيام هذه الدولة، فحل محلَّها بطنٌ آخر من قضاعة اسمه سليحٌ.

دولة سليح

سليحٌ بطنٌ من قضاعة ملكوا مشارف الشام بعد تنوخ، وكان مقرهم في مواب من أرض البلقاء وفي سليمة وحوارين والزيتون، ومن ملوكها النعمان بن عمرو، ومالك بن النعمان، وعمرو ابنه، ثُمَّ خلفهم الغساسنة كما مَرَّ، والأولون هم الضجاعمة الذين ذكرنا أنَّ الغساسنة تغلبوا عليهم.

أنمار

أنمار بطنٌ من قضاعة رحلت إلى جبال السروات فملكوها، ثم تخاصمت هنالك القبيلتان المكوِّنتان لأنمار؛ وهما: بَجِيلَةُ وخَثْعَمُ، فحدثت بينهما حروب يطول بسطها.

إيادٌ

إياد بطن من قضاعة نازعتها مُضَر الحياة، فنزحت من تِهَامة إلى العراق قرب الكوفة، ثم إنَّهم شَنُّوا الغارة على الفرس فأوقع بهم كِسْرَى أنوشروان[٤٤] وأجلاهم عن العراق؛ فنزلوا إلى تكريت والجزيرة والموصل، ثم نزحوا منها إلى بلاد الرومان والشام.

ربيعة

هاجرت ربيعة من تِهَامة، فنزحت قبيلة عبد القيس منها إلى البحرين وهجر، ونزلت قبائل أخرى منها إلى نجد والحجاز واليمن. وكانت القبائل التي نزلت الحجاز منها بكرٌ وتغلِب وعنزة وضُبَيْعَةُ، ثم حدثت بينهم حروبٌ فتغلبت بكر على تغلب؛ فتفرقت تغلب في البلاد، وانتشرت بكر بن وائل وعنزة وضبيعة باليمامة إلى سواد العراق، وانحازت النمر وغفيلة إلى أطراف الجزيرة وعانات. وكانت الزعامة لعنزة، ثم تحولت إلى عبد القيس، ثم إلى النمر بن قاسط، ثم إلى بكر بن وائل، ثم إلى تغلب؛ فتولى منها وائل بن ربيعة، وهو كُلَيبٌ المشهور.[٤٥]

مُضَرُ

استأثرت مُضَرُ بتهامة حتى كثر عددها، فوقعت بين بطونها الحروب، وأشهر تلك البطون قيس بن عيلان وخِنْدَف؛ فغلبت الثانية، فظعنت قيس بن عيلان إلى نجد إلا قبائل منها انحازت إلى أطراف الغور من تهامة؛ فنزلت هوازنُ ما بين غور تِهامة إلى ما والَى بِيشَة وبركا وناحية السَّراة والطائف وذي المجاز وحنينٍ وأوطاسٍ.

---

[٤٤] ينظر: المنجد في الأدب والعلوم ص٤٣٨.

[٤٥] [نحو ١٨٥–١٣٥ق.م] ينظر: الأعلام للزركلي ج٥، ص٢٣٢.

وكان بنو خِندف يتألفون من قبيلتي طابخة ومُدرِكَة، فنزلت طابخة بظواهر نجد والحجاز، وأوت مُزَيْنَةُ إلى جبال رَضْوَى وما والاها بالحجاز، ورحلت تميمٌ وضبَّة إلى منازل بكرٍ وتغلب. وهاجرت بنو سعد إلى يَبْرِين، ونزلت طائفة إلى عُمَان، وأخرى بين أطراف البحرين إلى ما يلي البصرة.

وأقامت قبيلة مُدرِكَة بتهامة، وكانت لهذيلٍ بنو فَهمٍ وعَدوان من قيس عَيْلان. وأقام بنو النضر بن كنانة حول مكة، أنزلهم قُصي بن كلابٍ الحرم وهم قريشٌ؛ فكان بالحجاز من العرب أسدٌ وعبسٌ وغَطَفان وفَزارة ومُزينة وسليم وفهمٌ وعَدوان وهُذَيْلٌ وخثْعمٌ وسلول وهلال وكلابٍ وطَيِّئٌ وأسد وجهينة وغيرها.

ذكرنا عَرَضًا في هذه الفذلكة — عند ذكر استعمار الحبشة لليمن — ما حدث من اعتزام عامله أبرهة على صرف الناس عن حج البيت إلى حج كنيسةٍ بناها بصنعاء، وتفصيل هذا الإجمال هو أنَّ أبرهة لما هَمَّ بذلك وأخذ له أهبته، جاء رجلٌ من العرب فأهان تلك الكنيسة، فَهَاج ذلك غضب أبرهة؛ فعزم أن يثأر لِبيعَتِه بهدم الكعبة؛ فجهَّز لذلك جيشًا، وسار على رأسه قاصدًا مكة، وما زال يطوي المفاوز والموامي حتي وصل إلى ضواحي مكة واستاق من أموالها إبلًا لعبد المطلب جد النبي ﷺ، وكانت قريش قد أخلت البلدة ولجأت إلى الشعاب تاركةً البيت الحرام وما فيه من أصنامها ونُصُبها لرحمة المغير الحاقد. وهنالك أصاب جيشه حادثٌ اضطره للإسراع بالرجوع، فعاد وقد باد أكثر عسكره، ولم يقضِ ممَّا أراده وطرًا. في هذه السنة وُلِدَ النبي ﷺ فكانت هذه الغارة قبل بعثته بأربعين سنة.

هذا موجزٌ من تاريخ العرب مُقتَبَس من أبحاث العلماء الغربيين الذين عنوا بدرس الآثار العربية، وأُغْرُوا بتحرير تاريخ هذه الأمة على نور ما هُدوا إليه من المعالم التَّاريخيَّة والآثار العمرانية.

(١-٢) مناقشة ما كتبه الدكتور طه حسين في العرب

يقول حضرته: «إنَّ الشعر المُسمَّى بالجاهليِّ لا يُمثِّل حياة الأمة العربية قبل البعثة المحمدية.» ونحن لا يسعنا إلا موافقة الأستاذ على ذلك، فإننا نرى كما رأى النَّقَدَةُ الأقدمون ونقلناه عنهم في الفصل الأول من هذا الكتاب، أنَّ هذا الشعر الذي بين أيدينا أكثره مختلقٌ وضعه الوضَّاعون في القرن الإسلامي الأول والثاني والثالث، كما وضعوا مئات الألوف من الأحاديث ونسبوها للنبي ﷺ، وكما وضعوا خُطبًا لا تُحصى وكلمات

مأثورة لا تُحصر على كبار الصحابة والتابعين والملوك والقادة من جميع الأجناس والنِّحَل، ولئن كان الرواة الأولون قد حَفِظوا عن الجاهليين شعرًا صحيحًا، فإنَّما هم قد تحرَّوْا منه ما لا يُصادم الإسلام؛ تأثُّمًا من نقل أخبار المشرِكين وإذاعة ضلالاتهم الاعتقادية. وقد ثبت أنَّ العرب الإسلاميين في إبان نهضتهم قد تحرَّجوا من ترجمة الإلياذة المنسوبة لهوميروس[٤٦] الشاعر اليوناني القديم، وكان ذلك كما يقول العلامة درابر Draper في كتابه «المنازعات بين العلم والدين» "Les conflits de la science et de la religion" تحرُّجًا من ذكر الآلهة اليونانيين، وتعظيم أبطالهم الممتازين؛ فلا غرو أن يهمل الرواة حفظ القصائد الدينية التي قالها العرب وفيها ما فيها من ذكر الأصنام والخرافات التي لا تخفى على سمع من كانوا يعنون بالشعر في تلك الأيام.

ويقول الدكتور طه حسين: «إنَّ القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية، وأصح تمثيلًا لها من الشعر المسمى بالجاهلي.»

ونحن نوافقه على ذلك من وجهٍ، ونخالفه من وجهٍ آخر، أما أنَّ القرآن يُعتبر أصقل مرآة لما كان عليه عربُ الجاهلية من النقائض الخُلقية والعيوب الاجتماعية، والمنكَرات العادية، فنعم؛ لأنَّ القرآن قد عرض عقائدَ ودافع عنها، وعرض عقلية الجاهليين وسَخِرَ منها، وعرض اعتراضاتهم على دعوته ودحضها، وعرض تفصيلاتٍ جمة عن أحوالهم الاجتماعية وعاداتهم الزوجية، ومألوفاتهم البيتية، ومنازعاتهم السياسية والاقتصادية وشنَّع عليها وعابها، ولم يدع كبيرة ولا صغيرةً من أخلاقهم الرديئة ومعاملاتهم المَعِيبة إلا أتى عليها وأزرى عليها وتهكم بها، واستنزل سُخط العقلاء عليها، فهو يُمثل حياة الجاهليين من وجهة نقائصهم وسيئاتهم تمثيلًا لا يدانيه فيه شعرٌ ولا تاريخٌ.

وكيف لا يكون كذلك وهو إنَّما جاء لنقلهم ممَّا هم عليه إلى حالٍ أرقى منه درجاتٍ، وتهيئتهم لأن يَحْيَوْا حياةً صالحة تأخذ بهم إلى معارج الارتقاء، وتحفزهم إلى تخطِّي دوائر الجمود التي كانوا فيها ولا يبغون عنها تحوُّلًا، ولا يتخيلون وراءها مذهبًا. وهل يتأتى له ذلك إلا بالدخول في صميم شئونهم الحيوية، وحكاية ما هم عليه من المنكرات الاجتماعية، ثم الكرِّ عليها بالتقبيح والتهجين، أو بالتعديل والتقويم.

[٤٦] عاش في القرن التاسع قبل الميلاد. ينظر: المنجد في الأدب والعلوم ص٥٥٨.

ونخالف الدكتور طه حسين من وجهِ كفاية القرآن وَحْدَهُ في تَجْلِيَةِ ما كان عليه العرب من الصفات المحمودة، وليس له أن يعرض لذلك وهو في مقام دعوتهم إلى دين يقلب وجودَهم الاجتماعي رأسًا على عَقِبٍ، ويهدم ما هم عليه من أساسه، ويُقيم على أنقاضه صَرْحًا جديدًا لحياةٍ جديدة لم يعرفوها إلى ذلك الحين.

فتكون النتيجةُ اللازمةُ لمذهب الدكتور طه حُسين أننا نبقَى جاهلين بما كان عليه عربُ الجاهلية من الكرم الذي ضُربت به الأمثال وبلغ حدَّ التضحية بالنفس، وحفظ الجِوَارِ الذي لم يُؤثَر مثله عن غيرهم، والشجاعة وإباء الضَّيم، وحب الحرية، والصبر على المكاره، والنجدة، والصدق في القول، والذكاء، وهي الصفات التي يجلِّيها الشعر المدعوُّ بالجاهلي في حدودها البدوية كل التجلية، فهذا الشعر لا يمكن الاستغناء عنه في بناء تاريخ العرب الجاهليين، ولا يكفي القرآن وحده في ذلك.

وما دام الشعر المنسوب لهم — وفيه المختلَق والصحيح — قد أجمع على نسبة هذه الصفات لهم؛ فيمكن الاعتمادُ عليه في تكميل بناء تاريخهم، وإلا فنكون قد حكمنا بعدم إمكان الوصول إلى هذا التاريخ على الإطلاق.

فلننظر الآن فيما يقوله الدكتور طه حسين من أنَّ القرآن يُمثِّل لنا في عرب الجاهلية حياةً دينية قوية، وقدرةً على الخصام والجدال، وأنَّهم كانوا أصحاب علمٍ وذكاءٍ وعواطفَ رقيقةٍ، وعيش فيه لينٌ ونعمةٌ، وأنَّهم كانوا على اتصال قوي بمن حولهم من الأمم، قسَّمهم أحزابًا وشيعًا، وكانوا يُعنَوْنَ بسياسة أُمَّتَيِ الفرس والروم، وعلى اتصالٍ اقتصاديٍّ بغيرهم من الأمم، وأنَّهم تجاوزوا باب المندب إلى بلاد الحبشة، وتجاوزوا الحِيرَةَ إلى بلاد الفرس، وتجاوزوا الشام وفلسطين إلى مصر، وأنَّهم كانوا متأثرين بالسياسة العامة ومؤثِّرين فيها؛ وبذلك فقد كانوا أمةً متحضرةً راقيةً لا أمةً جاهلةً همجيةً، ثُمَّ قال: وكيف يستطيع رجل عاقلٌ أن يُصدقَ أنَّ القرآن قد ظهر في أمة جاهلة همجية؟

نقول: إنَّنا لا نرى رأي الأستاذ في كل هذه الإطلاقات، ونوجز رأينا في الفصول الآتية:

هل كانَ للعربِ الجَاهليِّين حياةٌ دينيةٌ قويةٌ وحياةٌ عقليةٌ قويةٌ؟

لا جدالَ في أنَّ العرب كانوا قبل البَعثة المحمدية على دينٍ هو الوثنية على أخس أشكالها؛ لا كوثنية اليونان ذات الميتولوجيا المتأنِّقة في الخيال، ولا كوثنية المصريين والهنود والصينيين

الثرية في الأصول الداعية إلى تطهير النفس، والتجردُّ من عالم المادة والتغلغل في الحياة الروحية بفرض الرياضات، وإيجاب العبادات. وقد دفعت الأديان الوثنية أصحابَها إلى كثير من العلوم والفنون، فعبادة الكواكب جعلت من الكَلْدانيين أول المستكشفين لمساتير القُبَّة الزرقاء،[٤٧] وأول الضابطين لحركات الأجرام العُلْوِيَّة، وعبادة الطبيعة في قواها المتعددة حَفَزت اليونانيين للنظر في عوالمها وتقليد صنائعها؛ فوصلوا إلى غايات بعيدة في فنون النَّقش والنحت والتصوير، ودفعت بفريق آخر منها إلى باحات الفلسفة والعلوم، وقلَّ مثلُ ذلك عن الهنديين والصينيين والمصريين الأقدمين.

أما العرب فكانت وثنيتهم ساذجةً مبهمةً قليلة السلطان على عقولهم، لم تدفعهم لأيِّ صناعة من الصناعات التي يَدفع إليها التديُّن، ولولا أصنامٌ كانوا أقاموها في مكةَ يحجون إليها في كل عامٍ مرة، لَسَاغَ عدُّهم من الأمم المجرَّدة من العاطفة الدينية.

يقول الدكتور: إنَّ الأمة العربية كانت قويةً في دينها. ونحن نقول: أسمعت أنَّ أمة تكون قويةً في دينها، وليس لها هيئةٌ كهنوتيةٌ، ولا أساطير دينيةٌ، ولا معابد محليَّةٌ، ولا كتابٌ يُرجع إليه في شئونها العبادية، وتهتدي بهديه في أمورها التعاملية؟ أكانَ للعرب من مظاهر التدين إلا أنَّهم كانوا يحُجُّون البيت الحرام بمكة كل عام مرة ثم تعود كل قبيلة إلى مَحِلَّتِهَا لا تربطها مع جاراتها رابطةٌ مِلِّيَّةٌ، ولا تجمعها وإيَّاها عاطفةٌ رُوحيةٌ، حتي إنَّه لما اعتزم أبرهة عامل مَلِكِ الحبشة على اليمن هدم الكعبة وَصَمَد[٤٨] إليها على رأس جيش لتنفيذ هذه العزيمة، كان كل ما عمله العرب لدرء الخطر عن البيت الذي يحترمونه أنْ لزمت كل قبيلة مكانها، ماضيةً في شأنها من الإغارة على جيرانها وسلب أموالها وسبي نسائها، وتركت جيش أبرهة يخترق صحاريها ومعاميها[٤٩] آمنًا مطمئنًّا، وكان كل ما فعلته قريش التي كانت تتولى سدانة[٥٠] الكعبة أن فرَّت من وجه المغير بنسائها وأولادها وماشيتها معتصمةً بشِعاب الجبال تاركةً تحت رحمته آلهتها وكعبتها يفعل بها ما يبدو له. فلو كان لهذه الأمة غَيْرَةٌ على دينها وهي أمة حربية بطبيعتها، أما كانت تداعت لحماية

---

[٤٧] القبة الزرقاء: السماء.

[٤٨] صمد الشيء، وله، وإليه صَمْدًا: قصده.

[٤٩] مجاهلها.

[٥٠] أي: خدمة الكعبة.

أصنامها وأنصابها، فتدفقت سيول فرسانها من كل حَدَبٍ والتفَّت حول حرمها تدافع عنه المعتدين عليه، وتستميت في الذِّياد[51] عنه ولو فنيت دونه؟

أما ولم تفعل ما كانت تفعله كل أمة تغار على كرامتها الدينية، فلا نستطيع أنْ نُوافق الدكتور طه حسين على أنَّها كانت ذات نزعةٍ دينيةٍ قويةٍ، بل نستطيع أنْ نقول: إنَّها كانت قليلة الغَيْرَةِ على دينها إلى درجة مَعِيبة.

يعتمد الدكتور طه حسين على القرآن نفسه في التدليل على أنَّ العرب كانوا ذوي حياة دينية قوية، يستنتج ذلك من تشدُّدهم في رفض الدين الجديد وثباتهم على دينهم الموروث، وذهابهم في الاستعصاء على الدعوة كل مذهب حتى أداهم ذلك إلى الحرب الضَّرُوس،[52] ولو كان تأمَّل قليلًا في نفسية العرب الجاهليين لرأى هذا الاستعصاء منهم كان حالةً اشتركت في أحداثها بضعة عوامل تُعتبر من مميزات الأمة العربية في جاهليتها. وبما أنَّ الدكتور طه حسين لا يعتدُّ في بناء تاريخ الجاهلية إلا بالقرآن؛ فنحن سنسرد هذه العواملَ واحدًا واحدًا مستندين إلى نص القرآن نفسه، فإليك:

أولُ هذه العوامل: ضعفُ العاطفة الدينية عندهم. وأجلى مظهر لهذا الضعف أنَّهم لم يكونوا على أمرٍ جامع من عقائدهم شأن الذين لا عراقة لهم في الدين، فقد كان بعضهم دَهْرِيًّا لا يعتقد بوجود إله، وبعضهم لم يكونوا يعتقدون بالبَعث بعد الموت، ومنهم من كانوا يعبدون الكواكب، ومنهم من كانوا يعبدون الملائكة، ومنهم من كانوا يعبدون الأصنام ويعتقدون أنَّها شُفعاؤهم عند الله.

فهل يُعقل أنْ تكون أمة على مثل هذا الخبط من أمر دينها، لا تجمعها جامعةٌ، ولا ترجع في عبادتها إلى أصلٍ مُدوَّن، وليس لها في تلك العصور هيئةٌ ممتازةٌ تُهيمن على عقائدها، وتكون مع هذا كله قوية في دينها؟ وإذا ثبت ضعف العاطفة الدينية عندها من هذا الطريق فلا عجب أن يُلاقي كلُّ دينٍ جديد من تَلَكُّئها في قبوله ما لاقى الإسلام في أول أمره منها.

ثاني هذه العوامل: إفراط العرب في الفخر بآبائهم، والتباهي بمناقبهم ومآثرهم؛ فقد لا تُصادف في أمم الأرض قديمًا وحديثًا من يُشاكلهم في هذه الخَصلة؛ فكان يصعب

---

[51] أي: الدفاع.

[52] أي: الشديدة المهلكة.

عليهم أن يُسجِّلوا على أولئك الآباء — بقبولهم الدين الجديد — أنَّهم كانوا على ضلال مبين.

ثالث هذه العوامل: جُمودهم على ما كان عليه آباؤهم بغير تعقل ولا اعتمال رَويَّة، وقد حكى عنهم القرآن ذلك فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۝ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩، ٧٠]، ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠].

رابع هذه العوامل: مجيء الدين من طريق محمد بن عبد الله، هو وإنْ كان من ذُؤابة[٥٣] قريش نسبًا وحسبًا إلا أنَّه لم يكن من الموسرين المستكثِرين، ولا من زعمائهم المتصدِرين، وقد أشار إلى ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] المراد بالقريتين: مكة والطائف. ومؤدَّى هذه الآية أنَّه لو كان قام بالدعوة إلى الإسلام أحد هؤلاء الزعماء لاتَّبعوه. وقد صرح القرآن بأنَّهم كانوا يقلِّدون رؤساءهم بلا روية ولا تفكير، ونعى ذلك عليهم في صورة حكاية ما سيقولونه يوم يُعرضون على العذاب في الحياة الآخرة: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧].

فاشتراك هذه العوامل الأربعة يكفي في تعليل استعصائهم على الدعوة الإسلامية بادئ ذي بدءٍ.

وعلى أنَّ القرآن قد صرح أنَّ العرب كانوا لا يعبئون بالدين لقولهم: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ۝ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٧، ٦٨].

وقال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] أي: وما كانت عبادتهم في البيت الحرام إلا صفيرًا وتصفيقًا، وقال: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٧–٥٠].

[٥٣] الذؤابة من كل شيء: أعلاه.

ولو كان حقًّا ما يقوله الدكتور طه حسين من أنَّ ذلك الاستعصاء الذي قابل به العرب الدعوة الإسلامية كان ثمرة قوَّتهم في دينهم لكان جدالهم مع النبي ﷺ أخذ شكلًا يشعر بأنَّهم على عقائد مقرَّرة، وأصول محددة على مثال الجدال الذي كان يقوم به اليهود؛ فقد كانوا يسألون النبي ﷺ في أمور ويجيبهم عنها ويحاكمهم إلى كِتابهم إذا أنكروها، ولكن عرب الجاهلية قابلوا الدعوة الإسلامية بسلاح العاجز وهو قولهم إنَّهم لا يستطيعون أن يتخلوا عن دين آبائهم الأولين. وكل ما فعلوه بعد ذلك أنَّهم كانوا يتعجبون من التوحيد؛ فقالوا كما حكاه عنهم القرآن: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۞ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۞ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [سورة ص: ٥–٧].

ولا يخفى أنَّ التعجب من وحدانية الله لا يدل على شيء من الذكاء، والتواصي بالصبر على آلهتهم لا يتجاوز المقاومة السلبية، مقاومة الجهلة الأغبياء، وتصريحهم بأنَّهم لم يسمعوا بهذا التوحيد في الملة الآخرة يدل على سذاجة لا يُعذرون عليها على أية حال.

وقد استنفد القرآن كُلَّ أنواع البيان في إقناعهم، فلم يظفر بطائل؛ فأخذ يسألهم: ألكم كتابٌ فيه تدرسون، أعندكم أثارةٌ[٥٤] من علمٍ عنها تصدرون، ألكم عقولٌ بها تميزون وعلى حكمها تنزلون؟

فلما أعياهم أمره، واستعصى على علاجه جمودُهُم، قرر أنَّهم كالأنعام بل أحط من الأنعام؛ فقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فأين بعد هذا ما يستخرجه الدكتور طه حسين من القرآن من قوة حياتهم الدينية والعقلية، وسُمُوِّ قدرتهم الجدلية المنطقية، وعلو كعبهم في الشئون العلمية؟

لعله عرض ما ذكره القرآن من تعنُّتِهم في طلب الآيات فعَدَّه من فرط ذكائهم، وقوة إدراكهم! ونحن نعرض عليك ما ورد في القرآن من ذلك لنرى هل يدل على ذكاء أم غباء؛ فإليك: قال الله تعالى:

---

[٥٤] الأثارة: بقية الشيء.

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ۞ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۞ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۞ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٠–٩٣].

وقالوا: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٧].

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۞ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

وقالوا: ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣].

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۞ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٤٣–٤٥].

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦].

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧، ٨].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۞ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۞ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٤٣–٤٥].

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۞ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٦–٨].

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۞ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۞ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٤–٤٦].

هذه صورة كاملة من الآيات التي وردت في القرآن فيما يتصل بالجدال الذي وقع بين عرب الجاهلية ورسول الله ﷺ، لا يؤخذ منها أنَّهم كانوا على شيء من الذكاء والعلم والقدرة على الخصام، بل يتبين منها أنَّهم كانوا على نقيض ذلك كله. فإنَّ كلَّ ما طلبوه أن يخرق لهم النبي ﷺ العادة بعين ماءٍ يفجرها، أو بجنة تكون له فيأكل منها، أو ببيتٍ يُعطاه من الذهب يأوي إليه، أو يطير إلى السماء، ويأتيهم بكتاب منها يقرءونه، أو يأتيهم بالله وملائكته ليروه بأعينهم، أو يسقط السماء عليهم قِطَعًا قِطَعًا فيهلكهم، وهذا كله بالهزل أشبه منه بالجد، ولا يدل على شيء من الفطنة والفهم، بل هو نوع من الهذيان (لا) يقدر عليه حتى الأطفال. أما الذي يدل على الصفات التي نحلهم إياها الدكتور طه حسين فهو قرع الحُجَّة بالحُجَّة، ومقابلة البيان بما يبطل سحره، ويلاشي خدعه، والاستشكال على أقوال النبي وأفعاله بِشُبَهٍ يحار فيها العقل، ويضيق عنها الوسع.

زعموا أنَّ القرآن مُفترًى، فتحداهم بأنْ يأتوا بسورة مفتراة من مثله فعجزوا: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

فما هي القيمة العلمية والجدلية لقومٍ يصيحون بأنَّ هذا القرآن مفترًى ثُمَّ يعجزون عن تأليف سورة من كلام يُشبهه؟

كان كل ما فعلوه إزاء هذا التحدي المخزي أن تداعَوْا إلى اللغو والتهويش حين يُتلى عليهم القرآن ليبطلوا تأثيره فيهم وفي غيرهم؛ فقال الله فيهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فهل هذا فعل قومٍ يُوصفون بالذكاء والعلم والقدرة على الجِدَال؟ وهل عُهِدَ في تاريخ المناظرات أن يستعين الخصم باللَّغَطِ والضوضاء حين يُدْلي الخصم بحجَّته ليبطلها بهذا النحو من العبث الذي لا يصدر إلا من الغوغاء؟

هنا نسأل أنفسنا: إذا كانت الحالة العقلية والنفسية للعرب كانت على ما وصفه القرآن من الانحطاط والسقوط؛ فكيف يمكن تفسير إقامتهم لحكومةٍ عقب وفاة النبي ﷺ مباشرةً أمكنها أن تلُمَّ شعثهم، وتجمع شتاتهم، وتحافظ على وَحدتهم، وتدفعهم لدَحْرِ الأمتين العظيمتين اللتين حملوا نيرَهما قرونًا طويلةً، وهما الفرس والرومان؛ فسحقت الأولى ومثَّلت بجثمانها، وهزمت الثانية وامْتَلَخَتِ[٥٥] الشَّام ومصر من براثنها؟ هل كانت تكفي المدة التي لبثها النبي ﷺ بين ظهرانيهم — وهي ثلاث وعشرون سنة — لأنْ تخلقهم خلقًا جديدًا فيصبحوا قادرين على ما لم يكونوا يحلمون به أيام جاهليتهم؟ هَبْ أنَّه أوجد فيهم صلاحًا وورعًا وأدبًا؛ فهل أوجد فيهم عقلًا عمليًّا ومرانًا حكوميًّا، واستعدادًا للترقي وقدرةً على تصريف الأمور من قبيل الطفرة؟

يقول قائل: نعم إنَّ هذه المدة تكفي لأنْ تتمكن روح عاليةٌ كروح النبي ﷺ من نقلهم من حالٍ إلى حالٍ يُناقضها، وتَعُدَّهُمْ لأن يقوموا بأعباء مملكة شاسعة لم تتسنَّ لهم في أي عهدٍ من عهودهم.

[٥٥] امتلخ الشيء: استله أو اجتذبه.

نقول: هذا سائغ من الوجهة الخيالية الشعرية، ولكنه من الوجهة العملية لا يَنْقَع غُلَّةَ المنقِّب عن العِلل الطبيعية، ولا ينطبق على السنن الاجتماعية، وحَلُّ هذه المشكلة في نظرنا هو ما سنجمله في الأسطر التالية:

عرب الجاهلية، وبخاصة في مكة والطائف ويثرب، كانوا — لاختلاط كثيرٍ منهم بالأمم المجاورة لهم، وترددهم على سورية ومصر وفارس، ولاشتغالهم بالتجارة والمعاوضات — على شيء من الحياة المدنية اقتبسوها اختلاسًا في رحلاتهم المتكررة، وبمزاولة مهنتهم المحلية، ولكنهم كانوا في هذه المدن مقيمين على النظام البدوي المحض من الانقسام إلى قبائل وبطون وأفخاذ وفصائِلَ وأسر، فلم تكن لهم حكومةٌ مركزيةٌ، ولا رئيسٌ محدودُ السلطة، ولا شرطةٌ، ولا محاكمُ، ولا شيءٌ ممَّا يميز الحكومة النظامية، وكانوا يُغِيرُونَ على جيرانهم ويُغَار عليهم كسائر العرب، وكما سنتبين ذلك في هذا الكتاب. فلم يكن من فارق بينهم وبين أهل البادية إلا أنَّ هؤلاء كانوا يُقيمون في دورٍ مبنية بدل الخيام، وكان مُرْتَزَقُهم من الاتِّجار وتربية الأنعام. فلما ظهر النبي ﷺ، ودعا النَّاس سرًّا إلى الإسلام تسارعت إليه العناصر الصالحة من هؤلاء الناس وقبلوا دعوته، وكتموا أمرهم عن الدهماء. فلما أُمِرَ النبي بإعلان الدعوة، وأخذ المشركون يضطهدونهم لصُبوئهم عن دين آبائهم صبروا معه صبرًا استنفد كل ما في وسعهم من احتمال، ثُمَّ قرروا — وقد بلغ السيل الزُّبَى[٥٦] — أن يُهاجروا إلى حيث يأمنون على أنفسهم ودينهم من عنت المشركين، فاختاروا أن تكون دار هجرتهم الحبشة، ولمَّا شدَّد الكافرون النكير على رسول الله ومن بقي معه قرروا الهجرة إلى المدينة بعد الاتفاق مع أهلها سرًّا على ذلك، فتسللوا إليها تحت جُنْحِ الظلام، ثم لحق بهم من كان قد ذهب إلى الحبشة منهم، فكان هؤلاء المهاجرون الأوَّلون — وهم صفوة قريش والعناصر الصالحة فيهم، ومن انضمَّ إليهم من أهل يثرب (المدينة) — نواة لدولة جديدة كُتِبَ لها أن تنمو وتمتد وتحدث في العالم الإنساني حدثًا جللًا له نور يتألق إلى اليوم.

واتفق في ذلك الحين أنَّ الدولتين اللتين كانتا تتنازعان السلطان في الأرض — وهما دولتا الفرس والرومان — كانتا آخذتين في الانحلال؛ فبعد أنْ تحققت للعرب وَحْدَةٌ دينية وسياسية، ودفعتها طبيعة الاجتماع المنظم للتبسُّط في الأرض انتزعت سورية ومصر من

[٥٦] مثلٌ يضرب للأمر إذا اشتد حتى جاوز الحد.

الرومانيين، وكان أهلوهما ينتظرون فَرَجًا من عسف المستعمرين، ثم وجهوا شطر فارس، وكانت في حالة النزع؛ فما هي إلا ضربتان حتى تفككت أوصالُها، وضاع وجودها، وتبادر عقلاؤها لقبول الدين الجديد، فانضم إلى العرب بذلك عنصرٌ عريقٌ في المدنية كان له أثر كبيرٌ في حفظ وجود الدولة الإسلامية.

هذا، ولسنا ممن يذهبون مذهب الذين يعدُّون عرب الجاهلية همجًا متوحشين، عارين من كل فضيلة، وكاسين بكل رذيلة، بل نعتقد كما يعتقده الدكتور طه حسين بأنَّه كانت لهم حياة دينية وعقلية، وأنَّهم كانوا أذكياءَ بفطرتهم، وبأنَّه كانت لهم عواطف، وكان لبعضهم عيشٌ فيه لينٌ ونعمةٌ، وأنَّهم كانوا على اتِّصالٍ سياسي واقتصادي بمن حولهم من الأمم جَنَى على الملاصقين منهم للأمم المتمدنة الوقوعَ تحت نيرها، وأنَّ أهل المدن منهم كانوا على شيء من الحضارة.

كل هذا صحيحٌ من بعض الوجوه، ولكنهم كانوا قُبَيْلَ البعثة المحمدية وفي إبَّانها في دَور تدهورٍ وانحلالٍ، عقب دورٍ أخذوا فيه حظهم من الحضارة والغَلَب والاستقلال، ولا أدل على ما نقول من أنَّ جميع بلادهم المجاورة لدولتي الفرس والرومان والحبشة وقعت تحت نير هذه الأمم؛ حتى إنَّ القبائل العدنانية الوسطى سكان الحجاز ونجد لم تنجُ من الخضوع لسلطان الأجنبي؛ فقد كانوا تابعين لعرب اليمن إلى أواخر القرن الخامس، وكان عرب اليمن تابعين إذ ذاك للأحباش. وأدل من هذا على أنَّهم كانوا في دور تدهورٍ وانحلال أنَّ دولتي الفرس والرومان كانتا إبَّان البعثة المحمدية وقبلها في دور انحطاطٍ مريعٍ، فاستمرار الأقاليم العربية المجاورة لهما على حمل نيرهما[57] — وهما في هذا الدور — من الدلائل المحسوسة على أنَّ أهلها كانوا في حالة نفسية يقبلون معها كل إذلال يُفرض عليهم.

وليس أدل على تدهور وانحلال القبائل العدنانية في نجد والحجاز أيضًا من تركهم جيش أَبْرَهَة عامل الحبشة يتوغل في بلادهم على عَزْمِ هدم الكعبة دون أن يُلاقي أية مقاومة. أين هذا من غَيْرَةِ اليونان حين اعتزم (الملك إكسيركسيس) ملك الفرس في القرن

[57] النِّير: الخشبة المعترضة فوق عنق الثورين لجر المحراث. المعجم الوسيط [ن ي ر] والمراد هنا الخضوع والذل.

الخامس قبل ميلاد المسيح على اكتساح بلادهم فقاوموه شبرًا شبرًا حتى أَصْلَوه في مضايق الترموبيل[٥٨] نار حربٍ طاحنة لم يجد معها مناصًا من الارتداد على عقبه رغمًا عمَّا كان معه من الجيوش الجرَّارة والعدد المجتاحة.

وإنْ تذكَّرتَ أنَّ جواب قريش نفسها على تلك الغارة الحبشية كان تَرْكَها الكعبة وما فيها من آلهتها تحت رحمته، ولياذها بالشِّعاب دون أن يُراق من رجالها قطرة دم؛ علمت أنَّ داء الانحلال كان قد سرى في جسد الأمة العربية متحضِّرها ومتبدِّيها سريانًا لم تعُدْ معه تصلح لحماية حَوْزةٍ، ولا للدِّفاع عن كرامة.

نَعم قد كان لبعض العرب ذكاءٌ وفهمٌ، وعيشٌ فيه لينٌ ونعمةٌ، وسكان المدن منهم كانوا على شيء من الحضارة، ولكنهم كانوا على حالٍ من الانحلال الأدبي والاجتماعي لا يُرجى لهم معه قيامٌ، فكانوا من الدين على وثنيةٍ منحطةٍ خاليةٍ مما يموِّهها من المعابد الفخمة، والهياكل الضخمة، والسَّدَنة الراقين، والمرشدين الروحيين، وكانت عبادتهم تنحصر في حج البيت والتصفيق والصفير فيه. وكان لديهم السِّفاح ذائعًا، وشرب الخمر شائعًا، ولعب الميسر مباحًا، وتعدد الزوجات إلى ما لا حد له سائغًا، وحرمان النساء من الميراث بل وراثتهنَّ كما تُورَث الأنعام والتحكم فيهن حقًّا مقررًا، وإجبار فتياتهن على البغاء طمعًا في أجورهن عملًا محللًا، وكانوا مع ذلك يَدُعُّون اليتيم[٥٩] ولا يتحاضون على طعام المسكين، ويأكلون التراث أكلًا لمًّا، ويُحبون المال حبًّا جمًّا.[٦٠]

كل هذا صرح به القرآن، وشهد به عليهم، وَجَبَهَهُم به على رءوس الأشهاد، وهو ليس بشيء في جانب داء دويٍّ سرى في دمائهم، واختلط بكيانهم، وأصبح عنصرًا من عناصر وجودهم، وأصلًا من أصول طبيعتهم، ألا وهو داء الفُرقة مع كل ما يستتبعه من تناحُرٍ وتنازع، وما يقتضيه من تناكر وتقاطع، فكانت سيوفهم لا تجف من دمائهم، ورماحهم لا تطهر من أشلائهم، لا يجمعهم دينٌ جامعٌ، ولا يلم شعثهم[٦١] غرضٌ واحدٌ؛ قال تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

٥٨ ينظر: المنجد في الأدب والعلوم ص١٠٧.

٥٩ تنظر سورة الماعون الآية ٢.

٦٠ تنظر سورة الفجر الآيات ١٨–٢٠.

٦١ الشَّعث: ما تفرَّق من الأمور.

فإذا كان لا يجوز لنا أن نعتمد على أقوال المؤرخين الإسلاميين فيما رووه عن عسف ملوك العرب المجاورين للفرس بالعراق، وللرومان في حدود الشام، وعن انهماك النَّاس هنالك على السَّفاسف والدنيئات من الأمور، والقعود عن استرداد استقلالهم، وقناعتهم بحياة العبودية والذل، وفيما رووه عن تناحر الأوس والخزرج بيثرب، وشغل أهل مكة بالقيان،[٦٢] والعزف بالعيدان، والفسوق والعصيان، قلنا: إذا كان لا يجوز لنا الاعتمادُ على أقوال المؤرخين في ذلك لاتهامهم بتحقير الجاهلية والجاهليين، وترويجهم دعوة الإسلام والمسلمين، فإنَّ الحوادث تشهد عليهم بذلك؛ فإنَّ هذه القبائل الكثيرة منهم قد لَبِثَتْ قرونًا قبل البعثة المحمدية في حالة جمود وخمود لم ينبُغ فيهم داعٍ إلى هداية، ولا رادع عن غواية، ولا مصلحٌ يحاول لَمَّ شعثهم، وجمع متفرقهم، وتوحيد كلمتهم، ولا مُشْتَرِعٌ[٦٣] يجهد أن يضع لهم نظامًا، أو يطلب لهم وئامًا، ولا فيلسوفٌ ينظر في الحقائق، ويحاول إدراك الدقائق، ولا طامعٌ في ملكٍ يُعالج من أمرهم ما عالجه الطامعون في الأمم، ويُعاني ما عاناه الساعون في بَعثِ الهمم، وإحياء الرمم، ولا صانعٌ حتى في عواصمهم المتحضرة يُحسن نَحْتَ أصنامهم، أو بناء معابدهم. هذا والأمم المتمدينة تُحيط بهم من كل مكان، والاتصال بينهم حاصلٌ في كل آنٍ، فماذا تستنتج من هذه الحالة الراكدة، والحياة الهامدة، إلا أنَّهم كانوا قد استنفدوا كل ما في قدرتهم من أسباب البقاء، ولم يبقَ لهم منها ما يبعثهم على الارتقاء لمباراة الأحياء؟

يقولون: قد بُعث النبي ﷺ في عهدٍ كان العرب فيه يتحفزون للنهوض، ويتهيئون للوثوب. وقد بحثنا في مبلغ هذا القول من الصحة فلم نجد له أثرًا يدل عليه، بل وجدنا أنَّ الجمود، والتمسُّك بالقديم، والاستنامة إلى المألوف العتيق، كان قد بلغ منهم حَدًّا يكاد لا يوجد له شبيهٌ في تاريخ الأمم، فقد دعاهم رسول الله ﷺ إلى توحيد الله وتنزيهه، وترك ما هم عليه من الوثنية السافلة، والعادات الساقطة، ولم يترك وجهًا من وجوه التأثير عليهم إلا أتى به على أكمل ما يكون، فلم يُلَبِّه من أهل مكة إلا عشراتٌ من أهل الفهم والفِطنة؛ فرماهم مواطنوهم عن قوسٍ، وأذاقوهم جميع ألوان الأذى، فصبروا على هذا الاضطهاد صبر الكرام، فلما فاض الإناء، وطفح الكيل، فرُّوا بدينهم حيث يأمنون عليه في بلاد الحبشة، وقضى رسول الله فيهم ثلاث عشرة سنةً يدعوهم إلى الخروج من الظلمات

[٦٢] جمع قينةٍ، وهي المغنية.

[٦٣] اشترع الشريعة: سنها.

إلى النور، فلم يُزحزحهم ذلك عمَّا هم فيه قِيدَ[٦٤] شعرة، بل ظلوا يتهمونه بالكهانة تارةً، وبالسحر أخرى، وبالشعر حينًا، وبالجنون حينًا آخر، حتى قيض الله له أهل المدينة، وهم بنو الأوس وبنو الخزرج، هاجروا إلى يثرب بعد سيل العَرِم في القرن الثاني بعد الميلاد، وكان يُحيط بالمدينة يهودٌ كثيرون، فرُّوا بدينهم من بطش الرومانيين، فوقف منهم أولئك القحطانيون على ماهية الدين والتوحيد والنبوَّة، فصاروا يعرفون عن كل هذه الأمور شيئًا، ويميلون أن ينالوا منها حظًّا؛ محاكاةً لليهود، وتخلصًا من تعييرهم إياهم بالوثنية التي كانوا عليها، فاستعدوا أن لا ينفروا من التحوُّل عن باطل إلى حق يُدْعَوْنَ إليه، ولا عن قبيحٍ إلى حَسَنٍ يُعْرَضُ عليهم، ولا عن ركود إلى حركة يُندبون إليها، فلمَّا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، وقرأ عليهم شيئًا من القرآن، وآنسوا من ذلك حقًّا ساطعًا، وجمالًا رائعًا، لبَّوْا نداءه ووعدوه بحماية دعوته ضد كل من يتصدى له ما دامت فيهم بقيةٌ من حياة.

فكانت هذه الطائفة ومن انضَمَّ إليهم من مهاجِرَةِ مكة حجر الزاوية في صرح الدولة الإسلامية التي ندبتها العناية الإلهية لإحداث أكبر الحوادث العالمية وقلب الشئون الأرضية من حالٍ إلى حالٍ آخر.

وإني أميل أيضًا لأن أجعل لطول الخصومة والحرب بين الأوس والخزرج دخلًا أيضًا في تراميهم على الإسلام ليكون وسيلة سلامٍ بين الفريقين دون أن يشعر طرفٌ منهما بذِلَّةِ المقهور، وأن يتحمل غطرسة الغالب الفخور.

هذا إن أبينا أن نعتدَّ في بحثنا هذا بغير العوامل الطبيعية والسنن الاجتماعية، ولكنَّا إن وسَّعنا قليلًا من دائرة التعليل حتى شملت القوة المدبِّرة للأفراد والجماعات، والمهيمنة على نظام الوجود والموجودات، ساغ لنا أن نقول: إنَّ دخول الأوس والخزرج في الإسلام لأول دعوة من رسول الله، وتحمسهم له إلى حد التضحية بالنفس دون تأميلٍ في أجرٍ دنيويٍّ؛ يمكن أن يعتبر من الاستحالات الاجتماعية الفُجائية، على نحو الاستحالات الفجائية الحيوية التي أثبت العالم الألماني دوفريس De Vries حصولها بالتجربة في عالم النباتات والحيوانات، ودحض بها مذهب دارون القائم على النشوء الطبيعي، والتطور

[٦٤] القيد: المقدار.

التدريجي، حتى قال العلامة البيولوجي لودانتك Le Dantec:[٦٥] «لا أقول [السلام] على مذهب دارون فحسب، ولكن أقول على مذهب التطور السلام.»

نعم يمكن أن تُعتبر الاستحالة الفجائية التي دخل فيها الأوس والخزرج من ناحية الدّين من قبيل التدبير الإلهي[٦٦] لإحداث ما يبتني عليه من التطورات العالمية العظيمة، ولكنَّا نغفل هذا الاعتبار ما دام يُمكننا التعليل بالعوامل الاجتماعية حتى لا ندخل في العلم المتفق على حدوده أصولًا من طبيعة علويةٍ لم تبلغها وسائله بعد.

يلوح من هذا لأول وهلة أنَّ العرب لو كانوا على وشك نهضة لما صادفت دعوة النبي ﷺ منهم كل هذا النفور، ولما كانت حجَّتهم المُثلى في رفض الدين الجديد قولهم: ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] و﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠]، فإنَّ الأمم المتحفزة للنهوض لا تدفع المجدِّدين بمثل هذا الأصل الدالِّ على أقصى درجات الجمود، بل عهدناها تكتسب شعورًا حادًّا يسوقها لكراهية ما كان عليه آباؤها الأولون، وقد تغلو فتنسلخ من حقِّهم وباطلهم، وحسنهم وقبيحهم على السواء، وتترامى في أحضان كل جديدٍ حتى ما كان منه ضارًّا بها؛ كما يشاهد في تركيا ومصر اليوم،[٦٧] فالفضل في التطور العظيم الذي دخلت فيه الأمة العربية — فأصبحت به منقذة العالم من براثن الجهالة والهمجية — يرجع إلى الروح المحمدية التي بثت الحياة في هذه الأشباح الجامدة فحركتها لطلب الحياة الصحيحة من كل مظانِّها، وَبَثَّت هذا الشعور فيمن حولها من الجماعات حتى استحقت خِلافة الله في الأرض كما استحقتها قبلها أممٌ لا صلة بينها وبين العرب في شيء: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

---

[٦٥] (١٨٦٩–١٩١٧). ينظر: المنجد في الأدب والعلوم ص٤٦٤.

[٦٦] بل هي من قبيل التدبير الإلهي لا محالة؛ فلا يقع شيء في هذا الكون إلا بتدبير إلهي.

[٦٧] ١٩٢٦م.

مَبْلَغُ اتصال العرب بالأمم الأجنبية من الوجهة السياسية والاقتصادية وتأثيرهم في السياسة العامة

يقول الدكتور طه حسين: «إنَّ عرب الجاهلية كانوا على اتصالٍ قويٍّ بمن حولهم من الأمم قسَّمهم أحزابًا وشيعًا، وإنَّهم كانوا يُعْنَوْنَ بسياسة الفرس والروم، وعلى اتصال اقتصادي بغيرهم من الشعوب، وإنَّهم تجاوزوا باب المندب إلى بلاد الحبشة، وتجاوزوا الحِيرَةَ إلى بلاد الفرس، وتجاوزوا الشام وفلسطين إلى مصر، وإنَّهم كانوا أمةً متحضرة راقية لا أمةً جاهلةً همجيةً.»

نقول — قبل نقد هذا الكلام: إنَّه يجب على القارئ أنْ يذكر أنَّ العرب كانوا فريقين: فريق يجاور الفرس في العراق والشام والأحباش في اليمن، وفريق في نجدٍ والحجاز بعيد عن مطامع الأمم الأجنبية؛ لصعوبة الوصول إليهم من جهة، ولجدوبة أرضهم من جهة أخرى، فأمَّا الفريق الأول فكان واقعًا تحت سلطان الأمم الأجنبية منذ قرونٍ قبل البَعثة المحمدية. وقد استنام لذلك السلطان حتى صار لا يُحَدِّثُ نفسه بالانفصال عنها، فكان أفرادٌ من هذا الفريق يجاوزون حدود بلادهم فيجوبون بلاد الفرس والرومان والحُبشان طلبًا للعيش. ونحن مع اقتناعنا بأنَّ عرب تلك البلاد كانوا على شيء من الحضارة إلا أنَّ شخوصهم إلى تلك الأقطار لا يصح الاستدلال به على رُقِيِّهِمُ الأدبي والاجتماعي؛ فإنَّ كثيرين من بدو طُور سيناء وطرابلس وبورنو وغيرها يحضرون إلى مصر ويعودون إلى بلادهم وهم على ما هم عليه من شظف العيش والجمود على المألوف.

وهذه الأقطار العربية التي كانت خاضعةً لأجانب لم تَرفع بالإسلام رأسًا عند ظهور النبي ﷺ، بل بقيت مخلصةً لساداتها الأجانب، وساعدت جيوشهم لصد العرب المسلمين عن بلادها وبلادهم. وقد أرسل الرسول ﷺ جيشًا فخلص اليمن من مخالب الفرس وغزا بنفسه شمال بلاد العرب؛ فدفعت له بعضُ قبائلها الجزية. ثم خَلَفه أبو بكر فلم تَطُل مدته لعمل شيء أكثر من إرجاع القبائل العربية التي ارتدَّت بعد وفاة النبي إلى حظيرة الإسلام ومن فتح بعض سورية. ثُم لما خَلَفه عمر فتح بعض بلاد العراق والفرس ومصر وألحقها ببلاد المسلمين.

وكان تحضُّر هذا الفريق ورُقِيُّه ينحصران في أنَّ الطوائف المجاورة للفرس اقتبست بعض عاداتهم في الملبس والمأكل والمسكن، والمجاورة للرومان دانت لِمِلَّتِهِم وأخذت إخْذَهم في حياتهم، ولكنهم لم يبلغوا قطُّ مبلغ قاهِرِيهم في علومهم وصنائعهم، ولم يدركوا

شأوهم[٦٨] في مدنيتهم وترفهم. فلم يترك لنا المجاورون للفرس مثل ما تركه سادتهم في ذلك العهد من طبِّهم وفلسفتهم وآدابهم، ولا المجاورون للرومان مثل ما أبقوْه من شرائعهم ونظمهم وعلومهم. والحكم للشعوب بالرُّقِي والمدنية لا يكفي فيها مجرَّد الادِّعاء؛ فإنَّ للمدنية آثارًا تبقى، وللرقيِّ معالمَ يقف عليها الأخلاف فيعرفون منها مبلغ ما وصل إليه أسلافهم. فإن قلنا: إنَّ المصريين كانوا متمدِّنين راقين منذ خمسة آلاف عام فإنَّما نستدل على ذلك بما تركوه لنا من الأهرام والأَنْصاب[٦٩] والتماثيل والنقوش والمصنوعات. فهل لمن جاور الفرس والرومان من العرب شيءٌ من هذه المتروكات لنستدل بها على أنَّهم كانوا راقين متمدِّنين وعلى مبلغ ما وصلوا إليه من الرُّقِيِّ والمدنية، اللهم إلا أطلالَ قصورٍ كانوا يستأجرون البَنَّائين الأجانب لإقامتها لهم كما يستأجر القَرَويُّ الثريُّ بعض البنَّائين من القاهرة ليبنوا لهم دورًا فخمةً لا تقل عن أحسن قصور العاصمة، بينما جمهور أهل القرية يسكنون الأكواخ المُتَّخَذَة من الطين.

أما الفريق الثاني من العرب — وهم من أهل نجد والحجاز — فقد كانوا دون الأوَّلين في كل ناحية من نواحي الترقِّي الأدبيِّ والماديِّ؛ لاشتغالهم بالغارات، وبُعدِهم عن مراكز الحركة المدنية. فلم يكونوا على اتصال قويٍّ بمن حولهم، قسَّمهم أحزابًا وشيعًا كما يقول الدكتور طه حسين، وما كانوا يُعنَوْنَ بسياسة الفرس والروم، ولا كانوا متأثرين بالسياسة العامة ولا مؤثِّرين فيها.

قد يكون حدثَ أنَّ بعضهم تقلَّب في بعض بلاد الفرس والرومان طلبًا للعيش بنَقل البضائع وبيعها هنالك. ولكن لا يصح تسمية هذه الانتقالات الفردية، والمعاوضات التافهة اتصالًا قويًّا في العُرف السياسي. فلدينا هنا اليوم رجالٌ من بورنو وشِنقيط والصُّومال يتعلمون العلم في مدارسنا ويوردون إلينا شيئًا من مصنوعاتهم ومحصولاتهم، وينقُلون لبلادهم شيئًا من مصنوعاتنا ومحصولاتنا، ومع ذلك فلا يقال: إنَّ بيننا وبينهم اتصالًا قويًّا. ويتبع هذا أنَّهم لا يُعقل أن ينقسموا إلى أحزابٍ وشِيَعٍ بسبب هذا الاتصال الذي لا يُذكر، وإلا لظهر تأثيره فيهم، ولانتقل خبره إلينا في شيء من الشعر أو التاريخ على

[٦٨] الشأو: الأمد والغاية.

[٦٩] الأنصاب: جمع النُّصب [بضم فسكون، وبضمتين]؛ وهو ما نُصِبَ وعُبِدَ من دون الله، وما يقام من بناءٍ؛ ذكرى لشخص أو حادثة.

علَّاتهما، وقد ذكر في أشعارهم أنَّهم اتصلوا بالجن والأغوال والسَّعالي، وورد في تاريخهم أخبارٌ عن هذه الكائنات، ولم يصلنا عن اتصالهم بالفرس والروم شيءٌ غير ما ذكرنا.

أما ما استند إليه الدكتور طه حسين في هذا الصدد من قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٢–٥] فإنَّ له سببًا: وذلك أنَّه لمَّا وردت أخبار الرُّكبان بأنَّ الفرس غلبوا الرومان في حربٍ — كما يرد إلى نيجيريا أو ليبريا أو السنغال أخبارٌ عن مصر وتركيا والصين والسويد — فرح المشركون لانتصار الفرس، لا لأنَّ ذلك الانتصار سيكون له تأثيرٌ في نجد والحجاز، ولكنهم تفاءلوا منه لأنفسهم؛ إذ قالوا: إنَّ الروم أهل كتاب مثلكم، والفرس لا كتابَ لهم مثلنا، وقد انتصر الأخيرون على الأوَّلين، فسننتصر عليكم نحن كذلك. فنزلت هذه الآية تنبئهم بأنَّ النصر سيكون للروم في بضع سنين ويومئذٍ يفرح المؤمنون بانتصار أهل الكتاب على من لا كتاب لهم. فراهن أبو بكر بعض المشركين على أنَّ ذلك سيقع بعد ثلاث سنين، وأخبر النبي ﷺ بما فعل؛ فقال له: إنَّ البضع تمتد إلى التِّسع فمُدَّ في الأجل إلى تِسع وزده في الرِّهان. ففعل، ولم تمضِ هذه المدة حتى كَرَّ الروم على الفرس فهزموهم.[٧٠]

هذه حقيقة تلك الآية وهي لا تعدو التفاؤل كما تفاءل المصريون بانتصار اليابانيين على الروس باعتبار أنهم شرقيون مثلهم، وكما فرحوا بانتصار الأحباش على إيطاليا لكراهتهم لمبدأ الاستعمار لا لتأثُّرهم من انتصار إحداهما على الأخرى في أي ناحية من نواحي شئونهم الأدبية أو الاقتصادية.

وإلا فماذا كان تأثير الفُرس غير الكتابيين في الدعوة الإسلامية، وقد لبث أَمَدُ انتصارهم تسع سنين؟ أقلَّل من نشاط النبي ﷺ؟ أَصَدَّ النَّاس عن الدخول في الإسلام؟ أأَمَدَّ المشركين بما يمكنهم من إبادة الذين آمنوا بالقرآن؟

ثم ماذا كان من تأثير كَرَّة الروم على الفرس؟ أَفَتَّ في عضد المشركين فحملهم على الدخول في دين الله أفواجًا؟ أهالهم أمرُه فسلموا مكة لرسول الله بلا حرب؟ أَسْتَوجَبَ أن يُمِدَّ الرومُ المسلمين بالسلاح والمال ليتقوَّوْا بهما على المشركين؟

[٧٠] ينظر تفسير القرطبي — رحمه الله — سورة الروم؛ ففيه حديث طويل عمَّا ورد هنا.

شيءٌ من ذلك لم يكن، وهو أولُ دليل على أنَّ ما ورد في القرآن مما يتصل بهذا النزاع بين الروم والفرس كان الداعي إليه ما ذكرناه من نفي تفاؤل المشركين، لا أنَّهم كانوا مؤثِّرين في السياسة العامَّة، ولا متأثِّرين بها.

أما اتصالهم الاقتصاديُّ (أي أهل نجد والحجاز) بغيرهم من الشعوب فكان على أدنى ما يمكن أن يتصوَّره العقلُ. وكل ما في هذه المسألة أنَّ سُكَّان مكة كان لهم رحلتان إحداهما في الصيف إلى الشام، والأخرى في الشتاء إلى اليمن، وكان غرضهم من ذلك مبادلة أشياء من محصولاتهم ومصنوعاتهم بأشياء من محصولات ومصنوعات ذَيْنِك القطرين. ومثل هاتين الرحلتين لا تسميان اتصالًا اقتصاديًّا بالمعنى المعروف عند علماء الاقتصاد؛ فإنَّ كل ما فيها أنَّ أهل مكة والمدينة كانوا يُسافرون مَرَّةً إلى الشمال ومرة إلى الجنوب لاستيراد بعض ما هم في حاجة إليه من الأقمشة والآنية والأسلحة كما يحصل بين كل بلدين متجاورين، وما كان أهل مكة والمدينة في حاجةٍ إلى شيء يعتد به يصح تسميته اتصالًا اقتصاديًّا.

فإن كان لا بد من الاستدلال بالأرقام، فإليك ما جاء في السيرة النبوية عند الكلام على غزوة العُشَيْرَة، وذلك أنَّ النبي ﷺ خرج في نحو مائتين من أصحابه يريد عير قريش التي صَدَرت من مكة إلى الشام بالتجارة، وكانت قريشٌ جمعت أموالها في تلك العِير، ويُقال: إنَّ فيها خمسين ألف دينار وألف بعيرٍ، وكان قائد تلك العير أبو سفيان بن حرب ومعه سبعةٌ وعشرون، وقيل: تسعةٌ وثلاثون رجلًا، منهم مَخْرمة بن نوفلٍ، وعمرو بن العاص، فوجدها قد مضت قبل ذلك بأيام. وهذه العير هي التي خرج إليها لَمَّا عادت من الشام فأفلتت منه، وحدثت بسببها وقعة بدر.[٧١]

فثروةٌ تقدر بخمسين ألف أو مائة ألف دينار ليست بشيء يُذكر، ولا يخفى أنَّ مؤلفي المسلمين لا يُتَّهمون في بخس ثروة قريش.

وماذا يُرجى أن يكون من الاتصالات الاقتصادية بالخارج في مدينةٍ يسكنها زهرة العرب وليس فيهم من يعرف القراءة والكتابة غير رجلين اثنين، حتى إنَّه لما نشأت الدولة الإسلامية واحتاج الأمر لتدوين الدواوين وإحصاء الجنود وأصحاب الحقوق؛ اضطروا لاستخدام الكَتَبَة من غير العرب، فكانت اللغات الرسمية في الولايات هي لغات أهل تلك

[٧١] السيرة النبوية والآثار لزيني دحلان ص١٨٨ من المجلد الأول (هامش المؤلف).

الولايات؛ لعدم وجود من يصلح من العرب لذلك. فلمَّا وُجِدَ في العرب متعلمون في خلافة عمر أبدل هؤلاء بأولئك.

فنحن وافقنا الدكتور طه حسين في أنَّ عرب الجاهلية كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم، وعلى أنَّ بعضهم كان على شيء من الحضارة، ولكن في الحدود التي رسمناها هنا بشهادة الواقع نفسه، وإلا فأيُّ سِحْرِ بيانٍ في العالم يستطيع أن يُقْنِعَ الناس بأنَّ أمة يُقال إنَّها كانت متحضرةً وراقيةً ومتصلةً اتصالًا اقتصاديًّا قويًّا بالأمم المجاورة لها وكانت مؤثِّرة في السياسة العامَّة، ومع هذا كله لم يوجد فيها — بعد أن صارت دولة رجالٍ — من أبنائها ممن يعرفون القراءة والكتابة من يستطيعون أن يتولَّوا العمل!

لا نقول في وزاراتٍ ومصالح، ولكن في بضعة سجلات يحصرون فيها أسماء الجند وأصحاب المرتبات؟

إنَّ كُلَّ من يتعمَّق في دراسة تاريخ عرب الجاهلية ويستبطن ما كانوا عليه من عوامل التقهقر التي أوقعتهم تحت نير الأمم المجاورة لهم، وقضت على البعيدين منهم عن تلك الأمم في حالة بداوةٍ وتناحُر آمادًا طويلة؛ يدهش من عِظَم تأثير الروح المحمدية التي أذابت هذه الكُتَل المتحجِّرة من الطوائف المتعادية ذات التقاليد والعادات الموبقة،[٧٢] وكونت منهم أمة ذات أصول ومبادئ عالية دفعتها في سنين معدودة إلى بلوغ غاية من العلم والمدنية لم تبلغها أمة قبلها، ولا يزال العالم يتأثر بروحٍ منها إلى اليوم!

---

[٧٢] الموبقة: المهلكة.

الشِّعرُ الجَاهِليُّ واللُّغَةُ[١]

ننتقل الآن إلى الفصل الرابع من فصول كتاب الشعر الجاهلي، ونلخصه فيما يلي مع المحافظة على عبارات المؤلِّف؛ قال:

«الشعر الذي رأينا أنَّه لا يُمثِّل الحياة الدينية والعقلية للعرب الجاهليين بعيدٌ كل البعد عن أن يُمثِّل اللغة العربية في العصر الذي يزعم الرواة أنَّه قيل فيه. فلنجتهد في تعرُّف اللغة الجاهلية هذه ما هي، أو ماذا كانت في العصر الذي يزعم الرواة أن شعرهم الجاهليَّ هذا قد قيل فيه، أمَّا الرأي الذي اتفق عليه الرواة أو كادوا يتفقون عليه فهو أنَّ العرب ينقسمون إلى قسمين: قحطانية منازلهم الأولى في اليمن، وعدنانية منازلهم الأولى في الحجاز.[٢]

وهم متفقون على أنَّ القحطانية عربٌ منذ خلقهم الله؛ فُطِروا على العربية فهم العاربة، وعلى أنَّ العدنانية قد اكتسبوا العربية اكتسابًا، كانوا يتكلمون لغةٌ أخرى هي العبرانية أو الكَلْدانية، ثم تعلموا لغة العرب العاربة. وهم متفقون على أنَّ هذه العدنانية المستعْربة إنَّما يتصل نَسَبُهَا بإسماعيل بن إبراهيم.[٣]

ويتفق الرواة أيضًا على أنَّ هناك خلافًا قويًّا بين لغة حمير (وهي العرب العاربة) ولغة عدنان (وهي العرب المستعربة).[٤]

---

[١] شغل مضمون هذا العنوان في كتاب الدكتور طه حسين، من ص٢٤ حتى ص٣٠.

[٢] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٢٤.

[٣] السابق ص٢٥.

[٤] السابق نفسه.

إذا كان أبناء إسماعيل قد تعلموا العربية من أولئك العرب العاربة؛ فكيف بَعُدَ ما بَيْنَ اللغة التي كان يصطنعها العربُ العاربةُ واللغةِ التي كان يصطنعها العربُ المستعربةُ حتى استطاع أبو عمرو بن العلاء[٥] أن يقول إنَّهما لغتان متمايزتان؟! وواضحٌ جدًّا لكل من له إلمامٌ بالبحث التاريخي عامةً وبدرس الأساطير والأقاصيص خاصةً، أنَّ هذه النظرية متكلَّفةٌ مصطنعةٌ في عصورٍ متأخرة دعت إليها حاجةٌ دينيةٌ أو اقتصادية أو سياسية.[٦]

للتوراة أن تحدِّثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يُحدِّثنا عنهما أيضًا، ولكنَّ ورود هذين الاسميْن في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخيِّ، فضلًا عن إثبات هذه القصة التي تحدِّثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكةَ ونشأة العرب المستعربة فيها. ونحن مضطرون إلى أنْ نرى في هذه القصة نوعًا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهةٍ أخرى. وأقدم عصرٍ يُمكن أن تكون نشأتْ فيه هذه الفكرة إنَّما هو هذا العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويَبُثُّون فيه المستعمرات. فنحن نعلم أنَّ حروبًا عنيفة شبَّت بين اليهود المستعمِرين وبين الذين كانوا يُقيمون في هذه البلاد، وانتهت بشيء من المسالمة والملاينة، فليس يبعُدُ أن يكون هذا الصُّلْحُ الذي استقرَّ بين المُغيرينَ وأصحاب البلاد منشأ هذه القصة التي تجعل العرب واليهود أبناء أعمام.

ولكنَّ الشيء الذي لا شك فيه هو أنَّ ظهور الإسلام وما كان من الخصومة العنيفة بينه وبين وثنية العرب من غير أهل الكتاب قد اقتضى أن تَثبت الصلة الوثيقة بين الدِّين الجديد وبين الديانتين القديمتين: ديانة النصارى واليهود.

فأما الصلة الدينية فثابتةٌ واضحةٌ، ولكن هذه الصلة معنويةٌ عقليةٌ يَحسن أن تؤيِّدها صلةٌ أخرى ماديةٌ ملموسةٌ بين العرب وأهل الكتاب. فما الذي يمنع أن تُسْتَغَلَّ هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود.

وقد كانت قريش مستعدةً لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح؛ فقد كانت في أول هذا القرن قد انتهت إلى حَظٍّ من النهضة السياسية والاقتصادية ضَمِن لها

[٥] «زبَّان بن عمَّار التميمي [٧٠–١٥٤هـ].» الأعلام للزركلي ج٣ ص٤١.

[٦] ينظر في الشعر الجاهلي ص٢٥، ٢٦.

السيادة في مكة وما حولها وبسط سلطانها المعنويِّ على جزء غير قليل من البلاد العربية الوثنية. وكان مصدر هذه النهضة وهذا السلطان أمرين: التجارة من جهة، والدين من جهة أخرى.

فأمَّا التجارة فكانت قريش تصطنعها في الشام ومصر وبلاد الفرس واليمن وبلاد الحبشة.

وأمَّا الدِّين فهذه الكعبة التي كانت تجتمع حولها قريش ويحج إليها العربُ المشركون في كل عام، والتي أخذت تبسط على نفوس هؤلاء العرب المشركين نوعًا من السلطان قويًّا، والتي أخذ العرب المشركون يجعلون منها رمزًا لدينٍ قويًّ كان يريد أن يقف في سبيل انتشار اليهودية والمسيحية. فنحن نلمح في الأساطير أنَّ شيئًا من المنافسة الدينية كان قائمًا بين مكة ونجران، ونحن نُلمح في الأساطير أيضًا أنَّ هذه المنافسة بين مكة وبين الكنيسة التي أنشأها الحبشة في صنعاء هي التي دعت إلى حرب الفيل التي ذُكِرَتْ في القرآن.[٧]

فقريشٌ إذن كانت في هذا العصر ناهضةً نهضةً ماديةً تجاريةً ونهضةً دينيةً وثنيةً، وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجِد في البلاد العربية وحدةً سياسية وثنيةً مستقلةً تقاوم تدخل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم في البلاد العربية. فيكون من المعقول جدًّا أن تبحث هذه المدينة الجديدة لنفسها عن أصل تاريخيٍّ قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التي تتحدث عنها الأساطيرُ، وإذن فليس ما يمنع قريشًا أن تقبل هذه الأسطورة التي تفيد أنَّ الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم.[٨]

أمرُ هذه القصة إذن واضحٌ؛ فهي حديثة العهد ظهرت قُبيل الإسلام واستغلها الإسلامُ لسبب ديني، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضًا. وإذن فنستطيع أنْ نقولَ: إنَّ الصلة بين اللغة العربية الفصحى التي كانت تتكلمها العدنانية واللغة التي كانت تتكلمها القحطانية إنَّما هي كالصلة بين اللغة العربية وأي لغة أخرى من اللغات السامية، وإنَّ قصة العاربة والمستعربة وتعلُّم إسماعيل من جُرهمٍ كل ذلك حديثُ أساطير لا خطر له ولا غناء فيه.[٩]

٧ السابق ص٢٦–٢٨.

٨ السابق ص٢٨، ٢٩.

٩ السابق ص٢٩.

والنتيجة من هذا البحث هي أنَّ الشِّعر الذي يُسمونه الجاهليّ لا يُمثِّل اللغة الجاهلية ولا يُمكن أن يكون صحيحًا؛ ذلك لأننا نجد بين هؤلاء الشعراء الجاهليين قومًا ينتسبون إلى عرب اليمن التي كانت تتكلم لغة غير لغة القرآن والتي أثبت البحث الحديث أنَّ لها لغةً أخرى غير العربية.[10]

ولكننا حين نقرأ الشِّعر الذي يُضاف إلى شعراء هذه القحطانية في الجاهلية لا نجد فرقًا بينه وبين شِعر العدنانية، بل لا نجد فرقًا بينه وبين لغة القرآن. فكيف يمكن فهم ذلك أو تأويلُه؟ أمر ذلك يسيرٌ؛ وهو أنَّ هذا الشعر الذي يُضاف إلى القحطانية ليس منها في شيء، وإنَّما حُمِلَ على شعرائها بعد الإسلام لأسبابٍ مختلفة سنبينها حين نعرض لهذه الأسباب.»[11]

رأينا في هذا الكلام

ذهب علماء العربية إلى أنَّ القحطانيين عربٌ خُلَّصٌ لغتهم العربية الفصحى، وأنَّ العدنانيين عربٌ، ولكن جدهم الأعلى إسماعيل بن إبراهيم، ويذهب الدكتور طه حسين إلى أنَّ لغة اليمن لغةٌ غير العربية اعتمادًا على قول اللغويِّ [أبي] عمرو بن العلاء وبعض الباحثين المحدَثين، وأنَّ الصلة بين العربية الفصحى التي كانت تتكلمها العدنانية وبين اللغة التي كانت تتكلمها القحطانية إنَّما هي كالصلة بين اللغة العربية وأي لغة أخرى من اللغات السامية. ونحن لا نُوافقه على هذا الرأي، بل هو غير معقول أصلًا، وإليك البيان: الأصل في اللغات السامية البابليةُ، وقد اشتُقَّت منها العِبرانية والحبشية والسُّرْيانية والعربية؛ حتى إنَّ العارف بإحدى هذه اللغات يستطيع أنْ يعيشَ بين ظهراني أهل سائر هذه اللغات ويؤدي حاجاته الضرورية بلغته، ثم لا يلبث غير قليل حتى يصير في لغتهم كأحدهم. وقد كانت سُمِّيت اللغة التي يتكلم بها ساكنو الحبشة باللغة الحبشية، واللغة التي كان يتكلم بها ساكنو بابل باللغة البابلية؛ فمن الحق أن تُسمَّى اللغة التي يتكلمها أهل البلاد التي اصطلح على تسميتها قديمًا وحديثًا ببلاد العرب باللغة العربية. وقد أطلق مؤرخو الأقدمين على اليمن اسم البلاد العربية حتى سمَّاها اليونانيون — لِغِناها —

[10] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٢٩.

[11] السابق ص٣٠.

ببلاد العرب السعيدة، وإذا كانت اليمن من بلاد العرب فمن العبث أنْ لا تُسمَّى لغتها باللغة العربية، وإذا ثبت أنَّ بين لغة اليمن ولغة نجد وتهامة اختلافًا فيجب أن نلتمس تعليلَ هذا الاختلاف في الأسباب السياسية والاقتصادية والجغرافية لا في غيرها، وإذا كُنَّا — رغمًا عن الخلاف الكبير بين اللغات الحبشية والعبرانية والسريانية والعربية — ندَّعي أنَّها كلها مُشتقة من البابلية؛ فمن العبث أنْ يحملنا الخلاف الموجود بين لُغتَيْ شمال العرب وجنوبها على القول بأنَّهما لغتان متمايزتان مع وجود الصفة المميِّزة الوحيدة للغة العربية — وهي الإعراب — في كلتا اللهجتين العدنانية والقحطانية.

وإذا كان بين اللهجتين العدنانية والقحطانية خلافٌ، فبأي مرجِّح ندَّعي أنَّ العدنانية هي اللغة العربية الفصحى، وأنَّ اليمنية لغة أجنبية، مع أنَّ أهل هاتين اللغتين جميعًا يسكنون بلادًا أطلق عليها الناسُ من يوم خُلقت اسم البلاد العربية؟! ولا مُرجِّح لذلك لا من الوجهة الجغرافية ولا من الوجهة الدينية؛ فكلتا الطائفتين كانت تسكن بلادًا واحدةً وتحج إلى كعبة واحدة، وتجري في أخلاقها وعوائدها على سنَّة واحدة، وتعرفان أنَّهما أمة واحدة، وكلتاهما دخيلتان في البلاد العربية.

نعم، لك أنْ تقولَ: إنَّ لغة العدنانية كانت أرقَّ من اللغة القحطانية، وإنَّ لهجة قريش كانت أرق من سائر لهجات القبائل العدنانية التي كانت تتخالف فيما بينها تخالُفًا عظيمًا، حتي نزل القرآن بها. ولكن ليس لك أنْ تقولَ إنَّ القحطانية ليست بعربية بسبب الخلاف بينها وبين العدنانية.

أما هذا الخلاف بين اللغتين العدنانية والقحطانية فسببه يرجع إلى عوامل سياسيةٍ واقتصادية. فإنَّ اليمن — لِعِظَم مواردها الطبيعية — قد تعاوَرَها الفاتحون من زمانٍ بعيد؛ فاحتلها الفرس والأحباش آمادًا طويلة، وقصدها التجار من مختلف الأقطار؛ فتسربت إلى لغتها ألفاظٌ كثيرة من لغات الفاتحين والمتعاوضين[١٢] باينت بها عربية شمال بلاد العرب كما باينت اللغة التركية التي يتكلمها أتراك الأناضول وتراقيا اللغةَ التركية الأصلية التي يتكلمها الأتراك الخُلَّص في التركستان وبلاد التتار؛ وذلك بسبب دخول ألفاظ عربية وفارسية وأوروبية إليها حتى صار التركي الأناضوليُّ لا يفهم لغة التركي التركستانيِّ أو التتاريِّ. وكما باينت اللغة الألمانية التي يتكلمها ألمان أمريكا لغة إخوانهم الألمان في وسط أوروبا.

[١٢] مَن يتاجرون مع بعضهم البعض.

أما تقسيم اللغويين القدماء العرب إلى عاربةٍ لغتها الأصلية العربية، وإلى مستعربةٍ لغتها الأصلية العِبْرانية فليس بشيء؛ فإنَّ إسماعيل لَمَّا سكن مكة كان غُلامًا صغيرًا كما يقولون، واختلط هنالك ببني جُرهمٍ، فالمعقول — وبخاصة مع تقارب اللغتين العبرانية والعربية — أنَّه لم يلبث معهم شهورًا حتى صار يتكلم العربية مثلهم، ثُمَّ لم تمضِ عليه بضع سنين حتى نَسِي لغته الأصلية. وقد رُوي أنَّه تزوج امرأة من جُرهم وَوُلد له أولاد منها، فكيف يُعقل أنَّ أولاده تكلموا العِبْرانية في تلك البيئة التي ليس فيها من يتكلمها حتى ولا أبوهم؛ لنسيانه إياها، أو لاستغنائه عنها؟!

فالمعقول أنَّ إسماعيل وبنيه نشئوا يتكلمون العربية لغة أمهم؛ فأية حاجةٍ بعد هذا لتقسيم العرب إلى عاربة ومستعربة؟ أَلِأَنَّ إسماعيل كان عبرانيًّا؟ إذن وجب قياسًا على هذا أن يكون بين العرب عربٌ مستعربةٌ لا يُحصى لهم عدد؛ فقد تزوج رجال من الزنوج والأحباش والفرس والروم في كل الأجيال نساءً عربياتٍ؛ فيجب أن يُطلق على أولادهم جريًا على هذه القاعدة اسم عرب مستعربة. هذا لم يحصل قط، فلماذا إذن خُصَّ أولاد إسماعيل بهذا الاسم إلى اليوم؟ وهل كان بقي من عبرانيتهم شيء من عهد إسماعيل إلى عهد النَّسَّابين الذين وضعوا هذا التقسيم في صدر الإسلام عن جهلٍ، وهذه المدة تُقدَّر بنحو سبعة وعشرين قرنًا؟

كان هذا التَّقْسِيمُ يكون له موضعٌ لو أنَّ قبيلةً عبرانيةً برُمَّتِهَا هاجرت من فلسطين إلى بلاد العرب، وحافظت على ديانتها وتقاليدها ومقوماتها ولكنَّها اتخذت اللغة العربية لغةً لها، فيصح أن يُطْلَقَ على هذه القبيلة أنَّها مُستعرِبةٌ، ولكن تسمية نصف الأمة العربية بالمستعربة لأنَّ رجلًا واحدًا اندمج فيها منذ عشرات من القرون فهذا أغرب ما يُسمع من أنساب الأمم، وليس له نظيرٌ في العالم كله.

يقول الدكتور طه حسين: «إنَّنا مضطرون أنْ نَرَى في قصة هجرة إسماعيل إلى مكة ونشوء العرب المستعربة بها نوعًا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى. وأقدمُ عصرٍ يمكن أن تكون نشأت فيه هذه الفكرة إنَّما هو العصر الذي أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية؛ فنحن نعلم أنَّ حروبًا عنيفةً شبَّت بين اليهود وبين الذين كانوا يُقيمون في هذه البلاد وانتهت بشيء من المُسالمة والملاينة؛ فليس ببعيدٍ أن يكون هذا الصلح منشأ هذه القصة التي ستجعل اليهود والعرب أولاد أعمام.»

ثم قال: «أمرُ هذه القصة إذن واضحٌ فهي حديثة العهد ظهرت قُبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسببٍ ديني، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي أيضًا.»

ونحن نقول: إنَّ شمال بلاد العرب لا يسكنه العدنانيون من ذُرِّيَّةِ إسماعيل وحدهم، بل يُساكنهم فيه العرب القحطانيون؛ فكان بنو غسَّان في بادية الشام، وهم أول مَن لقيهم اليهود من العرب في طريق هجرتهم. وكانت قبيلتا الأوس والخزرج سكانُ المدينة الذين اختار اليهود جوارهم من القحطانيين أيضًا. وكان في شمال بلاد العرب من القبائل القحطانية بنو مَذْحِجٍ في أطراف الحجاز، وبنو الأزد في مِنًى، وبنو خزاعة بجوار مكة، وجلُّ هذه القبائل اشتركت في إصلاء اليهود نيران الحروب، وكانت أشدَّها عليهم، فإذا كانت قصة هجرة إسماعيل إلى مكة قد اخترعها اليهود لإثبات قرابتهم للعرب بقصد رد عاديتهم عنهم؛ فلماذا جعلوا هذه القرابة خاصة ببعض العرب دون البعض الآخر، وكلهم كانوا سواء في خصومتهم، بل كان أول من قابلهم في طريقهم القبائل اليمنية، وقد اختاروا أن يجاوروا تلك القبائل بقرب يثرب؟ وما دام أساس هذه القصة الخَدْع والتزوير وقد حدثت قُبيل ظهور الإسلام — أي بعد هجرة القبائل اليمنية إلى شمال بلاد العرب — فأي داعٍ جعلهم يَقْصُرُونَ الخدع على بعض القبائل دون البعض الآخر؟

ثم لو كانت هذه القصة حيلة من اليهود افتعلوها ليعيشوا مع العرب بسلام آمنين، لكانوا — حين أجمعوا على الهجرة إلى بلاد العرب — جعلوا ترويجها بين العرب باكورةَ أعمالهم، لا أن يبدءوا هجرتهم بالحروب العنيفة حتى إذا طحنتهم المعارك سنين ابتكروها لتكون سببًا في اجتلاب عطف خصومهم عليهم.

وهل ابتكارها بعد تلك المعارك الطاحنة لا يُثير في نفوس العرب الشكَّ في صحتها، بل الجزم بأنَّها حيلةٌ يراد بها خَضْدُ[١٣] شوكتهم، وثَلْم حَمِيَّتهم؟!

وعلى أي أساسٍ طاف بمخيِّلة اليهود أنَّ هذه الحيلة تَرُدُّ عادية العرب عنهم؟ أنسُوا أنَّهم يُكْبِرُونَ شأنهم إلى حدِّ أنَّهم يفخرون بقرابتهم لهم وهم يضربون وجوههم وأدبارهم، ليطردوهم من بلادهم؟!

أرأوا أنَّ العرب يباهون بالاعتزاء إلى أبٍ أجنبيٍّ عنهم فأتوهم من جهة ميلهم هذا وأوهموهم أنَّهم أبناء إسماعيل لا أبناء رجلٍ عربي صميم، وهم معروفون منذ أقدم

[١٣] خضد شوكة فلان: كسر حدته.

أيامهم بكراهية الدُّخَلَاء، وتحقير الملحَقين والأدعياء، حتى إنَّهم ليُسَمُّونَ من كانت أمه عربية وأبوه أجنبيًّا بالهجين؛ تحقيرًا له؟

أشاهدوا أنَّ العرب يعظِّمون اليهوديةَ، ويعتبرونها دينًا سماويًّا صحيحًا فيسرهم أن يكرموا وفادة الآخذين به، فزوَّروا لهم هذه القرابة؟

أأحسوا أنَّ العرب يُعظِّمون إبراهيم ويعدونه نبيًّا ويسرهم أن ينتسبوا إليه فقاموا بتزوير هذه النسبة لهم توسلًا بها لنيل مرضاتهم؟

أعلموا أنَّ العرب كانوا يحبون التوحيد حبًّا جمًّا ويُحبِّون كل داعٍ إليه، ويسرهم أن يكونوا أقرباء زعمائه الأوَّلين، فاختلبوا ألبابهم بتمويه هذه الحيلة عليهم، وهم المعدِّدون للآلهة، القائلون لمحمد عليه الصلاة والسلام: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ❋ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ❋ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [سورة ص: ٥–٧] ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦].

ثم إنَّنا نقول: إنَّ قريشًا لم تعمل قَطُّ على ترويج نسبتها إلى إبراهيم وإسماعيل؛ لعدم وجود أي دليل على ذلك، ولعلَّها امتنعت عن ذلك لثلاثة أسباب:

أولها: أنَّها لم تكن تأبَه بهذه النسبة؛ لأنَّ إسماعيل لم يكن في نظرها ممن يُؤبَهُ له، لا من الوجهة الدينية؛ فإنَّها كانت وثنيةً، ولا من الوجهة الدنيوية؛ فإنَّه لم يكن مَلِكًا عظيمًا، ولا فاتحًا خطيرًا، ولا فارسًا مغوارًا، ولا شيئًا ممَّا يَعتدُّ به الجاهليون ويفخرون به. ولو كانوا يرون في الانتساب إليه فخرًا لهم لأكثروا من تسمية أنفسهم بإبراهيم وإسماعيل، ولكانوا على دينهما متشدِّدينَ في التوحيد، متمسِّكين بآدابهما إلى مدًى بعيد.

ثانيها: أنَّ ترويج نسبة قريش إليهما لم يكن يُرجَى من ورائه فائدةٌ لها؛ ذلك لأنَّها لم تكن هي القبيلة الوحيدة التي تنتسب إليهما، فقد كان نحو نصف العرب ينتسبون إليهما، ويعرفون أنَّهما هما اللذان بنيا الكعبة.

ثالثها: لأنَّ هذا الترويج كان يُفضي إلى إضغان القبائل اليمنية عليها، وأنَّ تلك القبائل لم تكن تعتقد بنُبُوَّتِهِمَا حتى تخضع للمنتسِب إليهما، فكانت تعد ذلك من قريش فضولًا يُسقِط من كرامتها بدل أن يرفع من منزلتها.

ومما يدل دلالة تكاد تكون محسوسة على أنَّ قريشًا لم يَطُفْ بخيالها هذا الترويج قط: عدم عنايتها بتسمية أولادها بإبراهيم أو إسماعيل، وأنت خبيرٌ أنَّ هذه التسميات ذاتُ دلالاتٍ قويَّةٍ على تطور الحوادث الاجتماعية، حتى إنَّها وحدها لتشير إلى مبلغ تشيُّع الشعوب لبعض الأفراد الممتازين، أو إلى دور انتقالٍ جديدٍ، أو إلى اتجاه الأمة نحو مثلٍ أعلى في الحياة الأدبية.

أما الذي أحيا هذا التاريخَ القديم في البلاد العربية، ووصل بين حَلَقات الحوادث الخاصة به، وأشاد بذكر إبراهيم وإسماعيل فهو القرآن وَحْدَه؛ لأنَّه جاء بالتوحيد، وإبراهيم كان أشهر الدَّاعِين إليه في الأولين، وهو — مع هذا — الجد الأعلى لكثير من القبائل العربية، وباني الكعبة. فكان من مصلحة الدعوة الإسلامية ترويج هذا التاريخ الصحيح وإشاعتُه بكل ما في الوسع من بيانٍ وتأثيرٍ.

فالقرآن هو الذي أحيا اسمي إبراهيم وإسماعيل في بلاد العرب، ونوَّه بديانتهما الحنيفية القائمة على التوحيد والتنزيه، ودعا ذُرِّيَّتهما العرب إلى الأخذ بها ونشرها في العالمين؛ حتى إنَّ الدين قرن اسمه في التشهُّد في الصلاة باسم خاتم النبيين وهو: «اللهم صلِّ وسلم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صلَّيت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنَّك حميدٌ مجيدٌ.»

وقد أنتج التنويه بإبراهيم وإسماعيل نتيجته الطبيعية، فأخذ الناس بدينهما، وأكثروا من التسمي باسميهما. هذا هو الترويج لتاريخهما ودينهما، وهذا أثره في حياةِ أمّةٍ برُمَّتها، لا ما كان عليه الحال في الجاهلية.

لهذا الترويج لزعماء المذاهب الكبرى فائدةٌ لا تُنكر؛ فهذا هو الدكتور طه حسين نفسه يُكْثِرُ من ذكر ديكارت ويروِّج أسلوبه في البحث ترويجًا رآه بعضهم — بغير حق — داعيًا إلى السخرية. فما ظنك لو كان ديكارت هذا جَدًّا أعلى للأمة المصرية، أكانت دعاية الدكتور طه حسين له تقف عند حَدٍّ؟ وهل كان يلومه عاقلٌ على استهتاره ذلك وبلوغه منه أقصى ما يحتمله الوُسع؟

ويقول الدكتور طه حسين: «إنَّ قصة هجرة إسماعيل إلى مكة نوعٌ من الحيلة لإثبات الصلة بين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة.»

ونحن نسأله: أكان الإسلام — لأجل أن يقوم بما انتدب له من هداية العرب ورفعهم إلى مستوى الأمم الحية — في حاجة إلى انتحال الصلة بينه وبين اليهودية حتى يصح أنْ يُقال إنَّه استغل هذه القصة لمنفعته الشخصية؟!

إنَّ أساس اليهودية التوحيد؛ فهل كان العرب يُحبُّون التوحيد إلى حَدٍّ أنَّهم لا يقبلون دينًا جديدًا لا يكون ذا صلة بالدِّين الذي يدعون إليه من زمانٍ بعيدٍ وهو اليهودية؟!

إنَّ العرب كانوا يكرهون اليهود واليهودية، ويعملون على طردهم وطردها من بلادهم بالسيف والرمح؛ فهل من حُسْنِ سياسة الدين الجديد الذي يعمل لأنْ يكونَ دين العرب كلهم أنْ يُثبت أنَّ بينه وبين اليهودية صلة وثيقة من بعض الوجوه؟!

وإذا قيل: إنَّ محمدًا استغل هذه القصة ليسوغ له ادِّعاءُ النُّبُوَّةِ باعتبار أنَّه من ولد إسماعيل بن إبراهيم؛ فهل كان هو وحده من بين جميع القبائل العدنانية من ذرية إسماعيل بن إبراهيم؟!

وهل كان من القواعد المقرَّرة عند العرب أنَّه لا ينال النبوَّة إلا رجلٌ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم؟!

وهل كان العرب يعتقدون بنبوَّة إسماعيل وهو موحِّدٌ وهم معدِّدون؟!

إنَّ العرب العدنانية كانوا يُعرَفُونَ بأنَّهم ذرية إسماعيل بن إبراهيم، ولكنَّهم لم يكونوا يفخرون بذلك، ولو كانوا يفخرون به لَمَلئوا الدنيا شعرًا في هذا الباب، ولاشتد التناظُر بينهم وبين العرب القحطانيين، ولامتنع هؤلاء عن الحج إلى مكة نِكايةً[١٤] في العدنانية. والحقيقة أنَّ العرب — لاشتغالهم بتنازع البقاء، ولوقوعهم في التناحُر الشديد — كانوا بعيدين عن البحث في أمثال هذه المسائل الكمالية. فكل الذي كان يَعنيهم هو أن يحصلوا على القُوت والماء في تلك الصحاري والمهامِهِ القاحلة الماحلة التي تسع أنهار الدنيا مجتمعةً، ولم تُمنح منها بجدول يبل غُلَّةَ أهلها بشَبِمٍ زُلالٍ،[١٥] ويُنبت لأهلها بعضَ ما تحتاج إليه من النباتات.

بقي القرآن فهل كان في حاجةٍ لأن يُثبت أنَّ بينه وبين التوراة صلةً، وهو يَنْعَى على أهل التوراة تحريفَهم للكلام، وصرفهم الأمور عن وجوهها، ويشنع عليهم بذكر تمرُّدهم على موسى وهارون، وعبادتهم العجل في دَوْرٍ من أدوارهم … إلخ إلخ؟! فهل ممَّا جرت به العادة أن يَعْمِدَ المُحتال على إثبات صله كتابٍ بكتابٍ إلى مهاجمة أهله هذه المهاجمة العنيفة، ويُؤلمهم هذا الإيلام الشديد، ليحملهم على العمل ضدَّه بكل ما في استطاعتهم، أم يُلاينهم ويُصانعهم، ويتوسلُ لإثبات تلك الصلة بوجوهٍ غايةٍ في المهارة وحسن الأسلوب؟!

---

[١٤] نكى العدوَّ، وفيه، نكاية: أوقع به، وهزمه وغلبه.

[١٥] الشبم: البارد، والزلال: الماء العذب الصافي البارد السلس.

ثم إنَّنا نسأل: هل كان عربُ الجاهلية يحترمون التوراة ويرونها كتابًا إلهيًّا ويتخذون منها تمائِمَ وطلاسم للتبرُّك بها، ويكتبون آياتها على جدران بيوتهم، ويحفظون نسخًا كاملة منه في معابدهم، فرأى محمدٌ أنَّ من حُسن التَّوسل إلى قومه أن يعمل جُهدَهُ على إثبات أنَّ بين كتابه وبين التوراة صلةً مؤكدةً ليأنسوا به ويُحبوه حبَّهم للتوراة أو أقلَّ قليلًا؟ وهم الذين كانوا يعملون على طرد اليهود من بلادهم بما حملوا من كتابهم وأساطيرهم بأقسى ما يتصوره العقل من حربٍ طاحنةٍ؟!

اللهم إنَّنا لا نرى وجهًا للحيلة في إثبات الصلة بين الإسلام واليهودية ولا بين القرآن والتوراة، فإنْ كان في القرآن ذِكْرٌ عن اليهودية والتوراة ففيه ذِكْرٌ عن النصارى والإنجيل، بل هو قد ذَكَر النصارى والإنجيل وعيسى والحواريِّين والرَّهَابِنَة بكثير من العطف فقال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]، وقد ذكر أيضًا الصابئة والمجوس والدَّهريِّين[١٦] ومنكري البعث وغيرهم. وذلك لأنَّ الإسلام قد جاء بإصلاحٍ ديني عام للأمم كافةً، فكان لا بد من ذكر هذه الأديان والتنبيه على ما فيها من الانحراف عن جادة المنطق للتأثير في أهلها، كما يضطر الفيلسوف إلى ذكر مذاهب أسلافه ونقدها.

ويقول الدكتور طه حسين: «إنَّ قُريشًا كانت تُحاول أنْ تُوجِد في البلاد العربية وحدةً سياسيةً وثنيةً مستقلةً تقاوم تدخُّل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم في البلاد العربية؛ فيكون من المعقول جدًّا أنْ تبحث هذه المدنيةُ الجديدةُ لنفسها عن أصلٍ تاريخيٍّ قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التي تَحَدَّثُ عنها الأساطير، وإذن فليس ما يمنع قريشًا أنْ تقبل هذه الأسطورة التي تُفيد أنَّ الكعبة من تأسيس إسماعيل وإبراهيم.»

ونحن نقول: إنْ كان هذا صحيحًا وكانت قريشٌ تحاول أن تُوجِد في البلاد العربية وحدةً سياسيةً وثنيةً، كانت بحثت لنفسها عن أصلٍ تاريخيٍّ يعُمُّ جميع العرب لا عن أصلٍ يشطرها شطرين فيجعل بعضها من ولد إسماعيل وبعضها لا أصل له، خصوصًا وأنَّ الجهات الواقعة تحت براثن الاستعمار الفارسي والروماني والحبشي، كُلُّ سكانها من القحطانيين؛ فاليمن — وهي بيئة القحطانيين — كانت تَئِنُّ تحت النِّير الحبشيِّ، والعراق

[١٦] الصابئة: قومٌ يعبدون الكواكب. والمجوس: قومٌ كانوا يعبدون الشمس والقمر والنار. والدهريُّون: ملحدون لا يؤمنون بالآخر، يقولون ببقاء الدهر.

الذي كان يسكنه بنو تنوخ كان تحت سلطان الفارسيين، وشمال بلاد العرب الذي كان يشغله الغَسَّانيون كان يَرْزَحُ تحت كَلاكِل[17] الرومانيين، وكل هذه الأقطار كانت مأهولةً بالقبائل القحطانية التي لا تَمُتُّ إلى إسماعيل بسبب، فهل يُعقل أن تختار قريشٌ أصلًا يُخْرِجُ من حظيرتها هذه القبائل التي تُحاول تخليصها من نير الاستعمار الأجنبي، وهي أقوى العناصر العربية وأصلحها للوقوف في وجه الأجنبي لو توحَّدت كلمتها، وحسُنَتْ قيادتها؟!

ثم نقول: إنَّ الطائفة التي تنتحل أصلًا تاريخيًّا لمحاولة إيجاد وحدة سياسية تحت سلطانه، إنَّما تعمد إلى أصلٍ تُبَجِّلُهَ تلك الأمة كل التبجيل، وتفخر بالاعتزاء إليه، فهل كانت الأمة العربية وهي غَرْقَى في لُجَّةِ وَثَنِيَّتِها تعتد بنبَّوة إبراهيم وإسماعيل قبل تلفيق تلك النسبة ليَسُوغ القولُ بأنَّها في نظرها من الأصول الماجدة؟ وهل كانت تفخر بالانتساب إليهما وهي تطارد اليهودَ الذين يَمُتُّونَ إليهما بأسبابٍ شتى كما تطارد الوحوش الضاربة، وتأنف أن تجمعها وإياهم جامعةٌ؟!

ويقول الدكتور طه حسين: «إنَّ هذه القصة — قصة بناء إبراهيم وإسماعيل للكعبة وأنَّهما جَدَّا العرب العدنانية — أمرُها واضحٌ؛ فهي حديثة العهد ظهرت قبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب دينيٍّ، وقَبِلَتْهَا مكة لسببٍ دينيٍّ وسياسيٍّ أيضًا.»

ونحن نقول: إنَّ قول الدكتور طه: «قُبيل الإسلام»؛ يعني قبله بخمسين أو بمائة سنة على الأكثر؛ إذ لا نظن أنَّ «قُبيل» تحتمل أكثر من ذلك. وأنت تعلم أنَّ هذه الكعبة كان يُعظِّمها العدنانيون والقحطانيون على السواء؛ أي مَن كان منهم من ذرية إسماعيل ومن لم يكن من ذريته، فهل تكفي هذه المدة الوجيزة لترويج فِرْيَةٍ[18] كهذه في مثل بلاد العرب الشاسعة الأرجاء حتى تُصبح الرمز الوحيد لديانتها الوثنية؟!

عُرِفَ العرب بأنَّهم من أشدِّ الأمم محافظةً على قديمهم، وترسُّمًا لخطوات أسلافهم؛ فلا يُعقل أنَّ فِرْيةً يختلقها اليهود للتمكُّن من البقاء في أرضٍ غير أرضهم تُنشر في بلاد العرب من أقصائها إلى أقصائها في مدى نصف قرن أو قرن، وتحمل الناس على ضرب آباط الإبل أيامًا وليالي في أشدِّ بلاد الله جدوبةً وقحولةً، ليحجوا معبدًا قيل: إنَّه قد بناه جَدُّ

[17] يرزح: يعيش في قسوة وذل وإعياء … والكلاكل: جمع كلكل؛ وهو الصَّدر.

[18] الفرية: الكذبة، جمعها: فِرًى.

بعض قبائلهم. أتدري كم بين الشِّحْر وعُمان وَحَضْرَمَوت وعدنٍ وصنعاء والعراق وبين مكة من الأميال؟ وما طبيعة الأرض التي تسير فيها الجِمال، والعقبات التي تُصادفها في طرقها المتداخلة، والأخطار التي يتعرض لها النَّاس من المَنَاسِر[١٩] الكامنة في الكهوف والمغاور؟ أتكفي — والحالة هذه — خمسون أو مائة سنة لنشر فِرْيَةٍ لا أساس لها في شعبٍ جاهليٍّ عنيفٍ قليل الاهتمام بالدين؛ فيُصبح أفراده في جميع أصقاع البلاد العربية — لا فرق بين رجلٍ وامرأةٍ وطفلٍ — يعرفون البيت الحرام ويتمنى كلٌّ منهم أن يطوف به أو يجاوره تاركًا أهله وعمله سنين؟!

اللهم إنَّ هذا مُحالٌ، وإنْ قُدِّر لفريةٍ أن تَروج في العرب هذا الرواج الكبير فلا بد لها من زمانٍ طويلٍ، ولا تتناول إلا الطائفةَ التي يُجعل جدها الأعلى بطلًا للرواية، أما سواهم ممن لا ناقة لهم فيها ولا جمل كالقحطانيين فلا.

يقول الدكتور طه حسين: «إنَّ قريشًا في هذا العصر كانت ناهضةً نهضةً تجاريةً ماديةً ونهضةً دينيةً وثنيةً، وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تُحاول أن تُوجِد في البلاد العربية وحدةً سياسيةً وثنيةً تُقاوم تدخُّل الروم والفرس والحبشة ودياناتهم في البلاد العربية.»

ونحن نقول: أمَّا أنَّ قُريشًا كانت قبيل البعثة المحمدية ناهضةً نهضةً تجاريةً ماديةً، فممَّا لا دليل عليه؛ فإنَّ آية: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش: ١، ٢] لا تدل على شيء أكثر من أنَّ قريشًا كانت لها رحلتان: رحلة في الصيف إلى بلاد الروم، ورحلة في الشتاء إلى اليمن. ولا نظن أنَّ طائفة من النَّاس يُقيمون في مدينة ولا يحتاجون إلى أشياء من محصولات ومصنوعات البلاد الخارجية. فإذا كان لسكَّان العريش ورفحٍ وسيوة والواحات رحلاتٌ إلى القاهرة لبيع بضائعهم وأخذِ بدلها ولا يدل ذلك على أنَّ هذه القرى في دور نهضة تجارية، ولا على وَشَك تكوين وحدة سياسية؛ فلا نظن أنَّ رحلَتَيْ أهل مكة تدلان على أكثرَ ممَّا تدل عليه رحلات أهل هذه القرى والواحات.

أما انتداب قريش لتكوين وحدةٍ سياسيةٍ وثنيةٍ لتخليص البلاد من مطامع الفرس والروم والحبشة فهذا هو الذي نُنازع الدكتور طه حسين فيه ونطلب منه الدليل عليه.

[١٩] جمع المِنْسَر؛ وهو ما يَنْسِر به الطائر الجارح الأشياء، وهو له كالمنقار لغير الجارح، والجماعة من الخيل، وقطعة من الجيش تسير أمامه «الطليعة». المعجم الوسيط [ن س ر].

هل كان لقريش مركزٌ ممتازٌ بين العرب من ناحية القوى الحربية أو المالية أو العِلْمية أو الدينية فتحدِّثها نفسُها — ارتكانًا على شيء من ذلك — بإحداث أمرٍ جللٍ في جزيرة العرب لم يكن يحلم به سواها.

إن كان لها ذلك المركزُ من أيّة ناحية كانت، فهل من دلائل تاريخية، أو قرائن ظنية تسمح لنا أن نعزو إليها هذا المقصد العظيم؟

لم يكن لقريش مركزٌ ممتازٌ من أية ناحية من نواحي المميزات الاجتماعية غير سِدانتها للكعبة. وهذه السِّدانة[٢٠] لم تكن حقًّا خالصًا لها غير متنازعٍ فيه، فإنَّها ليست القبيلة الوحيدة التي تعتزي إلى إسماعيل بن إبراهيم فتحتكر هذه الخطة. ولم يكن حق السِّدانة معتبرًا من نصيب ولد إسماعيل على وجهٍ عامٍّ أيضًا؛ فإنَّه لما نزحت بنو خُزاعة — وهم يمنيون لا ينتسبون لإسماعيل — إلى الحجاز نحو القرن الثاني للميلاد تسلَّطوا على مكة وأقصوا أهلها الأصليين وهم من بني إسماعيل عن سِدانة الكعبة، فلم تنازعهم العرب في ذلك، ولم نسمع أنَّه حدث لذلك حدثٌ بين القبائل، وبقيت سِدانة الكعبة في يد خزاعة إلى القرن الخامس حيث قويت كنانة — وهي من القبائل العدنانية — وتفرَّعت منها قريشٌ، فاتُّفق أنَّ سيد قريش كان في ذلك العهد قُصَيَّ بن كلاب بن مُرَّةَ فتزوج بابنة صاحب سِدانة الكعبة الخزاعي تذرُّعًا لوراثته فيها. فلما حضرت حماه الوفاة أوصى بسِدانة البيت لابنته زوجة قُصي، فاعتذرت لأبيها عن احتمال هذا العبء، فأوصى بها لابن له اسمه المحترش، فابتاع قصيٌّ هذا المنصب منه بعَرَضٍ قليلٍ، فشق ذلك على خزاعة، وحدثت بسببه حروبٌ بينها وبين قريش، ثم تداعَوْا إلى التحكيم، فحُكِم لقصي، فما زالت سِدانة الكعبة لقريش حتى جاء الإسلام.

هذا مجمل تاريخ سِدانة الكعبة، ومنه يرى القارئ أنَّ هذه السِّدانة لم تكن حقًّا صريحًا لقريش ولا للقبائل العدنانية؛ فإنَّ بقاءها في يد اليمنيين بضعة قرونٍ بلا منازع، ثم خُفوف بني خزاعة للمطالبة بها بالسيف، يدل على أنَّ المتغلبين كانوا يتداولونها طلبًا للشرف ليس غير.

ويدل هذا التاريخ أيضًا على أنَّ سِدانة الكعبة لم يكن أمرها عظيمًا عند العرب؛ فإنَّ إيصاء صاحبها الخزاعي بها لابنته ثم لابنٍ سفيهٍ له يبيعها بعَرَضٍ تافهٍ أمرٌ فيه نظر،

---

[٢٠] سدانة الكعبة: خدمتها.

ولا عبرة بقيام الحرب بين خزاعة وقريش من أجلها؛ فإنَّ القبائل العربية كانت تتناحر لأوهى الأسباب كسبق حصانٍ أو عَقْرِ ناقةٍ.

فإنْ قَال قائلٌ: إنَّ صحة هذا التاريخ مشكوكٌ فيها، قلنا: ذلك لا يضيِّع من قيمة حُكمِنَا على تلك السِّدانة من أنَّها لم تكن ذات خطر عند العرب؛ فإنَّهم هم الذين وضعوا هذا التاريخ، ولو كانت هذه الخطة ذاتَ خطر عندهم لما تَجرَّءوا على الحطِّ من قيمتها بوضع مثل هذه الأسطورة في شأنها.

ولو كان للسِّدانة شأنٌ كبيرٌ عند العرب لرأيناهم يحترمون قريشًا ويمنحونها مكانًا ممتازًا بينهم، ويجعلون لسادتها سَدَنَةِ البيت خطرًا عظيمًا، ولكنَّا رأينا من تاريخهم غيرَ ذلك، رأينا أنَّ الحروب كانت تقع بين قريش وغيرها من القبائل على حدٍّ سواءٍ. وقد حضر النبي ﷺ نفسه «حرب الفجار» قبل أن يتشرَّف بالرسالة. وكان سبب هذه الحرب التي لم تكن الأولى من نوعها أنَّ رجلًا اسمه البراض[٢١] قتل عروة بن عتبة[٢٢] سيد هوازن، فأبت أن تقتل به البراض؛ لأنَّه كان رجلًا لا قيمة له، وطلبت أن تقتل سيدًا من قريش؛ فوقعت الحرب وهُزِمَتْ كنانة وقريشٌ معًا، وفي ذلك يقول خداش بن زهير[٢٣] وهو من هوازن [من البسيط]:

يا شدَّةً ما شَدَدنا غيرَ كَاذِبَةٍ	عَلَى سَخِينةَ لَولَا اللَّيلُ والحَرَمُ
لمَّا رَأَوْا خَيلَنَا تُزْجِي أوائلَها	آسادُ غِيلٍ حَمَى أشْبَالَهَا الْأَجَمُ
واسْتُقْبِلُوا بِضِرَابٍ لا كَفَاءَ لَهُ	يُبدِي مِنَ الغُوَلِ الأَكْفَالِ مَا كَتَمُوا
وَلَّوْا سِلالًا وعُظْمُ الخَيْلِ لَاحِقَةٌ	كَمَا تَخُبُّ إِلَى أَوْطَانِهَا النَّعَمُ

[٢١] هو البراض بن قيس، أحد بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة. ينظر الروض الأنف، قصة الفجار. ج١/ص٢٠٩ وما بعدها، ط دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، قدم لها وعلق عليها وضبطها: طه عبد الرءوف سعد.

[٢٢] هو عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب.

[٢٣] هو خداش بن زهير بن ربيعة بن عمرو بن عامر بن صعصعة. وهو من شعراء قيس المجيدين في الجاهلية، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: خِدَاش بن زهير أشعر في عَظْمِ الشعر — يعني: نَفْسَ الشعر — من لبيد، إنما كان لبيدٌ صاحب صفاتٍ. ينظر: الشعر والشعراء، تحقيق وشرح الشيخ: أحمد محمد شاكر ص٦٤٥.

وَلَّتْ بِهِمْ كُلُّ مِحْضَارٍ مُلَمْلَمَةٍ　　كَأَنَّهَا لَقْوَةٌ بِجَنْبِهَا حَزَمُ

ثُمَّ تلاقوا في السنة التالية في يوم سمَّوْه يوم شمطة، فجَمعت كنانة قريشها وعبد منافها والأحابيش ومن لَحِقَ بهم من بني أسد تحت قيادة حرب بن أمية فدارت الدائرة على كنانة وقريش واستَّحَرَّ فيهم القتل. وفي ذلك يقول خِدَاشُ بن زهير وهو من هوازن [من الوافر]:

أَلَمْ يَبْلُغْكَ مَا لَقِيَتْ قُرَيشٌ　　وَحَيُّ بَنِي كِنَانَةَ إِذْ أُبِيرُوا[٢٤]
دَهَمْنَاهُمْ بِأَوْعَرَ مُكْفَهِرٌّ　　فَظَلَّ لَنَا بِعَقْوَتِهِمْ زَئِيرُ

ثُمَّ التقوا للمرة الثالثة في يوم يُقال له العَبلاء[٢٥] فانهزمت فيه كنانة وقريشٌ أيضًا.

ثم تلاقَوا في يوم اسمه شَرْبٌ[٢٦] فانتصرت فيه كنانة وقريشٌ على هوازن. ثم تصادموا في يومٍ اسمه يوم الحُرَيْرَة[٢٧] فهزمت فيه هوازن كنانة وقريشًا.

فلو كانت لقريش مكانةٌ ممتازةٌ من الوجهة الدينية، لما اجترأ مجترئ على قتالها، ولو كان لرؤسائها خطرٌ يفوقون به سواهم لما طالبت هوازن بقتل أحدهم في ثأر.

قد يقول قائل — جريًا على طريقة التشكُّك الواجبة في هذه المواطن: إنَّ هذه الوقائع والأشعار موضوعةٌ مختلفةٌ، وضعها الأنصار للحطِّ من قيمة القرشيين.

نقول: يجوز ذلك، ولا مانع منه، ولكنَّ الواقع المحسوس الذي لا يمكن التماري فيه أنَّ قريشًا حين قصدها النبي ﷺ عام فتح مكة لم تجد من يُنجدها من العرب المجاورين لها، ودخلها الجيش الفاتح بحركةٍ أشبه بِمُداورةٍ عسكريةٍ منها بوقعةٍ حربية، فلو كانت هذه القبيلة ذات مركزٍ ممتازٍ بين العرب لتسارع العرب لإنجادها خفافًا وثقالًا، ولاحتشد

---

٢٤ أبيروا: أُهْلِكُوا.

٢٥ العبلاء: ثلاثة مواضع. القاموس [ع ب ل].

٢٦ موضع بقرب مكة. القاموس [ش ر ب].

٢٧ الحريرة كهريرة: موضع. القاموس [ح ر ر].

حولها عشرات الألوف من المقاتِلة يذودون من يريد إذلالها والاستيلاء على الكعبة التي هي مجتمع أصنامهم وأنصابهم، ولم يتركوها لحمًا على وضمٍ[٢٨] أمام الجيش الفاتح.

فلا يمكن أنْ يُقال في هذا المواطن: إنَّ العرب كانوا قد خُضِدَتْ شوكتهم، وخمدت حميتهم فلم يعودوا يقوون على إنجادٍ لئلَّا يصيبهم من جرَّاء عملهم ما هم في غِنًى عنه، لا يمكن أنْ يُقال مثلُ هذا القول؛ لأنَّ قبيلة هوازن العظيمة المجاورة لمكة، بعد أنْ تَمَّ للنبي ﷺ التغلُّبُ على قريش خشيت أن يصيبها مثل ما أصابها؛ فحشدت رجالها وألقت منهم في ساحة الحرب عشرين ألفًا وقيل ثلاثين ألفًا وشنَّت على المسلمين حربًا ضروسًا لقي فيها المسلمون شدةً عظيمةً حتى انكشفوا عن رسول الله متقهقرين، وكاد التقهقر ينقلِب إلى هزيمة عامة لولا كَرُّ أهل السابقات الحسنة واستماتتهم في القتال.

فلو كان لقريش منزلةٌ ممتازةٌ عند العرب لتسارعت هوازنُ وغيرُها إلى إمدادها، ولوجد المسلمون أمامهم جيشًا عرمرمًا[٢٩] قد لا يقل عن خمسين ألف مقاتل كما هي سُنَّة البشر قديمًا وحديثًا، ولاستعصى على المسلمين فتحُها. ولكن الذي حدث ولا سبيل إلى إنكاره أنَّ المسلمين لم يصادفوا أمامهم فيها إلا زعانف لا بصيرةَ لهم، يقودهم رجالٌ لا مَيْزَةَ لهم إلا أنَّهم صبروا على الباطل حتى أحيط بهم، ثم ترامَوْا على الإسلام لحماية حياتهم، لم يؤثَر عنهم أنّهم فعلوا كما يفعل الحُماة من الاستماتة في الدفاع والموت في ساحات القتال، أو اللَّجأ إلى القبائل المجاورة وإثارتها لصد التيار الجارف، كما فعل حماة التُّرك في العهد الحديث؛ إذ تسللوا إلى الأناضول بعد ضَيَاع عاصمتهم، وما زالوا يتقهقرون أمام المُغِيرِ الفاتح لا يُمَكِّنُونَهُ من ناصيتهم حتى رأوا الساعة مناسبةً لأن يحاكموه إلى الحديد والنار، ففعلوا وفازوا بالحُسْنَيَيْنِ معًا: الحياة المستقلة، والذِّكرى الخالدة.

أما من وجهة القُوَى الحربية؛ فلم يكن لقريش في الجاهلية ما يجعلها بمنزلةٍ ممتازة تحدِّثها معها نفسُها بزعامة العرب. يدل على ذلك ضعفُ مقاومتها للدعوة الإسلامية، وضعف انتقامها ممَّن كانوا يترصدون لتجارتها؛ فإنَّ القوة التي كانت ترمي بها إلى ساحات الحرب أمام المسلمين لم تزِدْ عن المئات عَدًّا.

---

[٢٨] الوضم: الخشبة التي يوضع عليها اللحم. وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إنما النساء لحمٌ على وضمٍ.

[٢٩] أي: كثيرًا.

وأما من النَّاحية المالية فلم تك قريشٌ في مثل ثروة المناذرة بالعراق، ولا الغساسنة بالشام، ولا التبابعة باليمن.

وأمّا من الوجهة العلمية فقد كانت دون كل الأقطار الواقعة تحت سلطان الدول المستعمِرة، ناهيك أنَّ النبي ﷺ بُعِثَ ولم يكن في مكة غير رجلين أو ثلاثة يعرفون القراءة والكتابة؛ حتى سماهم القرآن بالأميين، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

وبعد؛ فإنَّ قبيلةً لا امتياز لها من الوجهة الدينية، ولا خطر لها من النَّواحي المالية والحربية والعلمية، على أي سلطان تستند لتولِّي زعامة العرب، وإحداث وحدة سياسية وثنية تحرِّر بها بلادها من الرِّبقة[٣٠] الاستعمارية؟

إن التظنِّي في مثل هذه المسائل الاجتماعية لا قيمة له؛ فكلُّ إنسان يستطيع أن يتخيَّل الأمور على ما يودُّه ويلائم هواه، ولكن هنالك أماراتٌ وقرائن يمكن الاستدلال منها على ما يراد الاستدلالُ عليه؛ فإن لم تُوجد هذه الأمارات والقرائن كان كل فرضٍ يمكن أن يقابَل بِضِدِّه.

فالدكتور طه حسين يقول: إنَّ قريشًا هذه كانت في نهضة، وإنّها كانت تحدِّث نفسها بإقامة دولة مستقلة وثنية تحرر بها البلاد العربية. فهل هناك أماراتٌ وقرائن تدل على ذلك؟ هل كانت تُبَثُّ لها دعوةٌ في القبائل القريبة منها والبعيدة عنها؟ هل أحدثت تغييرًا ما في شكل سِدانتها للكعبة، أو دوَّنت كتابًا يُفصِّل أمورها الدينية، أو سنَّت للحج والعبادة سننًا جديدة ممَّا يؤخذ منه أنها تتذرع بالعاطفة الدينية لقضاء مآربها الاجتماعية؟ هل أحدثت نظامًا للمبادَلَات وعملت على إيجاد روابط تجاريةٍ بين القبائل تتوسَّل بها إلى الوصول إلى مراميها من وجهةٍ اقتصاديةٍ؟ هل أرسَلَت بمن يثير حميَّة القبائل ويشعل فيها جذوة النَّعْرَةِ القومية تذرُّعًا إلى إيجاد وحدةٍ سياسية؟ هل حاولت أن تقتدي بنظام الحكومات التي كانت ترحل إلى بلادها للتجارة فشرعت في إقامةٍ حكومةٍ مركزيةٍ، واتخذت لمدنيتها شرطةً ومحاكم وجيشًا عاملًا، تحايُلًا على أن يصبح نواةً لهيئة اجتماعية؟

---

[٣٠] الرِّبقة: حبل ذو عرى، أو حلقة لربط الدواب، يقال: حل ربقته: فرَّج كربته.

شيءٌ من هذا لم يكُن، فكيف يمكن أن يُدَّعَى أنَّها كانت في حالة نهضة سياسية، وأنَّها كانت ترمي إلى آمالٍ بعيدةٍ من تكوين وحدة دينية وثنية مستقلة تحرر بها البلاد العربية.

ولكنا نَدَّعي أنَّها كانت في حالة انحلالٍ أدبي واجتماعي وصل بها إلى نهاية أدواره، واستدللنا على ذلك بضعف وسائلها في مقاومة الدعوة الإسلامية، وبِوَهْنِ محاولاتها في الدفاع عن بيئتها الاجتماعية، وبتسارُعِ قادتها إلى إظهار الإسلام نفاقًا عندما دهمهم الخطرُ؛ استبقاء لحياتهم الشخصية.

يقول الدكتور طه حسين: «إنَّ ورود اسمَيْ إبراهيم وإسماعيل في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلًا عن إثبات هذه القصة التي تُحدِّثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة فيها.»

ونحن نقول: إنَّ قول الدكتور طه حسين: «إنَّ ورود اسمَيْ إبراهيم وإسماعيل في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي»، معناه أنَّه لا يُمكن إثبات وجودهما إذ جرى التَّاريخ على أسلوبه في إثبات وجود الرجال، وتحقيق الحوادث المَعْزُوَّةِ إليهم، مستقلًّا عن نصوص الكتب السماوية؛ لأنَّ التاريخ وسائر العلوم قد أعلنت استقلالها عن الأديان منذ نحو ثلاثة قرون. فالتَّاريخ يطلب في إثبات وجود الرجال أدلةً حسيةً، وآثارًا مادية فوق ما تذكره عنهم الكتب الدينية، وبخاصة بالنسبة للأفراد المتغلغلين في القِدَم كإبراهيم وإسماعيل، ونحن نرى أنَّ هذا الموقف من العلوم في الاستقلال عن النصوص الدينية ضروريٌّ لها؛ لتستطيع أن تُؤَدِّيَ وظيفتها من التحرير والتمحيص مطلَقَة الحرية، في دائرة العِلَل الطبيعية، فلا يجوز لحفظة الأديان الصحيحة أن يكرهوا هذا الاستقلال لها؛ فإنَّها بما تتأدَّى إليه من نتائج علميةٍ محقَّقةٍ من طرق مادية محضة تؤيِّد الدين وتصدقه فتنساق النفوس لحبه والأخذ به، والتأدُّب بأدبِه، خلافًا لما إذا كانت العلوم تابعة للدين فإنَّها تقع تحت وصاية قادته؛ أي تحت وصاية رجالٍ ليسوا من أهلها، فيرون في كل حركة من حركاتها انحرافًا، وفي كل رأيٍ من آراء الباحثين فيها تطرُّفًا؛ فيقع التنازع بين الهيئتين؛ فإن انتصرَ رجالُ العلوم عملوا على ملاشاة الدِّين وأهله. فتفادِيًا من هذا التنازع الضارِّ بالأديان والعلوم معًا تراضَى الناس على أن يسير كلٌّ منهما مستقلًّا في طريقه.

والقول بأنَّ إبراهيم وإسماعيل لم يثبُت وجودهما تاريخيًّا ليس معناه أنَّ التاريخ قرَّر بأنَّهما لم يُوجَدَا، ولكن معناه أنَّه لا يستطيع إثبات وجودهما إثباتًا ينطبق على أسلوبه الحسيِّ، وهذا العجز من العِلم لا ينفي أنهما كانا موجودين، وأنَّهما بَنَيَا الكعبة.

فنحن نحترم هذا العَجْز من العلم، ونشجعه على الاعتراف به، بل ولا نقبل منه أن يدَّعيَ علم ما لا ينطبق أسلوبُه عليه، وإدراك ما لا تصل وسائله إليه.

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أنْ نُلاحظ على الدكتور طه حسين أنه لم يُحسن التعبيرَ عن رأيه في هذه المسألة؛ فقد كان يستطيع أن يقولَ مثل ما قلنا فلا يُلومَه أحد.

وبعدُ فنقول: إذا لم يكن لدينا إلى اليوم آثارٌ محسوسةٌ تدل على أنَّ إبراهيم وإسماعيل كانا موجودَيْنِ، وعلى أنهما بَنَيَا الكعبة، فإنَّ المرجِّحات التاريخية على وجودهما وعلى صحة ما عُزِيَ إليهما تكاد تضع هذه المسائل في عداد المحسوسات:

أولها: لا مانِعَ من العقل يمنع من وجود إبراهيم وإسماعيل؛ فإنَّ القائلين بوجودهما لا يزعمون بأنهما كانا مَلَكَيْنِ، أو كائنَيْن فذَّيْن، بل يقولون إنَّهما كانا رجُلين كسائر الرجال؛ يأكلان الطعام ويمشيان في الأسواق. وكل ما عُزي إليهما من المَيزات أنَّهما كانا نبيين يدعوانِ النَّاس إلى توحيد الله وتنزيهه، والأخذ بالفضائل، وتجنب الرذائل، مَثَلُهُمَا في ذلك كَمَثَلِ جميع الأنبياء لا سبيل إلى إنكار وجودهم التاريخيِّ؛ كموسى وعيسى ومحمد.

ثانيها: أنَّهما مذكوران بالاسم في تاريخ أمة عظيمة هي الأمة الإسرائيلية، وقد اعتُبر أولهما جَدًّا أعلى لتلك الأمة وثانيهما أحد أبنائه. فإن لم يكن هو جَدَّها الأعلى لكان غيره، فأي مرجح يرجح أنَّه كان غيره؟

ثالثها: أنَّه لا يوجد مانعٌ تاريخيٌّ ولا جغرافيٌّ يمنع من أن يكون إبراهيم نشأ بالعراق ثم رحل إلى فلسطين.

رابعها: أنه لا يوجد مانعٌ تاريخيٌّ ولا جغرافيٌّ يمنع من أن يكون إبراهيم زار بلاد العرب مرَّة أو مراتٍ، وترك فيها ابنًا له مع أمه لسببٍ من الأسباب.

خامسها: أنَّه لا يوجد مانعٌ ماديٌّ يمنع من أنْ يكون إبراهيم لَمَّا زار بلاد العرب بَنَى بمكة بيتًا للعبادة سُمِّي فيما بعدُ بالكعبة، وهي حجرةٌ واحدة قليلة الارتفاع مبنيةٌ بالأحجار والطين مناسبةٌ لمباني تلك الجهة، يقوم بعملها بناءٌ واحدٌ، وقد تهدَّمت مرارًا، وأُعِيدَ بناؤها وزِيدَتْ مساحتها، ولم يقُل أحد بأنَّها كانت معلقة في الهواء، أو

من الاتِّساع بحيث تسع الألوف المؤلَّفة، ولا أنَّها أقيمت من ذهب وفضة، ورُصِفَتْ أرضها بالجواهر الكريمة.

سادسها: أنَّه لا يوجد مانعٌ — من أي نوع كان — يمنع من أن يكون إسماعيل قد شَبَّ وترعرع في مكة، ولما بلغ مَبْلَغَ الرِّجال تزوّج امرأة من قبيلة كانت هناك تُسمَّى بني جُرْهمٍ، وأنَّه رُزِق منها بأولاد.

سابعها: أنَّه لا يوجد مانعٌ يحمل العرب على انتحال جَدٍّ أجنبي عنهم وهم من أشد العرب فخرًا بخلوص عربيتهم. ولم يُنْحَلْ إسماعيل من المميزات الأدبية والمادية ما يجعل الانتساب إليه من المفاخر التالدة، ولم يُنقل عن العرب في الجاهلية أنَّهم كانوا يفخرون بانتسابهم إلى إسماعيل. وقد فضلوا أن يتلقَّبُوا بالعدنانية نسبة إلى واحدٍ من أجدادهم (عدنان) عن أن يتلقبوا بالإسماعيلية [نسبةً إلى] جدهم الأعلى.

كل هذه المرجِّحات ترجِّح أنَّ إبراهيم وإسماعيل كانا موجودَيْن، وأنَّ الثاني منهما شبَّ وترعرع ببلاد العرب وتزوَّج منهم، وامتاز نسله عن العرب القحطانية باسم العرب العدنانية.

ولو حذفنا من التاريخ كلَّ شخص لم تَرِدْ على وجوده أدلةٌ حسيةٌ وآثارٌ ماديةٌ لحذفنا أكثر رجاله المشهورين، ولم يبقَ منهم إلا أسماءٌ معدودةٌ!

على أنَّ إجماع أمة برُمَّتِهَا كاليهودية على تسمية نفسها بالإسرائيلية نسبة إلى إسرائيل وهو يعقوب بن إبراهيم مُنذ وجودها، وإجماع أمة أخرى وهي العربية على اعتبار بعضها من ذرية إسماعيل؛ مما لا يصح أن يقابل بالتحفظ إلا إذا وُجِدَتْ قرائن تدل على غير ذلك. وقد رأيت أنَّ القرائن كلها ترجح صحة ذلك. أمَّا القول بأنَّ قصة إسماعيل حيلةٌ دَبَّرَها اليهود ليستعطفوا قلوب العرب عليهم؛ فمما لا يُسيغُه العقل للأسباب التي ذكرناها في محلها من الصحف التي سبقت. ونقول هنا زيادةً على ما تقدم: إنَّه إذا كان للعدنانية مصلحةٌ في قبول هذه الحيلة، فهل للعرب القحطانية من مصلحةٍ في مشايعتها على هذه الفِرْية؟!

الشِّعرُ الجَاهِلِيُّ واللَّهَجَاتُ[1]

قال الدكتور طه حسين في فصله الخامس تحت العنوان المتقدم ما مُلخصه:

«الرُّواة مُجمِعون على أنَّ قبائل العدنانية لم تكن متَّحِدة اللغة ولا متفقة اللهجة قبل أنْ يظهر الإسلام، ولكنا لا نرى شيئًا من ذلك في الشعر الجاهليِّ،[2] فنرى مطولات امرئ القيس وزهير وعنترة ولبيد ليس بينها اختلافٌ في اللهجة أو تباعدٌ في اللغة أو تباينٌ في مذهب الكلام. فنحن بين اثنتين: إما أن نُؤمن بأنَّه لم يكن هناك اختلافٌ بين القبائل العربية من عدنان وقحطان في اللغة ولا في اللهجة ولا في المذهب الكلامي، وإما أنْ نعترفَ بأنَّ هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل وإنَّما حُمل عليها حَملًا بعد الإسلام.»[3]

رأينا في هذا الكلام

نقول: إنَّنا نعجب كما يعجب الدكتور طه حسين من ورود الشعر الجاهليِّ كله بلغة قريش مع تبايُنِ لهجات القبائل ومع اختلافها في قراءة القرآن نفسه. وقد بقي هذا التبايُنُ في الإسلام بضع قرون. ولكن يُدهشنا أنْ يغفل عن ذلك كبار رواة اللغة والشعر؛ فلا يلحظون هذا الأمر مع أنَّه من البَدَهِيَّات.

---

[1] شغل مضمون هذا العنوان في كتاب الدكتور طه حسين من ص٣١ حتى ص٤١، وهو ختام عناوين الكتاب الأول.

[2] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٣٢.

[3] السابق ص٣٣.

ومما يزيد هذه المسألة تعقيدًا أنَّ هذه الملاحظة الحقة تقضي علينا بأنْ نحكم بأنَّه لا يوجد شعرٌ جاهليٌ غير قرشيٍّ أصلًا فيما كان يُروى من الشعر المنسوب للعرب، وهو بعيدٌ عن العقل. فهذه المسألة تقتضي — كما يقول الدكتور طه حسين — بحثًا جديًّا في فراغ من البال، ولعله يُوفَّق إليه.

الكتاب الثاني

أسباب انتحال الشعر

ليس الانتحال مقصورًا على العرب[1]

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ما مُلخصه:

«يجب أنْ يتعودَ الباحث درس الأمم القديمة التي قُدِّر لها أن تقوم بشيء من جلائل الأعمال، وما اعترض حياتها من الصعاب؛ ليفهم تاريخ الأمة العربية على وجهه، ويرد كل شيء إلى أصله.[2]

والذين كتبوا في تاريخ هذه الأمة إنَّما نظروا إليها كأنَّها أمَّةٌ فذةٌ لم تعرف أحدًا ولم يعرفها أحدٌ، لم تشبه أحدًا ولم يشبهها أحدٌ، لم تؤثِّر في أحد ولم يؤثر فيها أحدٌ، قبل قيام الحضارة العربية وانبساط سلطانها على العالم القديم.[3]

والحق أنَّهم لو درسوا تاريخ هذه الأمم القديمة وقارَنوا بينه وبين تاريخ العرب لتغيَّر رأيهم في الأمة العربية، ولتغيَّر بذلك تاريخ العرب أنفسهم.

لقد كان شأن الأمة العربية كشأن اليونان والرومان؛ تحضَّرت كما تحضروا بعد بداوةٍ، وتأثرت كما تأثروا بصروفٍ سياسيةٍ مختلفةٍ، وتجاوزت حدودَها الطبيعية كما تجاوزوا، وتركت كما تركوا تراثًا قيِّمًا خالدًا فيه أدبٌ وعلمٌ ودينٌ.[4]

---

[1] شغل مضمون هذا العنوان في كتاب الدكتور طه حسين من ص٤٢ حتى ص٤٦.

[2] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٤٢.

[3] السابق نفسه.

[4] السابق ص٤٣.

وفي الحق أنَّ التفكُّر الهادئ في حياة هذه الأمم الثلاث ينتهي بنا إلى نتائج متشابهة إن لم نقل متَّحِدَة، وقد أثرت فيه مؤثراتٌ واحدةٌ أو متقاربةٌ، فانتهت إلى نتائج واحدة أو متقاربة.

نريد من هذا أنْ نقول: إنَّ هذه الظاهرة الأدبية التي نريد أنْ ندرسها في هذا الكتاب، والتي يجزع لها أنصار القديم جَزَعًا شديدًا، وهي انتحال الشعر ليست مقصورةً على الأمة العربية، وإنَّما تتجاوزها إلى غيرها من الأمم القديمة، ولا سيما اليونانية والرومانية، وقد انخدع الناس بما حُمِلَ على قدمائها من الشعر حتى كان العصر الحديث واستطاع النقاد أنْ يردوا الأشياء إلى أصولها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا،[5] ومنشأ هذه الحركة النقدية إنَّما هو تأثُّر الباحثين بمذهب ديكارت الفلسفي، وانتشار العلم الغربيِّ في مصر سيقضي بأن يصبح عقلنا غربيًّا وأن ندرس آداب العرب وتاريخهم متأثِّرين بمنهج ديكارت.[6]

ولقد أحب أن تُلِمَّ إلمامًا قليلًا بأي كتاب من الكتب الكثيرة التي تُنشر الآن في أوروبا في تاريخ الآداب اليونانية أو اللاتينية، وأن تُسائل نفسك بعد هذا الإلمام: ماذا بقي مما كان يعتقده القدماء في تاريخ الآداب عند اليونان والرومان؟ ولكنك لا تكاد تجد شيئًا من الفرق بين ما كان يتحدث به ابن إسحاق ويرويه الطبري[7] من تاريخ العرب وآدابهم، وما يكتبه المؤرخون والأدباء عن العرب في هذا العصر؛ ذلك لأنَّ الكثرة من هؤلاء المؤرخين والأدباء لم تتأثر بعد بهذا المنهج الحديث ولم تستطع بعدُ أن تُؤمن بشخصيتها، وأنْ تخلِّص هذه الشخصية من الأوهام والأساطير.

وإذا كان قد قُدِّر لهذا الكتاب ألا يُرضي الكثرة من هؤلاء الكُتَّاب والمؤرخين فنحن واثقون بأنَّ ذلك لن يقلِّل من تأثيره في هذا الجيل الناشئ؛ فالمستقبل لمنهج ديكارت لا لمناهج القدماء.»[8]

---

[5] السابق ص٤٤.

[6] السابق ص٤٥.

[7] محمد بن جرير بن يزيد [٢٢٤–٣١٠هـ]. الأعلام للزركلي ج٦ ص٦٩.

[8] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٤٥، ٤٦.

رأينا في هذا الكلام

يقول الدكتور طه حسين: «إنَّ الذين كتبوا في تاريخ العرب إنَّما نظروا إليها كأنَّها أمة فَذَّةٌ لم تعرف أحدًا ولم يعرفها أحدٌ، والحقيقة هو أنَّ الأمة العربية كسائر الأمم القديمة تأثرت كما تأثروا بصروف سياسية مختلفة، وتجاوزت حدودها الطبيعية كما تجاوزوا ...» إلخ.

وإنَّا لا ندري هل يقصد الدكتور — بهذا القول — الذين تكلموا في تاريخ العرب قبل الإسلام أو بعده. فأما تاريخها بعد الإسلام فكلُّ الذين كتبوا فيه لم ينظروا إليها كأمة فذة، لم تعرف أحدًا ولم يعرفها أحدٌ، بل أجمعوا بأنَّها تحضَّرت بعد بداوة، وتأثرت بالمؤثِّرات المختلفة، وأثَّرت في غيرها، وتجاوزت حدودها الطبيعية ففتحت سورية وشمال أفريقيا وفارسَ وما وراء النهر إلى حدود الصين، وفتحت من أوروبا إسبانيا والبرتغال وجزءًا من فرنسا إلى نهر اللُّوار، وأفاضوا فيما تأثرت به من العوامل السياسية والاجتماعية والعلمية، وفيما أحدثته من الآثار في الأمم ممَّا يملأ أسفارًا ضخمة.

وإنْ كان يقصد الدكتور الذين تكلَّموا في تاريخ العرب قبل الإسلام؛ فإنَّ مُؤرِّخي العرب أنفسهم ذكروا عن تحضُّرها ومدنيتها أمورًا تكاد تكون خيالية؛ حتى قالوا: إنَّ إرم ذات العماد كانت مبنيَّة بالذهب والفضة، ولمدينتها سُورٌ مرصعٌ بصفائح الذهب ... إلخ إلخ.

وذكروا عن مملكة تدمر العربية أنَّ سُلطانها امتد في عهد ملكتها الزَّبَّاء إلى مصر والشام والعراق وما بين النهرين وآسيا الصغرى إلى أنقرة.

وذكروا أنَّ سعدًا أبا كرب ملك اليمن غزا آذربيجان وهزم الترك والروم والفرس، وجاز الصين وغنِم منها مغانم شتى، وضرب ابنُه يعفُرُ الجزية على القسطنطينية، ثم سار إلى روميَّة وحاصرها.

وقال ابن خلدون[٩] عن جهينة وبَلِيٍّ — من بطون بني قُضاعة: إنَّ منازلهم كانت بين يَنْبُع وَيَثْرِب ومصر وعلى شواطئ البحر الأحمر، وإنَّهم فتحوا مصر وبلاد الحبشة والنوبة، ومكثوا في هذه البلاد أجيالًا ... إلخ إلخ.

[٩] ينظر: تاريخ ابن خلدون ط قصور الثقافة، مصر، سلسلة الذخائر، مصورة عن بولاق ١٢٨٤هـ، عدد١٥٤، ج٢ ص٢٤٧.

ولو أردنا أنْ نُسرد ما كتبه مؤرخو العرب في هذا الصدد لملأنا منه صُحُفًا، فالذين كتبوا في تاريخ الأمة العربية قديمًا وحديثًا عن الجاهلية والإسلام لم ينظروا إليها كأنَّها أمة فذةٌ لم تعرف أحدًا ولم يعرفها أحدٌ، بل نظروا إليها نظرَهم إلى كل أمة تحضَّرت بعد بداوة واختلطت بالأمم وأثَّرت فيهم وأثَّروا فيها.

يقول الدكتور طه حسين: «وانتشار العِلْم الغربي في مصر سيقضي بأنْ يصبح عقلنا غربيًا وأن ندرس تاريخَ العرب وآدابهم متأثرين بمنهج ديكارت.»

نقول: إنَّنا لا نظن أنَّه يُوجد عقلٌ شرقيٌّ وعقل غربيٌّ، وإنَّما نعتقد أنَّه يوجد عِلْم وجهلٌ، وهذا العقل الغربي حينما كان الجهل مخيِّمًا على أوروبا لم يُغنِ عن أهلها شيئًا. فكانت الشعوب تُباع مع أراضيها، وكان كلُّ مجتمع منها منقسمًا إلى طبقات بعضُها يستغل البعض الآخر، ويسخِّره لشهواته، وكان كلُّ من يَتَجَارَى على البحث في شيء من العلم والفلسفة بل على طلب الفهم في الدِّين يُلقى في تنورٍ مسجورٍ. وكان العقل الشرقي إذ ذاك يكشف المساتير للباحثين، وينير الغياهب للسالكين، ويبني العلم والفلسفة والسياسة على أساسٍ متين، ويقيم أركان العدل والمساواة والحرية بين الناس أجمعين.

فالعقل لا شرقيٌّ ولا غربيٌّ، وإنَّما هو قوةٌ إنْ تولاها العلم أداها إلى عِلِّيِّين، وإن قادها الجهل ساقها إلى أسفل سافلين.

السياسة وانتحال الشعر[1]

قال الدكتور طه حسين في الفصل الثاني من الكتاب الثاني ما مُلخصه:

«قلت: إنَّ العرب قد خضعوا لمثل ما خضعت له الأمم القديمة من المؤثرات التي دعت إلى انتحال الشعر والأخبار. والمؤثر الذي طبع الأمة العربية بطابع لا يُمحَى مُؤلَّفٌ من عنصرين قويين جِدًّا هما: الدِّين والسياسة. ولا سبيل إلى فهم التاريخ الإسلاميِّ إلا إذا وضحت مسألة الدين والسياسة توضيحًا كافيًا. فإنَّ العرب لم يستطيعوا أنْ يَخلُصوا — منذ ظهر الإسلام — من هذين المؤثِّرين في لحظة من لحظات حياتهم في القرنين الأول والثاني.

هم مسلمون ظهروا على العالم بالإسلام، فهم محتاجون أن يتميزوا به ويجدوا في اتصالهم به ما يضمن لهم هذا الظهور وهذا السلطان. وهم في الوقت نفسه أهل عصبية، وأصحاب مطامع ومنافع؛ فهم مضطرُّون إلى أن يُراعوا هذه العصبيةَ ويلائموا بينها وبين منافعهم ومطامعهم ودينهم.[2]

وإذا كانت حياتهم متأثرةً تأثرًا متصلًا بالدين والسياسة وجادَّةً في الاستفادة منهما جميعًا، فخليقٌ بالمؤرِّخ السياسيِّ أو الأدبي أو الاجتماعي أن يجعل مسألة الدين والسياسة عند العرب أساسًا لبحثه.

---

[1] شغل مضمون هذا العنوان في كتاب الدكتور طه حسين من ص٤٧ حتى ص٦٨.

[2] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٤٧.

وأول ما يجب أنْ نُلاحظه هو الجهاد العنيف الذي اتصل بين النَّبيِّ وأصحابه من ناحية، وبين قريش وأوليائها من ناحية أخرى.

في أول ظهور الإسلام كان هذا الجهاد جدليًّا خالصًا. وكان النبي يُجادلهم بالقرآن فيُفْحِمَهُمْ؛ فيزداد عدد أتباعه حتى تكوَّن له حِزبٌ. ولكنَّه لم يكن حِزبًا سياسيًّا ذا خطر، ولم يطمع في مُلْكٍ ولا تغلُّبٍ. وكان كلَّما قوي هذا الحزب اشتدت مناضلة قريشٍ له حتى اضطرته للهجرة الأولى ثم الهجرة الثانية.[3]

هذه الهجرة وضعت الخلاف بين النبيِّ وقريش وضعًا جديدًا؛ فجعلت الخلاف سياسيًّا يعتمد في حلِّه على السيف بعد أن كان يعتمد على الجِدال.

أحسَّت قريشٌ أنَّ الأمر تجاوز الأوثان والآراء الموروثة إلى السيادة السياسية في الحجاز، والطرق التجارية بين مكةَ وبين البلاد التي كانت ترحل إليها، فأصبح موضوع النزاع ليس مقصورًا على أنَّ الإسلام حقٌّ أو غير حقٍّ، بل صار يتناول الأمة العربية أو الحجازية لمن تُذْعِن؟ والطرق التجارية لمن تخضع،[4] وهذا أدَّى إلى نُشوء عداوة بين قريش وأهل المدينة «الأوس والخزرج» وكانت علاقتهم وُدِّيَّةً قبل الإسلام. واصطبغت هذه العداوة بالدم يوم انتصر الأنصار على قريش في بَدْرٍ، ويوم انتصرت قريشٌ في أُحُدٍ، واشترك الشِّعر في هذه العداوة مع السيف فوقف شعراء قريش وشعراء الأنصار يتهاجَوْن. وكان النبي يُحرض شعراءه ويعدهم بالأجر عند الله كما يعد المقاتلين.[5]

مضت قريشٌ في جهادها وأعانها من أعانها من العرب واليهود ولكنها لم توفَّق، وأمست ذات يوم وإذا خَيلُ النبي قد أظلت مكة، فنظر زعيمها وحازمها أبو سفيان، فرأى الحزم في أن يُصانع ويُصالح ويدخل فيما دخل فيه الناس؛ لعل هذا السلطان السياسيَّ الذي انتقل من مكة إلى المدينة ومن قريش إلى الأنصار أن يعود إلى قريش وإلى مكة مرة أخرى؛ فأسلم أبو سفيان، وأسلمت قريش، وأصبح النَّاس جميعًا في ظاهر الأمر إخوانًا.[6]

[3] السابق ص٤٨.

[4] السابق ص٤٩.

[5] السابق ص٥٠، ٥١.

[6] السابق ص٥١.

ولعل النبي لو عُمِّرَ بعد فتح مكة زمنًا طويلًا لاستطاع أن يمحو تلك الضغائن، ولكنه تُوفِّي ولم يضع قاعدةً للخلافة ولا دستورًا لهذه الأمة التي جمعها بعد فُرقة، فأيُّ غرابة في أن تعود هذه الضغائن إلى الظهور.[٧]

فلم يكد النبي يدع هذه الدنيا حتى اختلف المهاجرون والأنصارُ في الخلافة، أين تكون، ولمن تكون؟ وكاد الأمر يَفْسُدُ بين الفريقين لولا بقيةٌ من دين، وحزمُ نفرٍ من قريش، ولولا أنَّ القوة المادية كانت إذ ذاك إلى قريش؛ فأذعنت الأنصار، وانصرفت قوة الجميع إلى ما كان من انتفاض العرب على المسلمين أيام أبي بكر، وإلى ما كان من الفتوح أيام عمر. ولكنَّ المقيمين من أولئك وهؤلاء في مكة والمدينة لم يكونوا يستطيعون أن ينسوا تلك الخصومة العنيفة التي كانت بينهم أيام النبي ولا تلك الدماءَ التي سُفكت في الغزوات.

وقد حال حَزم عمر بين قريش والأنصار وبين الفتنة.[٨] فَقَد نهى عن رواية الشعر الذي تهاجَى به المسلمون والمشركون أيام النبي. وهذه تثبت روايةً أخرى؛ وهي أنَّ قريشًا والأنصار تذاكروا ما كان قد هجا به بعضهم بعضًا أيام النبي، وكانوا حِراصًا على روايته يجدون في ذلك من اللذة والشماتة ما لا يشعر به إلا صاحب العصبية القوية.

وقد ذكر الرواة أنَّ عُمر مَرَّ ذات يوم فإذا حسان في نفر من المسلمين يُنشدهم في المسجد فأخذ بأذنه وقال: أرُغاءً كرغاء البعير؟! قال حسان: إليك عني يا عمر، فوالله لقد كنت أُنشِد في هذا المكان من هو خيرٌ منك فيرضى. فمضى عمر وتركه، وفِقْه هذه الرواية يسيرٌ لمن يلاحظ أنَّ الأنصار كانوا موتورين فكانوا يَتَعزَّون بنصرهم للنبي وانتصافهم من قريش قبل موت النبي. وعُمر قرشيٌّ تكره عصبيته أن تُزدرَى قريش، وكان فوق هذا أميرًا حازمًا يريد أن يؤسس ملك المسلمين على شيء غير العصبية، فلم يظفر بكل ما يريد.[٩]

وتحدَّث الرواة أنَّ عبد الله بن الزِّبَعْرَى وضرار بن الخطاب قَدِمَا المدينة أيَّام عمر، فذهبا إلى أبي أحمد بن جحشٍ وطلبا إليه أنْ يُحضر حسانًا ليناشداه الشِّعر. فلمَّا جاء

---

٧ السابق ص٥١، ٥٢.

٨ السابق ص٥٢.

٩ السابق ص٥٣.

حسان أخذا يُنْشِدانه مما قالت قريش في الأنصار حتى استشاط. ولَمَّا فرغا تركاه ومضيا إلى مكة، فذهب حسان إلى عمر وقصَّ عليه الخبر. فأرسل عُمَر مَن ردهما، فلما مثلا بين يديه قال لحسان: أنشِدهما ما شئت. فأنشدهما حتى اشتفى، وقال عمر بعد ذلك: قد كنت نهيتكم عن رواية هذا الشعر لأنَّه يُوقظ الضغائن؛ فأمَّا إذا أبوا فاكتبوه.[١٠]

قال ابن سلام: نظرت قريشٌ فإذا حظها من الشعر قليلٌ في الجاهلية فاستكثرت منه في الإسلام، وليس من شك عندي في أنَّها استكثرت من هذا الشعر الذي يُهجَى فيه الأنصار.[١١]

ولما تولى عثمان تقدَّمت الفكرةُ السياسية التي كانت تشغل أبا سُفيان خطوة أخرى؛ فلم تصبح الخلافة في قريش فحسب، بل أصبحت في بني أمية خاصة، واشتدت عصبية قريش، واشتدت عصبية الأمويين، واشتدت العصبيات الأخرى بين العرب، وهدأت حركة الفتح وأخذ العرب يفرغ بعضهم لبعض. وكان من نتائج ذلك ما تَعْلم من قتل عثمان، وافتراق المسلمين، وانتهاء الأمر كله إلى بني أمية.[١٢]

في ذلك الوقت فشلت الخطة التي كان يختطها عمر، وهي منع العرب أن يتذاكروا ما كان بينهم من الضغائن قبل الإسلام. وعاد العرب إلى شر ممَّا كانوا فيه من التنافس في جميع الأمصار الإسلامية، ويكفي أن أَقُصَّ عليك ما كان من تنافس الشعراء من الأنصار وغيرهم عند معاوية ويزيد ابنه.[١٣]

لعلك قرأت أنَّ عبد الرحمن بن حسان شبَّب برملة بنت معاوية، فاصطنع معاوية الحِلْم وقال له: أين أنت من أختها هند؟! وأما يزيد فكان صورةً لجده أبي سفيان؛ كان رجل عصبيةٍ وقوَّةٍ وفتكٍ وسُخطٍ على الإسلام وما سنَّه للناس من سنن. فأغرى كعب بن جُعَيل بهجاء الأنصار، فاستعفاه وقال: أتريد أن تردني كافرًا بعد إسلامٍ؟! فأغرى الأخطل وكان نصرانيًّا، فأجابه وهجا الأنصار.[١٤]

---

[١٠] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٥٤.

[١١] السابق نفسه.

[١٢] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٥٤، ٥٥.

[١٣] السابق ص٥٥.

[١٤] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٥٥. في كعب بن جعيل وفي أمر يزيد معه، ينظر: الأعلام للزركلي ج٥ ص٢٢٦، والشعر والشعراء لابن قتيبة ص٤٨٤، ٦٤٩، ٦٥٠.

ويزيد هذا هو صاحب وَقْعَةِ الحَرَّة[١٥] التي انتُهِكَتْ فيها حرمات الأنصار في المدينة والتي انتقمت فيها قريشٌ من الذين انتصروا عليها في بدرٍ والتي لم تقُم للأنصار بعدها قائمةٌ. ويقول الرواة: إنَّه قُتِلَ فيها ثمانون من الذين شهدوا بدرًا؛ أي من الذين أذلوا قُريشًا.[١٦]

وقد طلب عمرو بن العاص من معاوية أن يمحوَ اسم الأنصار؛ فقال الأنصاري الوحيد الذي شايع بني أمية وهو النعمان بن بشير [من الكامل]:

يَا سَعْدُ لَا تُجِبِ الدُّعَاءَ فَما لنَا ... نَسَبٌ نُجِيبُ بِه سِوَى الأَنْصَارِ
نَسَبٌ تَخَيَّرَه الإِلَهُ لِقَوْمِنَا ... أَثْقِلْ به نَسَبًا عَلَى الكُفَّارِ
إنَّ الَّذِين ثَوَوْا بِبَدْرٍ مِنْكُمُ ... يَوْمَ القَلِيبِ هُمُ وَقُودُ النَّارِ

فَسَمع معاوية هذا الشِّعر وَلَامَ عَمْرًا على تسرُّعه ليس غير،[١٧] وكان أصحاب العصبية القرشية يتفاوتون تفاوُتًا شديدًا؛ فكان منهم المسرف كيزيد، والمقتصد كمعاوية ومنهم من يتجاوز الاقتصاد إلى العطف على الأنصار والرثاء لهم كالزُّبير بن العوام، فقد رُوي أنَّه مَرَّ بنفر من المسلمين فإذا فيهم حسَّان يُنشدهم وهم غير حافلين بما يقول، فلامهم وذكر موقع حسان من النبي. فقال حسَّان يمدحه[١٨] وأُحِبُّ أن تلتفت إلى أول هذا الشِّعر فهو حسن الدلالة على ما أريد أن أثبته من دخول الحزن على نفوس الأنصار لهذا الموقف الجديد الذي وقفتْه منهم قريشٌ (من الطويل):

أقامَ على عهد النبيِّ وهَدْيِهِ ... حَوَاريُّه والقَوْلُ بالفِعْل يُعْدَلُ

[١٥] الحَرَّة: موضع بظاهر المدينة، كما في القاموس (ح ر ر).

[١٦] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٥٦.

[١٧] ينظر: شعر النعمان، وموقف معاوية منه ومن عمرو بن العاص، في تجريد الأغاني لابن واصل الحموي، تحقيق الدكتور طه حسين، وإبراهيم الأبياري، ط مطبعة مصر ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، ص١٦٨٤، ١٦٨٥.

[١٨] يراجع شعر حسان وموقف ابن الزبير منه في ديوانه، تحقيق: دكتور سيد حنفي حسنين، ط دار المعارف مصر، ١٩٨٣م، ص٢٩٤، والأبيات من قصيدة من تسعة أبيات.

أقـامَ علـى مِـنْـهـاجِـه وطَـرِيـقِـهِ   يَـوالِـي وَلِـيَّ الـحقِّ والـحَـقُّ أعـدلُ
هو الفارسُ المشهورُ والبَطَلُ الذي   يَـصُـولُ إذا مـا كـان يـومٌ مُـحَـجَّـلِ

... إلخ إلخ.

فانظر إلى هذين البيتين في أول المقطوعة كيف يُمثِّلان ذكر حسان لعهد النبي، وحزنه عليه، وأسفه على ما فات الأنصار من موالاة النبيِّ لهم وإنصافه إياهم.[١٩]

وقد ذكرتُ لك ما كان من هجاء الأخطل للأنصار، فقيل: إنَّ النُّعمان بن بشير غضب لهذا الهجاء، وأنشد بين يدي معاوية أبياتًا نرويها لك فسترى فيها مثل ما رأيتَ في أبيات حسان من أثر هذه العصبية التي تضيف إلى الشعراء ما لم يقولوا. فقال النُّعمان بن بشير لمعاوية [من الطويل]:

مُعَاوِيَ إنْ لَا تُعْطِنا الحَقَّ تَعْتَرِفْ   لِحَيِّ الأَزْدِ مَشدودٌ عَليهَا العَمَائِمُ
أَيَـشْـتُـمُـنَـا عَـبْـدُ الأَرَاقِـمِ ضِـلَّـةً   وَمَاذَا الَّذِي تُجْدِي عَلَيْكَ الأَرَاقِمُ
فَمَا لِي ثَأْرٌ دُونَ قَطْعِ لِسَانِهِ   فَدُونَكَ مَنْ تُرْضِيه عَنْكَ الدَّرَاهِمُ
وَرَاعِ رُوَيْـدًا لا تَـسُـمْـنَـا دَنِـيَّـةً   لَـعَـلَّـكَ فِـي غِـبِّ الـحَـوَادِثِ نَـادِمُ
مَتَى تَلْقَ مِنَّا عُصْبَةً خَزْرَجِيَّةً   أَوِ الأَوْسَ يومًا تَخْتَرِمْكَ المَخَارِمُ
وَتَلْقَاكَ خَيْلٌ كَالْقَطَا مُسْتَطِيرَةٌ   شَمَاطِيطُ أَرْسَالٌ عَلَيْهَا الشَّكَائِمُ

إلى أنْ قالَ:

فَمَا أَنتَ وَالأَمرُ الَّذِي لَستَ أَهْلَهُ   وَلَكنْ وَلِّيُّ الحَق وَالأَمرِ هَاشِمُ
إِلَيْهِم يَصِيرُ الأَمْرَ بَعدَ شَتَاتِه   فَمَنْ لَكَ بِالأَمْرِ الَّذِي هُوَ لَازِمُ[٢٠]

فأنت ترى إلى أيّ حدٍّ كانت العصبية قد انتهت بقريش والأنصار، وأنت ترى تأثيرها في الشعر والشعراء، وأنت ترى من هذين الاستطرادين كيف استغلَّت العصبية الزبيرية

[١٩] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٥٦، ٥٧.

[٢٠] ينظر: تجريد الأغاني ص١٦٨٥، ١٦٨٦.

والهاشمية شعر حسان وشعر النعمان بن بشير لمناهضة خصومها. ولا أريد أنْ أَدَعَ هذه العصبية دون أن أذكر ما كان بين عبد الرحمن بن حسان، وعبد الرحمن بن الحكم أخي الخليفة مروان من هذا النّضال العنيف الذي لم يبقَ لنا منه إلا آثار ضئيلةٌ.[٢١]

كان الأنصار يتحدثون أنَّ هذين الرجلين كانا صديقين، وكان عبد الرحمن بن حسان يُحب امرأة صاحبه القرشيِّ، فبلغ ذلك صاحبه، فراسل امرأة عبد الرحمن بن حسان، وأنبأتْ هذه زوجَها، فاحتال حتى حمل امرأة صاحبه على أن تزوره في بيته وأخفاها في إحدى الحُجَر، واحتالت امرأته حتى حملت القرشيَّ على أن يزورها، فلما استقر به المُقام عندها أقبل زوجها فأرادت أن تُخفيه فأدخلته في إحدى الحُجَر، فإذا هو يرى امرأته؛ ففسد الأمر بين الصديقين، وأما قريشٌ فكانت تروي القصة نفسها ولكنها تعكسها وتظهر صاحبها مظهر الوفي لصديقه؛ فلا يجيب على رسائل امرأته رعاية لحرمة الصديق.[٢٢]

وقد تجاوز الأمر هذين الشاعرين؛ فاستعان القرشي بشعراء من مضر وربيعة. ثم انتهى الأمر إلى معاوية؛ فأرسل إلى واليه على المدينة سعيد بن العاص بأن يضرب كلًّا من الشاعرين مائة سوطٍ، وكان سعيدٌ عطوفًا على الأنصار، وكانت بين سعيد وعبد الرحمن بن حسان مودةٌ، فكره أن يضربه فعطَّل أمر معاوية، فلما خلفه على ولاية المدينة مروان بن الحكم ضرب عبد الرحمن بن حسان مائة سوطٍ؛ فكتب للنعمان بن بشير بدمشق شعرًا، فدخل هذا على معاوية وذكر له أنَّ سعيدًا عطَّل أمره وأنَّ مروان أنفذه في الأنصاري وحده! فأمر معاوية مروان أن يضرب أخاه، فضربه خمسين سوطًا، واستعفى عبد الرحمن بن حسان في الباقي فعفا، ولكنه أخذ يذيع في المدينة أنَّ مروان قد ضربه حدَّ الحُرِّ مائة سوطٍ وضرب أخاه حدَّ العبد خمسين. فشقت هذه المقالة على عبد الرحمن بن الحكم، وطلب إلى أخيه أن يتم عليه المائة ففعل.[٢٣]

ولقد يستطيع الكاتب السياسيّ أن يضع كتابًا ضخمًا في هذه العصبية بين قريش والأنصار وما كان لها من التأثير في حياة المسلمين أيام بني أمية، لا نقول في المدينة ومكة ودمشق؛ بل نقول في مصر وأفريقيا والأندلس، ويستطيع الكاتب في تاريخ الأدب

[٢١] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٥٨–٦٠.
[٢٢] ينظر السابق ص٦٠، ٦١.
[٢٣] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٦٢–٦٤.

أن يضع سِفْرًا مستقلًّا فيما كان لهذه العصبية بين قريش والأنصار من التأثير في شعر الفريقين الذي قالوه في الإسلام، وفي الشعر الذي انتحله الفريقان على شعرائهما في الجاهلية. وقد تجاوزت العصبيةُ هؤلاء إلى العرب كافَّةً؛ فتعصب العدنانية على اليمانية، وتعصبت مضر على بقية عدنان، وتعصَّبت ربيعة على مضر. وانقسمت مُضر نفسها فكانت فيها العصبية القيسية والتميمية والقرشية. وانقسمت ربيعة؛ فكانت فيها عصبية تغلب وعصبية بكر، وقُلْ مثل ذلك في اليمن؛ فقد كانت للأزد عصبيتها، ولحميرٍ عصبيتها، ولقضاعة عصبيتها. وكانت هذه العصبيات تتشعَّب وتتفرع وتتشكل بأشكال الظروف السياسية والإقليمية التي تُحيط بها؛ فلها شكلٌ في الشام، وآخر في العراق، وثالثٌ في خراسان، ورابعٌ في الأندلس. وأنت تعلم حقَّ العلم أنَّ هذه العصبية هي التي أزالت سلطان بني أمية؛ لأنَّهم عدلوا عن سياسة النبي التي تريد محوَ العصبيات، وأرادوا أن يعتزُّوا بفريق من العرب على فريق. قَوَّوْا العصبية ثم عجزوا عن ضبطها، فأدالت منهم، بل أدالت من العرب للفرس.[٢٤]

وإذا كان هذا تأثيرَ العصبية في الحياة السياسية، فأنت تستطيع أن تتصور هذه القبائل العربية في هذا الجهاد السياسي العنيف تحرص كلُّ واحدة منها على أن يكون قديمها في الجاهلية خير قديم. وقد أرادت الظروف أن يَضيع الشِّعر الجاهليُّ؛ لأنَّ العرب لم تكن تكتب شعرها بعدُ، فلمَّا كان ما كان من حروب الرِّدَّةِ ثم الفتوح ثم الفتن قُتل من الرواة والحُفَّاظ خلقٌ كثيرٌ، ثم اطمأنت العرب في الأمصار أيام بني أمية وراجعت شعرها فإذا أكثرُه قد ضاع، وإذا أقلُّه قد بقي، وهي في حاجة إلى الشعر تُقدِّمه وقودًا لهذه العصبية المضطرمة، فاستكثرت من الشعر ونحلته شعراءها القدماء.[٢٥]

وقد كان القدماء يُحسُّون كما نُحِسُّ أنَّ هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين أكثره منحولٌ، ولكن مناهجهم في النقد كانت أضعف من مناهجنا؛ فكانوا يبدءون ثم يقصرون عن الغاية.

ومهما يكن من شيء فإنَّ هذا الفصل ينتهي بنا إلى نتيجةٍ نعتقد أنَّها لا تقبل الشك؛ وهي أنَّ العصبية وما يتصل بها من المنافع السياسية قد كانت أهم الأسباب التي حملت

[٢٤] ينظر السابق ص٦٤، ٦٥.

[٢٥] السابق ص٦٥.

العرب على انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين، وقد رأيت أنَّ القدماء قد سبقونا إلى هذه النتيجة.»[٢٦]

رأينا في هذا الكلام

قال الدكتور طه حسين: «المؤثِّر الذي طبع الأمة العربية بطابع لا يُمحى مؤلَّفٌ من عنصرين قويين جدًّا هما: الدِّين والسياسة، ولا سبيلَ إلى فهم التاريخ الإسلامي إلا إذا وضحت مسألة الدين والسياسة توضيحًا كافيًا، فإنَّ العرب لم يستطيعوا أنْ يخلصوا منذ ظهر الإسلام من هذين المؤثرين في لحظة من لحظات حياتهم في القرنين الأول والثاني.»

ونحن نقول: لم يكن العرب بِدْعًا من الأمم في الاشتغال بالدين والسياسة؛ فليس في العالم أَمَّةٌ قديمةٌ أو حديثةٌ لم يعمل هذان المؤثران في حياتهم عملًا مستمرًا. فالدِّين يستغرق جميع ميولها الأدبية، ومراميها المعنوية، ومثلها العليا، والسياسة تستوعب جميع جهودها للبقاء حُرَّةً مستقلةً، وكل مساعيها لإقامة حكومة منتظمة قوية، فأيُّ أمَّةٍ من الأمم القديم والحديثة عرضت على عقلك أمورَها فلا تجدها تخلو عن التأثُّر بهذين المؤثرين إلا ما يُعرف عن بعض الأمم الأوروبية منذ نحو قرن؛ فإنَّها بدأت تدفع تأثيرَ الدِّين عنها. والمراد بالدِّين هنا رجاله والقائمون عليه، لا الدين نفسه؛ فالنفوس والعقول لا تزال في شغلٍ شاغلٍ به نفيًا وإثباتًا، بحثًا وتمحيصًا. ناهيك أنَّ في أوروبا وأمريكا اليوم أكثرَ من ثلاثمائة مجلة تبحث في الروح وخصائصها وخلودها.

وقد تحفَّظنا فقلنا: «إلا ما يُعرف عن بعض الأمم الأوروبية.» ذلك لأنَّ كثيرًا منها لا يزال المؤثر الديني فيها على أشد ما يكون. فهذه «أرلندة» كادت تهلك منذ سنتين من جرَّاء النزاع الديني بين بروتستانت أولستر وكاثوليك بقية الجزيرة فيما يتعلق بتبعيتها أو عدم تبعيَّتها للدولة الإنجليزية. وهذا المؤثِّر الديني لا يزال حيًّا في البلاد البلقانية. وفي مَكْسِيكا بأمريكا مشكلةٌ دينيةٌ بين البروتستانت والكاثوليك كادت توقعها في حرب مع الولايات المتحدة.

[٢٦] ينظر السابق ص٦٧.

أما المؤثر السياسيُّ فلا أريد أن أحدثك عنه بشيء، فأنت خبيرٌ بأنَّه قد استوعب جهود الجماعات والأفراد منذ عُرِفَ الاجتماع، ولا يزال يستوعبها ما دام الاجتماع والنظام العالميُّ قائمًا. وهو اليوم على أشدِّ ما يكون بنسبة انتشار الديموقراطية. فقد جاوز رجالَ السياسة الأعلين إلى سائر الأفراد، وتخطَّاهم إلى طلاب المدارس، وصِبية المكاتب، وأُغَيْلِمة الأزقة. واخترق كل هذه الطبقات إلى فلَّاحات الحقول، وخادمات الدور.

فإذا كان الإسلام قد أوقع العرب منذ ظهر تحت تأثير هذين المؤثرين: الدِّين والسياسة؛ فيكون معنى ذلك أنَّه نقلهم إلى الطريق التي تقوم عليه الأمم المتمدينة، وتتأدَّى بالجري عليها إلى كمالها المقدَّر لها كما هو مشاهَدٌ، بعد أن كان لا شغل لهم إلا التناهُب والتناحر، وقصر الجهود على السفاسف والصغائر. وثمرة هذا الانتقال ظهرت حتى بَهَرَت الأنظار؛ فقد كانوا قبل الإسلام خاضعين للأمم الاستعمارية، أو هائمين على وجوههم في القِفَار على حالةٍ بدوية. فلما نقلهم الإسلام إلى هذه الطريق، طريق الشُّغل بالدين والسياسة؛ اجتمعوا بعد فرقةٍ، وَأَثْرَوْا بعد فاقةٍ، وامتدَّ سلطانهم على أكثر المعمور، وأصبحوا دولةً آلت إليها خلافة الله في الأرض.

يقول الدكتور طه حسين: «إنَّ العرب لم يستطيعوا أنْ يخلُصوا منذ ظهور الإسلام من هذين المؤثرين في لحظةٍ من لحظات حياتهم في القرنين الأول والثاني.»

ونحن نقول: بل لم يستطيعوا أن يخلُصوا منهما إلى اليوم، ولن يخلُصوا منهما ما دامت للروح حاجةٌ فيما وراء المحسوسات، وما دامت بهم حاجةٌ إلى حكومةٍ حكيمة تدبِّر أمورهم، وإلى مكانٍ يشغلونه بين الأمم.

ولست أرى أنَّ تأثر المسلمين بهذين المؤثرين في القرنين الأول والثاني كان أشد من تأثُّرهم بهما في القرون التي تلتهما؛ فإنَّ نشوء الفرق الإسلامية التي أربت على السبعين، وتنازُعها في فهم الدِّين، وتنافسها في اجتذاب المشايعين، وقع أكثره في القرن الثالث وما بعده. وظهور الفتن الخاصة بالخلافة والخلفاء، وتغلب الفرس والديلم والترك المسلمين على أكثر الممالك الإسلامية، وتجاذبهم أطرافها بالأيدي المسلحة والجيوش الجرَّارة، وقيام الدول وسقوطها بين عشية وضحاها، وما اقتضاه كل ذلك بين المسلمين من الاشتغال بالدِّين والسياسة، حصل كله في القرن الثالث وما يليه.

فأمَّا أنَّ المسلمين كانوا يعتزون بدينهم وهم في الوقت نفسه أهل عصبية وأصحاب مطامع، وكانت حياتهم متصلة بالدِّين والسياسة، وأنَّ المؤرخ السياسي أو الأدبي أو الاجتماعي يجب أن يجعل الدين والسياسة أساسًا لبحثه في أحوال العرب؛ فهذه الخصال

كانت لجميع شعوب العالم، فاليهود قد ظهروا باليهودية واعتزوا بها، واتصلت حياتهم بحياتها اتصالًا وثيقًا، وما خرجوا من مصر وتاهوا في شبه جزيرة طور سيناء، وفتحوا فلسطين، وتنقلوا في أدوار الاجتماع تحت حكم القضاء ثم الملوك إلا تحت تأثير الدِّين والسِّياسة. وما أصابهم ما أصابهم من التشتُّت والتفرُّق في الأرض، وما لقوه من الاضطهاد الشنيع والمذابح المنكَرة إلا بسبب دينهم وسياستهم؛ فالإسرائيليون يُعتبرون من هذه الوجهة مثلًا يُضرب في هذا الموطن.

والمسيحيون قد ظهروا بالمسيحية واعتزوا بها، واتصلت حياتهم بها اتصالًا محكمًا، وظلَّت أوروبا تحت السلطان المطلق لقادتها نحو ألف سنةٍ، ثم ظهرت البُرُتَسْتَانْتِيَّة ونَجَمَت بسببها الحروب الدينية قرونًا أخرى حتى القرن التاسع عشر.

ولا أريد أن أحدثك عن البَرَهْمِيَّة الهندية،[٢٧] والبُوذِيَّة[٢٨] التي نشأت إصلاحًا لها، والزَّرادشتية الفارسية[٢٩] والكُونفسيوسية[٣٠] الصينية، وغيرها؛ فكل هذه الأمم استوعبَ الدِّين منها كل جهودها، واتصل دينها بسياستها اتصالًا أكيدًا، وكان من أثره عليها ما تفيض به تواريخها اليوم.

يقول الدكتور طه حسين: «بدأ الجهاد بين النبي وقريش جدليًّا، ثم لَمَّا هاجر إلى المدينة ووجد له فيها أنصارًا، اعتمد الجهادُ على السيف، وتجاوز الخلاف كون الإسلام حقًّا أو باطلًا إلى النزاع على حُكم الأمة العربية أو القبائل الحجازية ومصير الطرق التجارية.»

ونحن نقول: هذا صحيحٌ؛ فقد بَدَأَ الجهاد بين النبي ﷺ وقريش جدليًّا، ثم لمّا اشتدت وطأة الاضطهاد على رسول الله ومن آمن من قومه فاضطُرَّ أكثرهم أن يُهاجروا إلى الحبشة فرارًا بدينهم، فزادت وطأة الاضطهاد شدةً حتّى أدت إلى تحالف قريش على مقاطعة المسلمين؛ فاضطروا للجلاء عن مكة وسُكْنَى بعض شعابها مدة عانوا أشد ضروب الحرمان. ثُمَّ عادت قريش إلى معاملتهم، فعادوا إلى دورهم، ولكنَّ الاضطهاد لم

[٢٧] ينظر: المعجم الوسيط [ب ر هـ م].

[٢٨] ينظر: المعجم الوسيط [ب و ذ].

[٢٩] ينظر: المنجد في الأدب والعلوم ص٢٣٣.

[٣٠] ينظر: المنجد في الأدب والعلوم ص٤٥٠. ووردت في الأصل بسينين، والمعروف بالشين والسين «كونفوشيوسية»، ولعل ذلك من اختلاف نطق الكلمة في اللغات الأجنبية.

ينقطع، ثم اتَّفق أن شَرَح الله صدر أهل المدينة وهم قبيلتا الأوس والخزرج القحطانيتان إلى الإسلام، ودَعَتَا النبي ﷺ ليقيم بين ظهرانيهم، واتفق أنَّ قريشًا كانت اتفقت على قتله، فتسلل هو وصاحبه متنكِّرَيْن حتى خرجا من مكة وتبعتهما قريشٌ، فلجآ إلى بعض الغِيران ثم تابعا سيرهما إلى المدينة فوصلاها سالمَيْن بعد أن لبث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو قومه فلا يجيبونه. فلمَّا آنس رسول الله من الأوس والخزرج قبولًا إلى تأييده بالقوى المسلحة دفعهم إلى الجهاد، فحدثت وقعة بدرٍ التي انتصرت فيها قبضةٌ من المسلمين عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا على جيش يُقدّر بنحو ألف مقاتل، وكان ذلك في سنة اثنتين[٣١] من الهجرة، ثُمَّ تلتها وقعة أُحدٍ التي انتصرت فيها قريشٌ على المسلمين، ولكنها لم توفَّق لأن تَستغل انتصارها بتعقُّبهم إلى المدينة واستئصالهم كما كان هذا غرضها من قبل.

وفي سنة أربع أو خمسٍ[٣٢] خرج أبو سفيان بن حرب قائد قريش في أربعة آلاف مقاتل وخرجت معه بنو سُلَيْمٍ وبنو أسدٍ وبنو غطفان وبنو مرة وبنو أشجع، فتم عددهم عشرة آلاف مقاتل، فأسرع النبي ﷺ بحفر خندقٍ حول المدينة وجعل عليه المقاتِلة، فعز على المتحالفين اقتحامه، واتفق أن هبَّت ريحٌ عاصفةٌ أضرت بمعسكرهم فاضطروا إلى رفع الحصار عن المدينة.

وفي سنة ست من الهجرة خرج النبي ﷺ في ألف وخمسمائة من أصحابه قاصدًا مكة معتمرًا،[٣٣] فاجتمعت قريشٌ في دار ندوتها وقررت منعهم من دخول مكة، وكان في استطاعة المسلمين أن يقتحموها عنوة ويُبيدوا قريشًا، فقد كان أدركهم الوهن بإسلام أكبر زعمائهم، [وأشار أهل الرأي بالصلح على أن يرجع ويعود من قابل][٣٤] فيقيم هو ومن معه بمكة ثلاثًا عليهم سلاح الراكب السيوفُ وفي القُرُب والقِسِيُّ[٣٥] وأن توضع الحرب بينهم عشر سنين، وأن يأمن بعضهم بعضًا.

---

[٣١] في الأصل: «سنة ثلاث» والصواب ما أثبت. ينظر: نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، للشيخ رفاعة الطهطاوي، ط قصور الثقافة، القاهرة، سلسلة الذخائر، ع١٥١، ص٢١٧.

[٣٢] ينظر: المرجع السابق ص٢٧٢، ٢٧٣.

[٣٣] ينظر: نهاية الإيجاز ص٣٠٩ وما بعدها.

[٣٤] ما بين المعقوفتين زيادة من نهاية الإيجاز ص٣١٣، ليستقيم الأسلوب والمعنى.

[٣٥] القُرُب جمع قراب، وهو غمد السيف، والقِسِيُّ جمع قوسٍ.

قفل النبي ﷺ راجعًا إلى المدينة راضيًا بهذه المعاهدة التي عدَّها جمهور أصحابه مهينةً لهم ومُزريةً بكرامتهم مع قدرتهم على سحق عدوهم والفراغ منه نهائيًّا. فكان من ثمرتها أن اختلط المشركون بالمسلمين؛ إذ جاء الأولون إلى المدينة لقضاء بعض مصالحهم، وذهب الآخرون إلى مكة لمثل ذلك، فتعارف الطرفان، ورأت قريشٌ من أمر المسلمين ما كانت لا تتوهمه؛ فدخل كثير من زعمائهم في الإسلام، كعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما. واعتزم كثيرٌ ممن بقي قبول الإسلام دينًا لهم عند سنوح الفرصة. فحدث أنَّ بعض حلفاء قريش[٣٦] تعدوا على بعض حلفاء[٣٧] رسول الله؛ فعدها النبي ﷺ نقضًا للمعاهدة، واعتزم غزو مكة؛ فبلغ ذلك قريشًا، فهالها الأمر لتحقُّقها من عجزها عن مقاومة المسلمين؛ فأرسلت زعيمها أبا سفيان إلى المدينة ليرجو رسول الله ﷺ أن يغضي عمَّا حدث ويمد في أجل الهدنة، فلم يقبل، فتوسل بكثيرٍ من كبراء المسلمين فلم يقبلوا التوسط. فآب إلى قومه فأخبرهم فاضطربوا وهلعوا لهذا الأمر، وما هي إلا أيامٌ حتى خرج النبي ﷺ على رأس عشرة آلاف مقاتل من رجاله، فوجه خالد بن الوليد — الذي كان قبل قليل قائدًا من أكبر قواد قريش الوثنية — على رأس فرقة من الفرسان لاقتحام مكة من أسفلها، وأمر الزبير بن العوام أن يدخلها برجاله من كداءٍ[٣٨] فلما وصل خالدٌ إلى أسفل مكة وهَمَّ بدخولها اعترضه قومٌ من بني بكر وبني الحارث بن عبد مناف وناسٌ من هذيل كانت استنصرت بهم قريشٌ، فقاتلهم خالدٌ وقتل من بني بكر نحو أربعة وعشرين، ومن هذيل أربعة؛ فانهزموا، وتحصنت طائفةٌ منهم بالجبال، وتبعهم المسلمون فصاح حكيم بن حزامٍ[٣٩] وأبو سفيان: يا معشر قريش، علامَ تقتلون أنفسكم؟! من دخل داره فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن. فجعلوا يقتحمون الدور ويغلقونها عليهم.

أما أبو سفيان هذا فقد كان خرج يتجسس أخبار الجيش القادم، فقبض عليه بعض الحرس، وأوفده للنبي ﷺ فأسلم قبل وصول رسول الله إلى مكة.

[٣٦] هم بنو بكر.

[٣٧] هم خزاعة: ينظر: نهاية الإيجاز ص٣٥١ وما بعدها.

[٣٨] «كسَمَاء: اسم لعَرَفاتٍ، أو جبل بأعلى مكة. ودخل النبي ﷺ مكة منه.» [القاموس: ك د ا].

[٣٩] ينظر في ترجمته ومقالته هنا، الأعلام للزركلي ج٢ ص٢٦٩.

فلمَّا تَمَّ الفتح أخذ الناس يدخلون في الإسلام أفواجًا، وأمر النبي بهدم الأصنام التي كانت بالبيت [الحرام]، وكاد هذا الفتح يكون مفضيًا إلى خضوع جميع المشركين لولا أنَّ بني هوازن دفعتها الحماسة الجاهلية لمقاومة هذا التيار الإسلامي الجارف؛ فحشدت من رجالها نحو عشرين ألف مقاتل، وسارت بهم لمهاجمة المسلمين، فلقيها النبي ﷺ بجيشه الذي فتح به مكة فهزمهم بعد قتالٍ عنيفٍ، واستولى على جميع ما كان لهم؛ وبذلك انتهت كل مقاومة من المشركين، وأصبحت بلاد العرب كلها إسلامية طوعًا وكرهًا.

فأنت ترى من هذا البيان أنَّ قريشًا لم تُقاتل النبي ﷺ قتالًا جديًّا يصح أن يستنتج منه أنَّه كان تناحرًا بين طائفتين لنصر دينٍ على دينٍ أو لضمان سلامة طريق تجارية ضروريةٍ لحياة إحدى الجماعتين. فغزوة بدرٍ حدثت بسبب ما أُشيع من أنَّ المسلمين استولوا على تجارة قريش فخرجت فرقة تقدر بألف رجل لاستردادها، وغزوة أُحد شنَّها المشركون للأخذ بثأر من قُتِلَ منهم في بدر، وعزوة الخندق كانت بإغراء نفر من اليهود، منهم سلام بن مِشْكَم وابن أبي الحقيق، وحُيي بن أخطب،[٤٠] خرجوا من خيبر،[٤١] وقدموا مكة، وحرضوا قريشًا على غزو المدينة واستئصال شأفة المسلمين فيها، وتعهَّدوا أنْ ينضم اليهود إليهم، فلبت قريش دعوتهم وقصدوا المدينة في نحو عشرة آلاف مقاتل كما قدمنا، فلما حاصروا المدينة ووجدوا الخندق حولها وخرجت عليهم العاصفة؛ اتخذوا هذه الحادثة عذرًا لعودتهم بدون قتال. ولم تُبدِ قريش بعد هذه الرُّجْعَى أقل حركة لمحاربة المسلمين، ولم يؤثَر عنها في تلك الوقائع الثلاث الماضية مثل ما يُؤثر عن الطوائف الموتورة في دينها ودنياها من غليان الصدور بالسَّخائم،[٤٢] واضطرام النفوس بالضغائن، وإبلاغ الحرب إلى أقصى شدتها، والذهاب بالصبر والثبات إلى مثل ما يُروَى عن المُستبسلين والمُستميتين في الدفاع عن وجودهم. سمعنا أنَّ قريشًا استنفرت بعض من حولها من العرب للحرب ليعينوها على الأخذ بالثأر أو لنصرة أوثانها ومعبوداتها، ولكنَّا لم نسمع قط أنَّها استنفرت البعيدين عنها كما يفعل الذين تلتهب في قلوبهم نيران الحمية، ولم تذكِّرهم بضرورة تأمين الطرق التجارية، ولم ينقل إلينا أنَّها قامت بنشر دعوةٍ حارَّةٍ ضد المسلمين تصلح لجمع كتلةٍ من المُحارِبة تتمكن بهم من عمل شيءٍ جِدِّيٍّ؛

[٤٠] ينظر: نهاية الإيجاز ص٢٧٣.

[٤١] «خيبر: حصنٌ قرب المدينة» القاموس [خ ب ر].

[٤٢] جمع سخيمة، وهي الحقد، والغيظ …

ذلك لأنَّها لم تكن من العرب على ما وصفها به الدكتور طه حسين، ولم يكن لانقطاع الطرق الاقتصادية في نظرها كبير خطرٍ يدفعها للاستماتة في الدفاع عنها.

لقد كانت بلاد العرب كلها في عهد الجاهلية أشبه بدار حرب؛ فتجارة قريش على تفاهة قدرها وتجارات غيرها من القبائل، كانت في حاجة إلى الحماية سواء كان طريقها ساحل البحر الأحمر أو العراق.

أليس يدل هذا الفتور من قريش — في حرب رسول الله ﷺ وعجزها عن جمع أكثر من عشرة آلاف من العرب المحالفين لها — على أنَّها لم تكن كما يقول الدكتور طه حسين منيعة الحوزة، عزيزة الجانب، تحدث نفسها بجمع كلمة العرب لتكوين دولة وثنية مستقلة تطرد الأجانب من بلادها؟

ثم ألا يدل عدم اجتماع العرب على محاربة رسول الله ﷺ — وهو يُسفِّه أحلامهم ويسب أصنامهم، ويتوعدهم بالفناء — على أنَّهم كانوا منصرفين عن أمور دينهم ودنياهم، وقانعين من العيش بما هم فيه من التناهب والتناحر، ومن الاجتماع بما هم عليه من التنافر والتدابر، على مثال الوحوش الهامجة،[٤٣] والكواسر الهائمة؟

ألا يدل تمكُّن رسول الله ﷺ من ناصية الأمة العربية كلها، حاضرها وباديها، عدنانيها وقحطانيها، بواسطة قبضةٍ من رجالٍ ذوي إيمانٍ صحيح — على أنَّ هذه الأمة كانت لحمًا على وضمٍ، وأنَّها كانت من الانحلال وتفكُّك الأوصال وقلة المبالاة بدينها ودنياها بحيث لا تُضْرَب ضربتين أو ثلاث ضربات حتى تَتَخَذَّى[٤٤] صاغرةً، وتستكين خاضعةً؟

يقول الدكتور طه حسين: «وهذا أدَّى إلى نشوء عداوة بين قريش وأهل المدينة واصطبغت هذه العداوة بالدّم يوم انتصر الأنصار على قريش في بدر. ومضت قريشٌ في جهادها ولكنَّها كُسرت في آخر الأمر؛ فنظر زعيمها وحازمها أبو سفيان في الأمر، فرأى أن يُصانع ويُصالح ويَدخل فيما دخل فيه النَّاس، لعل هذا السلطان السياسي الذي انتقل من مكة إلى المدينة ومن قريش إلى الأنصار أن يعود إلى قريش وإلى مكة مرةً أخرى.»

---

[٤٣] الهامج: الشيء يترك لا نظام له، يموج بعضه في بعض. اللسان، والمعجم الوسيط [هـ م ج].

[٤٤] من الاستخذاء؛ وهو الخضوع والذل.

ونحن نقول: أمَّا نشوء عداوة بين قريش وأهل المدينة فصحيحٌ، وسببها نصرتهم للنبي ﷺ، أما قوله: «واصطبغت هذه العداوة بالدَّم يوم انتصر الأنصار على قريش في بدر.» فكلامٌ إن ساغ من ناحيةٍ كتابيةٍ شعريةٍ فلا يسوغ من وجهة اجتماعية علمية تتطلب تتبُّع الأسباب والعلل، وعزو الحوادث إلى عواملها الحقيقية. والحقُّ أنَّ الذي انتصر في بدر هي قريشٌ المسلمة على قريش الوثنية، وأما الأنصار فكان مكانهم في هذه الحوادث مكان المُعِين المالئ ليس غير. أترى لو قمعت فرنسا فتنة الدروز[٤٥] بجنود مغربية أو أرمنيَّة أو سنغالية يصح أن يُقال انتصر المغاربة أو السنغاليون أو الأرمنِّيُّون على الدروز، في حين أنَّ الحرب كانت لمصلحة فرنسا، والروح التي تحركها روح فرنسا، والغرض من إشعال نيرانها تأييد مزاعم فرنسا في تلك البلاد؟

فإذا صح لقريش أنْ تحقِدَ فلتحقد على أبنائها محمدٍ وأصحابه الذين كفروا بآلهتها، وانفصلوا عن جامعتها، وأخذوا بديانةٍ غير ديانتها، وانتهجوا في الحياة طريقةً غير طريقتها، وأغروا أصدقاءها على عداوتها.

هذا ما يقتضيه علم الاجتماع الذي يربط العلل بمعلولاتها، والأسباب بمسبباتها، وإلا فقد كان الأوس والخزرج في غفلةٍ عن الإسلام، وفي غنًى عن عداوة قريش، ولولا محمدٌ وأصحابه لبقُوا على ما كانوا عليه ما شاء الله أن يبقوا؛ فالروح المدبِّر لهذا الأمر هي قريش المسلمة لا أهل المدينة ولا غيرهم ممن يلتحق بالمسلمين ويفنى فيهم.

ولكن الدكتور طه حسين رتَّب هذه المقدِّمات وتَسَامح في دَرْس علل هذه الحوادث على الأسلوب العلمي، وخالف العُرْفَ وطبيعة الأشياء لخدمة غرضٍ أدبي محضٍ هو تعليل الاختلاق في الشعر الجاهلي. فكان مَثَلُه كمن يُشعل مدينة برمتها ليأخذ منها قبسًا! وليس هذا من العمل الصالح في شيء.

أما قوله: «فنظر زعيمها وحازمها أبو سفيان في الأمر فرأى أن يصانع ويدخل فيما دخل فيه النَّاس لعلَّ هذا السلطان السياسيَّ الذي انتقل من مكة إلى المدينة، ومن قريش إلى الأنصار أن يعود إلى قريش وإلى مكة مرة أخرى.» فهو كلامٌ خالٍ من التحقيق العلمي، ومتسامَحٌ فيه كل التَّسامح. فإنَّ أبا سفيان هذا الذي يصفه الدكتور طه حسين

---

[٤٥] جمع الدرزية، وهم طائفة من الإسماعيلية يقدِّسون الحاكم بأمر الله الفاطمي، ينسبون إلى أبي محمد عبد الله الدَّرَزي. ينظر: المعجم الوسيط، والمنجد في الأدب والعلوم [د ر ز].

بالحزم وبُعد النظر كان بعد إسلامه يعمل على الإجهاز على ما بقي من آمال قريش الوثنية وعلى تأييد قريشٍ المسلمة. فقد شهد حرب الطائف مع رسول الله ﷺ، وأبلى في قتال أهلها بلاءً حسنًا حتى فُقِئَتْ إحدى عينيه، ثم وجهه النبي ﷺ لهدم صنم بني ثقيفٍ، وقد لزم الانقياد حتى انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى، وحافظ على إخلاصه مدة أبي بكر، ولما تولَّى عمر الخلافة وجَّهه إلى اليرموك لقتال من هنالك من مُتنصِّرة العرب ووثنيِّيهم، فأبلى أحسن بلاء فيها حتى فُقِئت عينه الثانية، فبقي كفيف البصر بقية مدة عمر وشَطرًا من خلافة عثمان، لم يلاحَظ عليه غير الطاعة والولاء حتى تُوفِّي. فلو كان أبو سفيان هذا يطوف برأسه مثل تلك الأحلام لالتجأ قبل سقوط مكة مع طائفةٍ من كرامٍ رجاله إلى بعض القبائل التي كانت لا تزال على الوثنية كقبيلة هوازن مثلًا كما يفعل القادة الذين يُكافحون لتأييد المبادئ العالية، بل كما يفعل القادة من ذوي الخبرة الحربية، لا سيما وقد أصرت قبيلة هوازن على وثنيتها وجمعت للنبي ﷺ بعد فتح مكة جيشًا جرارًا قُدِّر بعشرين وبثلاثين ألف مقاتل، ودفعت بهم لمحاربته، فحدثت وقعة حُنينٍ[٤٦] المشهورة التي اعتبرت من أشدِّ الوقائع هولًا؛ إذ انكشف فيها المسلمون في أول صدمة، وكاد الأمر يُفضي إلى هزيمة منكرة لولا كَرَّةٌ صادقةٌ كرَّها أهل السابقات الحسنة في ذلك اليوم.

أما وقد استسلم أبو سفيان ودخل فيما دخل فيه النَّاس، وقام بهدم بعض الأصنام بأمر النبي ﷺ، وحارب معه ومع خلفائه أعداء الإسلام، وعرَّض نفسه للهلكة في هذا السبيل حتى فقد عينيه؛ فلا يصح أنْ يُقال عنه إنَّه كان حازم قريش ورجلها الفذ، وإنَّه كان ينتظر أن يعود لقريشٍ الوثنية مجدها القديم. أي مجدٍ يصح أن يتمنى عوده وهو نفسه يعمل على تقويضه وإزالة معالمه معطيًا بذلك أسوأ الأمثال لكل من كان دونه؟!

يقول الدكتور طه حسين: «كان أبو سفيان هذا يرجو أن يعود السلطان السياسيُّ إلى قريش بعد أن انتقل منهم إلى الأنصار.»

ونحن نقول: إنَّ السلطان السياسي في عهد الإسلام لم يكن لقريش ولا للأنصار بل كان للمسلمين كافة بمن فيهم من الأجانب عن العرب؛ لأنَّ الإسلام مَحَقَ الجنسيات

[٤٦] كانت في نهاية السنة الثامنة من الهجرة. وفي تاريخها وأحداثها انظر: نهاية الإيجاز ص٣٦٩ وما بعدها.

وعَفَّى على آثارها. فلو فرضنا أن أبا سفيان بعد إسلامه كان لا يزال يستبطن الوثنية، ويكره الإسلام، ويرى وجود شيءٍ اسمه قريش، أفما كان يرى أنَّ قريشًا قد أسلمت على بكرة أبيها وتولَّت نشر الدين الجديد بتحطيم الأصنام وإجبار العرب بالسيف على الإسلام؟ فأي قريشٍ كان يُريد أن ينتقل إليها ذلك السلطان السياسيُّ؟! أولئك العامَّة المستضعفين الذين بقوا في مكة بعد الفتح، أم أولئك الرجال الكبار والقادة المحنكين أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعليٍّ وأبي عُبيدة وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقَّاص وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وابني أبي سفيان يزيد ومعاوية ... إلخ إلخ من القرشيين الذي كانوا بالمدينة يديرون ذلك السلطان الإسلامي ويعملون بأنفسهم وأموالهم على تقوية شوكته وإعلاء كلمته؟

إنْ كان أبو سفيان يعني بقريش أولئك الذين كانوا في مكة فقد كان أولئك مستضعفين، جُلُّهُمْ رعاةٌ وأجراء لا في العير ولا في النفير، وأما إن كان يعني بهم رجالها الأعلَيْن، وصناديدها المعدودين، وقُوَّادها المحنكين، فأولئك انتقلوا كلهم قبل الفتح وبعده إلى المدينة وتولوا تدبيرَ أمر الإسلام والمسلمين تحت إشراف النبي ﷺ، فكان منهم قادة الجيوش، وأمراء السرايا، ورؤساء البعوث، والسفراء إلى القبائل، والدعاة للدين، والولاة على الأقاليم. قلنا: أما إنْ كان أبو سفيان يعنى بقريش هؤلاء وهم زهرة قريش بل الذين لولاهم لما كانت قريشٌ قريشًا؛ فإنَّ عَوْدَهم للكفر أمرٌ لا يطوف بخيال إنسان يُعتدُّ بعقله.

يقول الدكتور طه حسين: «لم يكد النبي يدع هذه الدنيا حتى اختلف المهاجرون والأنصار في الخلافة، وكاد الأمر يفسد بين الفريقين لولا بقيةٌ من دين، وحزم نفر من قريش، ولولا أنَّ القوة المادية كانت إذ ذاك إلى قريش، فأذعنت الأنصار، وانصرفت قوى الجميع إلى ما كان من انتقاض العرب على المسلمين أيام أبي بكر وإلى ما كان من الفتوح أيام عمر، ولكن المقيمين من أولئك وهؤلاء في مكة والمدينة لم يكونوا يستطيعون أن ينسوا تلك الخصومة العنيفة التي كانت بينهم أيام النبي، ولا تلك الدماء التي سُفِكَتْ في الغزوات، وقد حال حزم عمر بين قريش والأنصار وبين الفتنة؛ فقد نهى عن رواية الشعر الذي كان يتهاجى به المسلمون والمشركون أيَّام النبي، وقد كانت قريشٌ والأنصار يتذاكرون ما كان قد هجا به بعضهم بعضًا أيام النبي، وكانوا حراصًا على روايته يجدون في ذلك من اللذة والشماتة ما لا يشعر به إلا صاحب العصبية القوية.»

ونحن نقول: لَمَّا تُوفي النبي ﷺ اجتمع نفرٌ من الأنصار وتذاكروا في مصير أمر المسلمين وشرعوا في إقامة أميرٍ منهم، فسمع بذلك أبو بكر وعمر فأسرعا إليهم في نفرٍ من قريش وتداولوا الكلام في أمر خلافة النبي ﷺ، وأدلى كل فريق بحجته، فاقتنع الأنصار بصحة رأي المهاجرين، وبايعوا أبا بكر بالخلافة مجمعين إلا سعد بن عبادة سيد الخزرج فلم يبايع حتى مات؛ فتخلى عنه قومه ولم يرفع واحدٌ منهم بخلافه رأسًا.

يقول الدكتور طه حسين: «وكاد الأمر يفسد بين الفريقين لولا بقيةٌ من دين، وحزم نفرٍ من قريش، ولولا أنَّ القوة المادية كانت إذ ذاك لقريشٍ.»

فأما قوله: «كاد الأمر يفسد بين الفريقين لولا دينٌ وحزم» فصحيح، وكفى بقوم فضلًا ونبلًا أن يخضع فريق لرأي فريق بوازع من الدين والحزم. هذا كل ما ينتظر من فريقٍ كريمٍ وليس بعدُ مذهبٌ لمستزيدٍ.

وأما قوله: «ولولا أنَّ القوة المادية كانت إذ ذاك إلى قريش» فغير صحيح؛ فإنَّ القوة المادية كانت للأنصار جاهليةً وإسلامًا، ودليلُنا المادي على ذلك أنَّ النبي ﷺ، كَسَر بهم قريشًا ومن شايع قريشًا من القبائل. وهذا التفوق في القوة بعد وفاة النبي ﷺ كان مسلَّمًا به عند الكافة حتى نوَّه به الحباب بن المنذر الأنصاري في مؤتمر السقيفة؛ فقال كما رواه ابن قتيبة في كتاب الإمامة والسياسة: «يا معشر الأنصار املِكوا عليكم أيديكم؛ فإنَّما الناس في فيئكم وظلالكم، ولن يجير مجيرٌ على خلافكم، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم. أنتم أهل العز والثروة وأولو العدد والنجدة، وإنَّما ينظر الناس إلى ما تصنعون؛ فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم، وتقطع أموركم. أنتم أهل الإيواء والنُّصرة، وإليكم كانت الهجرة، ولكم في السابقين الأولين مثل ما لهم. وأنتم أصحاب الدار والإيمان من قبلهم. واللهِ ما عبدوا الله علانيةً إلا في بلادكم، ولا جُمِعَتِ الصلاة إلا في مساجدكم، ولا دانت العرب للإسلام إلا بأسيافكم.»[٤٧]

فإن قيل: إنَّ نصَّ هذه الخطبة يُمكن أن يكون مختلقًا، قلنا: ونحن نُرجِّح أنَّه مُخْتَلَقٌ. ولكن الرواة اعتادوا في اختلاق الأخبار والخطب أن يتحرَّوا من الأمور ما لا يناقض ما يعرفه الجمهور؛ فلولا أنَّ النَّاس يعرفون بالبداهة أنَّ القوة والمنعة والعدد

[٤٧] ينظر: الإمامة والسياسة ج١ ص٧، مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

كان للأنصار دون المهاجرين لما تجارءوا على اختلاق ذلك؛ حذرًا من تعريض روايتهم للشكوك والرِّيَب.[٤٨]

يقول الدكتور طه حسين: «ولكن المقيمين من المهاجرين والأنصار في مكة والمدينة لم يكونوا يستطيعون أن ينسَوْا تلك الخصومة العنيفة التي كانت بينهم أيام النبي، ولا تلك الدماء التي سُفِكَتْ في الغزوات، وقد حال حزم عمر بين قريش والأنصار وبين الفتنة ...» إلخ إلخ.

ونحن نقول: إنَّ الذين كانوا يُقيمون في مكة والمدينة مع النساء والمستضعفين في أيام تدويخ[٤٩] العرب الذين ارتدوا عن الإسلام وانتقضوا على المسلمين، وفي أيام الفتوحات العُمَرِيَّة، كانوا إما عجزة لا يستطيعون ضربًا في الأرض، وإما من حثالة الناس الذين لا تُرجى منهم فائدةٌ، ولا تُنتظر منهم نجدةٌ، ومثل هؤلاء لا تخلو منهم أمةٌ، ولا يكون لهم من عملٍ في ساعات فراغهم إلا ما يُناسب مداركهم من ذكر العصبية، والتلاهي بالمحظورات الدينية. فهؤلاء هم الذين كانوا يُنشِدون الأشعار التي تَهَاجَى بها المهاجرون والأنصار، ويجدون في روايتها لَذَّةً، بينما كان هؤلاء المهاجرون والأنصار متآخين في الله يُجاهدون في سبيله كتفًا لكتفٍ، ويشاطر بعضهم بعضًا السَّراء والضراء في ميادين الشرف، يبنون صرح دولةٍ قُدِّر لها أن تملك من الأقطار ما لم يُسمع مثله لدولة قبلها؛ لتكون واسطة بين العالم وبين العلم والمدنية التي ستئول إليها خلافتهما دون سواها من الأمم.

فأولئك القاعدون في أكسار[٥٠] دورهم يتناشدون الأشعار التي كان يتَهَاجَى بها المسلمون والكافرون، كانوا نُفاية ذينك الفريقين الكريمين: المهاجرين والأنصار، وكان حظهم من الدِّين أنَّهم أُجبِروا عليه إجبارًا فلا يزالون يحنُّون إلى جاهليتهم الأولى، ولكنَّهم كانوا من سقوط القيمة بحيث لم يُؤثِّر ما كانوا فيه من عمل الجاهلية في تلك الوحدة الوثيقة العُرَى التي عجزت كل عوامل التحليل عن العدوان عليها حتى أدَّت ما انْتُدِبَتْ له من إقامة تلك الدولة الفتية التي كان من ثمرة قيامها ذلك الخير العام الذي غمر العالم

[٤٨] جمع ريبة، وهي الظن والشك والتهمة، المعجم الوسيط [ر ي ب].

[٤٩] دوَّخه: أذلَّه، والبلاد: استولى على أهلها. القاموس المحيط [د و خ] بتصرف.

[٥٠] جمع كَسر، وهو جانب البيت. القاموس [ك س ر].

كافة. فلا يصح أن يقوم الدكتور طه حسين بعد ألف وثلاثمائة سنة فيلتقط من هنا وهناك حكايات أولئك العاطلين — وأكثرها مُختَلَقٌ موضوعٌ — ليثبت بها وَهْنَ روابط ذلك المجتمع الكريم بعد أن أثبت ذلك المجتمع نفسه — بثباته واستمراره ووفائه بما أخذه على نفسه — أنَّه كان كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا!

وقد حدثت فتنٌ بين الحنابلة والشافعية، وبين هؤلاء والأحناف في أمصارٍ كثيرة — حتى في الجامع الأزهر — أدت إلى التقاتُل والتناحُر، فهل يصح أن يُقال — استنادًا على فعل بعض المتعصبة الأغرار: إنَّ بين أصحاب المذاهب الفقهية الإسلامية حَزازاتٍ، أو أنَّ هذه المذاهب قد أوجدت بين المسلمين الشقاق؟

لا، لا يصح ذلك؛ لأنَّ الذي قام بتلك السَّفاسف حثالةٌ أغمار[٥١] لا تتخذ أعمالهم حجة على الجماعات التي ينتمون إليها.

يقول الدكتور طه حسين: «وقد حال عزم عمر بين قريش والأنصار وبين الفتنة؛ فقد نهى عن رواية الشعر الذي كان يتهاجى به المسلمون والمشركون أيام النبي.»

ونحن نقول: وقد قُتل عُمر؛ فَلِمَ لَمْ تقع الفتنة بين قريش والأنصار؟ ثم قُتل عثمان؛ فَلِمَ لم تقع الفتنة بين قريش والأنصار؟ ثم قُتل علي؛ فَلِمَ لَمْ تقع الفتنة بين قريش والأنصار؟! هنا يمكن أن يُقال: لم تقع الفتنة بفضل بقية دينٍ وحزمٍ. نقول: هذا كلام ليس من العلم في شيء، بل هو من الشِّعر العريق في الخيال؛ فإنَّ الذي شُوهِد في تاريخ الطوائف أنَّ مصالحها متى تصادمت، أو شعرت واحدةٌ منها بأنَّ حقوقها قد هضمت؛ عَدَّت من الدين ومن الحزم أن تطالب بحقها المهضوم وشرفها المثلوم،[٥٢] وهبت لا يثنيها شيءٌ عن الكفاح. فالثورة التي قام بها الناس وقتلوا فيها عثمان عدها ذووها من الدِّين والحزم، واقتتال معاوية وعليّ وذهاب حياة الألوف المؤلَّفة هدرًا فيها عدَّها الطرفان من الدِّين والحزم، والحربُ الضروس التي شبَّت بين شيعة عائشة وطلحة، وبين أصحاب عليّ عدَّها الخصمان من الدِّين والحزم، والتناحر الهائل الذي حصل بين علي والخوارج

[٥١] جمع غَمْرٍ، وهو من لم يجرب الأمور؛ أي لا خبرة له.

[٥٢] أي المستباح المنتهك.

اعتبرته الطائفتان من الدّين والحزم؛[53] فالدِّين والحزم حجة كل مُعتدٍ ومُعتدًى عليه؛ فهل كان دين الأنصار وحزمهم من نوعٍ أرقى من دين وحزم كل طائفة في الأرض؟ هب أنَّهما كانا كذلك أَفَيُعْقَل أنَّهما كانا يمنعانهم أن يقفوا لتأييد حقهم المهضوم موقفَ الرجال في ميدان الطعن والنزال، وفي الوقت نفسه يسمحان لهم أن يتسفَّلوا إلى حضيض الرُّذَّال، فيتهاجوا[54] بالأشعار، ويتطاعنون بما لا يُؤَثِّر إلا على خيال الأطفال؟!

لا، لا، هذا ليس بمعقول، بل المعقول أنَّ الأنصار لم يخضعوا لرأي المهاجرين إلا مقتنعين بأنَّهم على صواب، وأنَّهم لم يجدوا في صدورهم حَرَجًا من قصر الإمارة على قريش، وإلا لتمحَّلوا ألف عذرٍ لامتلاخ[55] حقهم من أيدي خصومهم المتغلبين، باسم الحزم والدِّين، كما فعلت كل الطوائف في العالمين.

سلَّم الأنصار لحجة القرشيين يوم انتخاب الخليفة، ولكن ما لبث هذا الخليفة أيامًا حتى ارتدَّت القبائل التي كانت أسلمت على عهد النبي ﷺ، وطردت جباة[56] الأموال، واضطر أبو بكر لبثِّ جنوده وقُوَّادِهِ في جميع أرجاء بلاد العرب لقمع هذه الفتن؛ فكان الأنصار — لو كانوا موتورين — يستطيعون في هذا الوقت أن يتذرعوا للثورة على القرشيين بحجة أن حكومتهم — بسوء سياستها — ردَّت العرب مشركين.

احتُضر أبو بكر، فاستأذن المسلمين في أن يعهد بالخلافة إلى عمر، فقبلوا منه ذلك كارهين؛ لشدةٍ كانوا يعرفونها في أبي حفصٍ، فكان هذا الظرف فرصة سانحةً لأن يثور الأنصار مطالبين بحقوقهم، ولكنهم لم يفعلوا فلبثوا موالين.

ثم قتل عمر، فاضطرب لذلك المسلمون وزُلْزِلُوا زلزالًا شديدًا؛ فكانت هذه نُهْزَةً[57] للأنصار يَهُبُّون فيها للخلاص من نير القُرشيين، ولكنَّهم لبثوا كما كانوا مخلصين وادعين.

---

[53] يراجع في كل ذلك وما يأتي كتاب «العواصم من القواصم» لأبي بكر بن العربي، تحقيق وتعليق: محب الدين الخطيب، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

[54] أي يهجو بعضهم بعضًا. وفي الأصل «فيتهاجون ... ويتطاعنون» بالرفع.

[55] امتلخ الشيء: استله واجتذبه.

[56] أي جامعي الأموال، جمع جابٍ.

[57] النهزة كالفرصة وزنًا ومعنى، الجمع: نُهَز.

ثم تولَّى عثمان فساءت الأحوال في زمنه، واضطربت الأمور من تغلُّب المتعصبة من قرابته عليه، وجاءت جنود الأقاليم تُحاصره في داره مطالبة إياه بعزل مستشاره وتسليمه إليهم أو التنازل عن الخلافة، فلمَّا لم يفعل هذا ولا ذاك اقتحموا عليه قصره وقتلوه. وكان هذا الظرف من الاضطراب مناسبًا لثورة الأنصار المظلومين ... ولكنَّهم لم يفعلوا ولبثوا مستسلمين.

ثم تولى عليٌّ وخرج عليه معاوية بالشام، وطلحة والزبير وعائشة بالعراق، والخوارج بمختلف الجهات، وكانت هذه الاضطرابات من أحسن الفرص للثورة على الغاصبين، ولكنَّهم لم يفعلوا فمكثوا هادئين.

ثم قُتِلَ علي واشتدت شوكة معاوية، واغتصب الخلافة، ونقل عاصمة الملك إلى دمشق، وكانت هذه الفرصة أولى من جميع الفرص السابقة بانتصاف المظلومين، ولكنَّ الأنصار بقوا ساكنين.

نعم ثار الأنصار والمهاجرون على يزيد بن معاوية، ولكن كانت يدهم في يد المهاجرين، وما ثارت الطائفتان إلا تذمرًا من أن يَلِيَ الخلافة رجلٌ ليس من أهلها الصالحين.

أفلا يدل كل هذا على أنَّ الأنصار لم يكونوا قَطُّ ناقمين على المهاجرين، وإلا فإنَّ الدِّين والحزم اللَّذَيْن يحدثنا عنهما الدكتور طه حسين كانا لدى الأنصار من نوعٍ غير النوع الذي عهدناه عند جميع الطوائف، وأنَّهم هم أنفسهم كانوا من نوع غير النَّوع الإنساني؛ فهلا منعهم هذا الامتياز الرفيع من التلذُّذ بإنشاد الشعر الذي فيه سَبٌّ للقرشيين؟ إنْ صَح ذلك فما أوْلاهم بقول قُرَيْط بن أنيف العنبري[٥٨] إذ قال يَنْعَى على بني العنبر تسامحهم في حقوقهم [من البسيط]:

لَكِنَّ قَومِي وإنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ ... لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا
يَجْزُونَ مِنْ ظُلْمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً ... وَمِن إِسَاءَةِ أَهلِ السُّوءِ إِحْسَانا

[٥٨] تُنظر الأبيات في شرح ديوان حماسة أبي تمام للمرزوقي، ت أحمد أمين وعبد السلام هارون، ط دار الجيل بيروت، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج١، ص٣٠، ٣١.

كَـأَنَّ رَبَّـكَ لَـمْ يَـخْـلُـق لِـطَـاعَـتِـهِ سِوَاهُـمُ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ إِنْسَانا

ولكن مع هذا الفارق وهو أنَّ قوم قُرَيط بن أنيفٍ كانوا يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً، ولكنَّ الأنصار على ما يقول الدكتور طه حسين: كانوا يظهرون الإخلاص ويبطنون في صدورهم نارًا تلظى من الحقد على قريش …

كلَّا … لو كان الأنصار يرون أنَّهم قد هُضمت حقوقهم، وغُلبوا على أمرهم لَمَلَأ الحقد على قريش قلوبهم، ولوجدت لهم في كل مشكلة خلافًا، وفي كل فتنةٍ إصبعًا، وفي كل دورٍ من الانتقال استعصاءً. وإذ لم يحدث منهم شيءٌ مما ذكرناه — وهي العلامات الدالة على حالات النفوس — فلا يصح أن يُحمَّلوا هم وقريش تبعة ما كان يأتيه بعض الزَّعَانِفِ من كلتا الطائفتين!

يقول الدكتور طه حسين: «إنَّ عُمر رأى حسَّانًا في المسجد ينشد طائفةً من المسلمين فأخذ بأذنه وقال: أرغاء كرغاء البعير؟! …» إلخ إلخ.

ونحن نقول: إنَّ الدكتور فسَّر هذه الرواية بأنَّ الأنصار كانوا موتورين فكانوا يتعزَّون بانتصافهم من قريش قبل موت النبي، وعمر تَكْرَه عصبيته أن تُزدرَى قريشٌ. وهذا التفسير في نظرنا غير وجيهٍ ولا ينطبق على نفسية الصحابة في ذلك العهد، تلك النفسية التي يدل عليها تضامنهم الوثيق في كل أمر. وعندنا أنَّ تفسيره ما سنذكره؛ وهو أنَّ الصحابة كانوا يكرهون الشعر ويعدونه من الملهيات؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩] أي: ولا يصح أن نعلمه إياه لحقارته [أي الشعر] بالنسبة لمنصبه ﷺ، ولقوله تعالى أيضًا: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤–٢٢٦]. حتى إنَّ لبيدًا صاحب المعلقة ترك الشِّعر في الإسلام، وحذا حذوه ناسٌ كثيرون، وقد رُوي أنَّ النبي ﷺ قال: «لأنْ يمتلئ صدر أحدكم قيحًا خيرٌ له من أن يمتلئ شعرًا.»[٥٩] ولا شكَّ في أنَّ المذموم هو الشعر المحظور؛ كقصائد الهجاء والمجون، فعمر بن الخطاب كجميع الصحابة يكره

[٥٩] ورد في صحيح البخاري برواية: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا خيرٌ له من أن يمتلئ شعرًا.» رقم: ٦١٥٤.

أن يتلهَّى النَّاس بسفاسف[٦٠] الأمور، فلما سمع حسانًا يُرغِي كإرغاء البعير في المسجد كره منه ذلك؛ لأنَّ المساجد جُعلت لذكر الله لا لإنشاد الشعر. فلمَّا ذَكَّره حسان بأنَّ النبي كان يسمع منه شعره في هذا المقام تركه لحُرمته ومضى، لا أن عصبيته كانت تكره أن تُزدرَى قريشٌ؛ إذ لو كان الأمر كذلك لطرده من المسجد ولم يبالِ به، ولكان له في ذلك عذرٌ مقبولٌ.

يقول الدكتور طه حسين: «إنَّ عبد الله بن الزِّبَعْرَى[٦١] وضرار بن الخطاب[٦٢] قدما المدينة وأنشدا حسَّانًا مما قالت قريشٌ في الأنصار فلمَّا فرغا لم يسمعا منه وَمَضَيا عائدَيْن إلى مكة، فاشتكاهما لعمر، فردهما وأمره أن ينشدهما ما شاء ففعل …» إلخ إلخ.

يستشهد الدكتور طه حسين بهذه الحكاية ليثبت أنَّ الأنصار كانوا يرتاحون لسماع هجو قريش؛ انتقامًا منهم.

ونحن نقول: إنَّ هذه الحكاية تُثبت أنَّ الوحدة الاجتماعية كانت على أتمِّ ما يكون في ذلك العهد حتَّى إنَّ عمر القرشي — وهو أمير المؤمنين — انتصر لحسان الأنصاري وأحضر له القرشيين لينشدهما حسان ما يكرهانه. وتثبت — فوق ذلك — أمرًا جديدًا بالتنبُّه إليه؛ وهو أنَّ الأنصار وقريشًا المسلمة كانوا سواءً في ذم قريش الوثنية الملحدة التي بادت منذ فتح مكة. ويدل على ذلك دلالة لا تحتمل النقض إحضاره القرشيين لسماع حسان في ذم قريشٍ الوثنية، وترخيصه للنَّاس بكتابة هذا الشعر بعد أن أمر بعدم كتابته لعدم إثارة الضغائن. فإلغاؤه أمرَه الأول والترخيص بكتابته يدل على أنَّه رأى أنه لا يُثير الضغائن، وإلا فلو كان يعلم أنه يُثيرها لما أقدم على الترخيص بكتابته، وهو المعروف بالورع والمحافظة على وحدة الأمة.

---

[٦٠] جمع السفساف، وهو الرديء الحقير من كل شيء وعمل. المعجم الوسيط [س ف س ف].

[٦١] تنظر ترجمته في الأعلام للزركلي ج٤ ص٨٧.

[٦٢] تنظر ترجمته في الأعلام للزركلي ج٣ ص٢١٥.

يقول الدكتور طه حسين: «قال ابن سلام: نظرت قريشٌ فإذا حظها من الشعر قليلٌ في الجاهلية، فاستكثرت منه في الإسلام. وليس من شك عندي في أنَّها استكثرت من هذا الشعر الذي يُهجَى فيه الأنصار.»[٦٣]

ونحن نقول: إنْ كان هذا صحيحًا فيكون الذين ارتكبوا هذا الإثم نفرًا من الذين التحقوا الإسلام ولم يستشعروه؛ فهم نُفاضة[٦٤] قريش ونفايتها ممن لا بصيرة لهم بدين ولا دنيا، ولا حَظَّ لهم من الحياة إلا أنْ يشتغلوا بالسفاسف والدنايا. أمَّا القرشيون الذين وضعوا أساس هذا المجتمع المبارك الذي كُتِبَ له أن يكون نواةً لأكبر دولة في العالم؛ فلا يُعقل أن يكونوا تحت تأثير حالةٍ نفسيّةٍ سافلةٍ من هذا القبيل، وإلا لظهرت أعراضها الملازمة لها كما هي السُّنَّة في كل مجتمع.

ثم إنَّنا لا نستطيع أن نتصور أنَّ طائفتين بينهما من التعادي والتنافُر ما يحمل إحداهما في اختلاق القصائد — ذمًّا في الأخرى وتحقيرًا لشأنها — يكون حالُهما من التضامن والتكافل على ما رأيناه منهما في كل دورٍ من الأدوار الحرجة التي دخلت فيها جماعة المسلمين في القرن الأول.

فإنْ كان ما يقوله الدكتور طه حسين حقًّا — من أنَّ الأنصار قد هُضم حقهم، وأنَّهم أحسوا بهذا الهضم وسكتوا على مضض، وأنَّ القرشيين كانوا يَنظِمون القصائد طعنًا فيهم، وإزراءً بهم، وأنَّهم تحملوا كل ذلك ولم يُبدوا حركةً تدل على استيائهم — وجب أن تكون قريش من الظلم والإجحاف، ونُكران الجميل، وفساد الطَّوِيَّة، وخساسة النفس، في الدرك الأسفل، وأن تكون الأنصار — في تحمُّلها كل ذلك وجزائها عليه بدوام الوفاء والولاء — آية في المروءة والرجولة وشرف النفس.

فهب أنَّ هذا كان في الواقع، فذلك لا ينفي أنَّه نفحةٌ من نفحات الإسلام، وأثرٌ من آثار محمد عليه الصلاة والسلام، ويكون معجزةً خالدة له إلى يوم القيام؛ لأنَّ فلاسفة

[٦٣] كان الواجب عليه أن ينظر إلى مكانة الأنصار عند المسلمين. وإلى عداوة قريش لمن؟ قال ابن سلام: «حدثني أبو يحيى الضبي قال: كان عبد الرحمن بن حسان ويزيد بن معاوية يتقاولان، فاستعلاه (أي غلبه وقهره وعلا عليه) ابن حسان؛ قال يزيد لكعب بن جُعَيْل التغلبي: أجبه عني، واهجه؟ فقال: والله ما تلتقي شفتاي بهجاء الأنصار! ولكني أدلك على الشاعر الماهر الفاجر فتًى منَّا يقال له غياث بن الغوث، نصراني.» يعني: الأخطل. ينظر: طبقات فحول الشعراء ج٢ ص٤٦١، ٤٦٢.

[٦٤] «النُّفاضة، بالضم: نفاثة السواك، وما سقط من المنفوض ...» القاموس [ن ف ض].

الأرض مجتمِعِين يعجِزون عن التوفيق بين رجلين من هذا الطراز، وعلى هذا التنافي في الأخلاق، فما ظنك بطائفتين كانت إحداهما على هذه الصفات الخاطئة من هضم الحقوق، والاعتداد بالنفس، والتجرُّم على الوليِّ، وقد بنى بهم تلك الوحدة الاجتماعية التي مكَّنت ذويها من ناصية العالم، ودفعتهم لاصطناع مدنية لا تزال بدائعها مضرب الأمثال إلى اليوم؟!

يقول الدكتور طه حسين: «ولمَّا تولَّى عثمان تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل أبا سفيان خطوةً أخرى، فلم تُصبح الخلافة في قريش فحسبُ، بل أصبحت في بني أمية خاصةً، واشتدت عصبية قريش، واشتدت عصبية الأمويين، واشتدت العصبيات الأخرى بين العرب، وهدأت حركة الفتح، وأخذ العرب يفرغ بعضهم لبعض، وكان من نتائج ذلك ما تعلَم من قتل عثمان وافتراق المسلمين، وانتهاء الأمر كله إلى بني أمية.»

ونحن نقول: هذا كلامٌ قد رُتِّبَ ترتيبًا شعريًّا خاليًا من روح التحقيق العلمي، وبعيدًا عن فلسفة التاريخ وأصول الاجتماع بُعدًا لا يقف عند حد.

وحقيقة الأمر أنَّ عمر — لما جُرح وأحسَّ بقرب وفاته — عين ستةً من الذين لا تَعْدوهم الخلافة: وهم علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عُبَيْدِ الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص، وأبى أن يعهد بالخلافة إلى ابنه عبد الله حين اقتُرِحَ ذلك عليه قائلًا: والله لا يليها من ولد الخطاب اثنان. وخاطب هؤلاء الستة بقوله: يا معشر المهاجرين الأوَّلين إنِّي نظرت في أمر الناس فلم أجد فيهم شقاقًا ولا نفاقًا، فإن يكن بعدي شقاقٌ ونفاقٌ، فهو فيكم. تشاوروا ثلاثة أيام، فإن جاءكم طلحة إلى ذلك — وكان غائبًا — وإلا فأعزم عليكم بأن لا تتفرقوا من اليوم الثالث حتى تستخلفوا أحدَكم، فإن أشرتم بها إلى طلحة فهو لها أهلٌ. وليُصَلِّ بكم صهيبٌ هذه الثلاثة الأيام التي تتشاورون فيها؛ فإنّه رجلٌ من الموالي لا ينازعكم أمرَكم، وأحضِروا معكم من شيوخ الأنصار وليس لهم من أمركم شيءٌ، وأحضروا معكم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس؛ فإنَّ لهما قرابةً، وأرجو لكم البركة في حضروهما، وليس لهما من أمركم شيءٌ، ويحضر ابني عبد الله مستشارًا، وليس له من الأمر شيءٌ.

فصدعوا بإشارته، ولكنَّهم اختلفوا، ثم أجمعوا على تحكيم أحدهم وهو عبد الرحمن بن عوف. فخرج يسأل الخاصة والعامة عن رأيهم فيمن يصلح للخلافة، فوجد الناس مُجْمِعِين على تولية عثمان؛ فرجع إلى إخوانه وأخبرهم بأنَّه اختار عثمان، فبايعوه وبايعه الناس.

واتَّفق أن كان بعثمان ضعفٌ، فتغلب عليه قريبٌ له يُدعى مروان بن الحكم، أحد الذين أصروا على الوثنية حتى فتح رسول الله مكةَ فأسلم إذ ذاك ضنًّا بنفسه، وكان مشبعًا بروح الجاهلية، والأثرة القَبيلية، فجعل الولاة في الأقاليم من أغيلمة بني أمية حتى الذين لا يصلحون للولاية؛ فأحدثت هذه الحالة تذمُّرًا عامًّا في المسلمين، وظهر من عدم كفاية هؤلاء الولاة ما ملأ القلوب بكراهة تلك الحكومة حتى إنَّ أحدهم — وهو الوليد بن عقبة والي الكوفة — صلَّى بالنَّاس الصبح — وهو سكران — أربع ركعات، ثم التفت إليهم وقال: إنْ شئتم أن أزيدكم ركعة زدتكم.[٦٥]

فما عتمت الفتنة أن اندلع لهيبها، وقصد المدينة جيشٌ من جنود الولايات، وحاصروا عثمان في داره، وطلبوا إليه عزل مروان بن الحكم وتسليمه إليهم، فأبى. فطلبوا إليه الاستقالة، فلم يُجبهم إلى طلبهم؛ فهددوه بالقتل، فلم يقم لتهديدهم وزنًا؛ فاقتحموا عليه الدار وقتلوه. ثم اجتمعوا فولوا عليَّ بن أبي طالب الخلافة، فأسرع بمعالجة ما فسد من أمر الولايات؛ فعزل أولئك الولاة الأمويين، وولَّاها رجالًا ممن يثق فيهم مثل محمد بن أبي بكر وأبي موسى الأشعري. وكان ممن أمر بعزله من الولاة معاوية بن أبي سفيان، وكان قد مضى عليه في ولاية الشام عشرون سنةً اتَّخذ له فيها جنودًا وقُوَّادًا، فلمَّا فاجأه خبر العزل احتال لإعلان عصيانه بفرية أثَّر بها على الذين حوله؛ وهي أنَّ عثمان ما قُتِلَ إلا بإغراء علي بن أبي طالب.

واتفق أنَّ عائشة زوجة النبي ﷺ كانت تكره عليًّا، فاتفقت مع طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام على أن يؤلِّبا النَّاس على أمير المؤمنين ليسلمهم رجال الثورة الذين قتلوا عثمان. ولا يخفى أنَّ هذا متعذِّر، فاعتذر إليهم، فلم يقبلوا، وجمعوا له سبعين ألف مقاتل في العراق، فقاتلهم في وقعة اسمها يوم الجمل، وقُتل طلحة، وقُبِضَ على عائشة، وَرَجَعَها [عليٌّ] إلى المدينة، ثم قصد معاوية فقاتله، فلما كاد يأسره احتال عمرو بن العاص كبير قُوَّاده فأمر بعض جنوده برفع المصاحف على رءوس الرِّماح إشارة إلى طلب التحكيم إلى كتاب الله. فأبَى عليهم ذلك باعتبار أنَّها حيلةٌ، فاختلف عليه أصحابه وأجبروه على قبول التحكيم. فلمَّا قبله انشقت عنه طائفةٌ لم يُرضِهَا ما فعل وتجمعوا

[٦٥] ينظر في ذلك وما يأتي «كتاب العواصم من القواصم» للقاضي أبي بكر بن العربي. فقد رد ابن العربي على كل هذا.

عند نهر النهروان، فزحف عليهم، فقاتلوه قتالًا مُرًّا حتى بادوا، ثم رجع إلى المدينة منتظرًا التحكيم. فاجتمع الحكمان أبو موسى الأشعري عن عليٍّ، وعمرو بن العاص عن معاوية، فاتفقا على أن يعتزل كلا الرجلين أمر المسلمين، وأن يُؤخذ رأي الناس فيمن يصلح للخلافة؛ فلم يقبل علي وأصحابه هذا الحكم واعتزم الزحف على معاوية للفراغ من أمره.

في ذلك الوقت اتفق ثلاثة رجالٍ على قتل عليّ ومعاوية وعمرو بن العاص، بحجة أنَّهم سبب هذه الحروب الأهلية التي كادت تقضي على المسلمين، وجعلَا لتنفيذ جناياتهم يومًا معيَّنًا. فأما قاتِلُ عليٍّ فتمكَّن منه وهو خارجٌ لصلاة الصبح، وكان لا يتَّخذ حرسًا. وأما غريم معاوية فأصابه بالسيف في عُجَيْزَتِهِ فلم يصبه كبير أذى، وأمّا طالب عمرو بن العاص فقتل نائبه على الصلاة؛ لأنَّه اتفق أن حدث له ما يمنعه في ذلك اليوم عن الجماعة فأناب عنه أحد رجاله.

لَمَّا قُتل عليٌّ انتخب النَّاس للخلافة الحسن ابنه، فلمّا رأى المسلمين أصبحوا فوضى، وأنَّ الحرب الأهلية تكاد تقضي على وحدتهم، قبل أن يتنازل عن الخلافة لمعاوية بشرط أن يكون هو ولي عهده، فرضي معاوية هذا الحل، واستتبَّ له الأمر، واتخذ دمشق عاصمةً للمملكة مكان المدينة، ولبث خليفةً عشرين سنةً مات في أثنائها الحسن بن علي، فعهد بالخلافة إلى ابنه يزيد، وكان متهتكًا فاسقًا مدمنًا للخمر، فيه صفات أهل الجاهلية.

فلمَّا مات معاوية وتولى ابنه يزيد أعلنت المدينة عصيانها، وخرج عليه عبد الله بن الزبير بمكة ونُودِي به خليفةً بها، وتبعته المدينة ومصر والعراق، وخرج عليه الحسين بن عليّ بالكوفة، فقاتله عامل يزيد وقتله، وأرسل إليه برأسه.

ثم أرسل إلى المدينة بأحد قواده فأوقع بأهلها شر إيقاع، وقتل من أصحاب النبي بين قرشي وأنصاري سبعمائة، ومن غيرهم ممَّن كان معهم نحو عشرة آلاف؛ ثم قصد مكة ليلحقها بالمدينة فلم ينجح، واتفق موت يزيد في تلك الأثناء؛ فرجع قائده خائبًا.

فتولى بعد يزيد ابنه خالدٌ وكان زاهدًا عابدًا يُنكر على أبويه ما فعلا؛ فلم يلبث إلا أربعين يومًا ثم تنازل عن الخلافة؛ فولاها بنو أمية مروان بن الحكم مستشار عثمان والسبب في قتله، فلم تطُل مدته، وخلفه ابنه عبد الملك بن مروان، فأرسل قائده الحجاج ففتح له مكة وقتل عبد الله بن الزبير بعد أن ضربها بالمجانيق[٦٦] حتى هدم ركنًا من

[٦٦] المنجنيق: آلةٌ من آلات الحصار، تُرمى بها الحجارة.

أركان الكعبة، فاستتب الأمر لعبد الملك، وانقطعت الفتن، إلا بعض الخوارج في بعض الجهات، فسحقهم الحجاج.

ولمَّا مات عبد الملك خلفه أولاده حتى انتهى الأمر إلى مروان بن محمد، فخرج عليه أبو مسلم الخراساني بخراسان داعيًا الناس إلى مبايعة أبي العباس السفاح من ذرية عبد الله بن عباس، فقاتله بنو أمية، فهزمهم في كل مكان، حتى تم له النصر؛ فبويع أبو العباس السفاح بالخلافة، وبه بدأت أسرة العباسيين.

بعد هذا البيان نرجع لمناقشة الدكتور طه حسين؛ فقد قال: «ولما تولَّى عثمان تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل أبا سفيان خطوة أخرى.»

والفكرة السياسية التي يذكرها الدكتور طه حسين وينسبها لأبي سفيان هي أن يعود السلطان لقريشٍ الوثنية بعد أن صار للأنصار وقريشٍ المسلمة، ولمكة بعد أن انتقل إلى المدينة. ونحن في هذا المقام نعجب ونتساءل: كيف وصل إلى الدكتور طه حسين أنَّ أبا سفيان كان يُبطن هذه الأمنية، ويتربص لها الفرص، ولم يعلم ذلك النبي ﷺ حين استصحبه في حربه بالطائف، وحين أرسله لهدم بعض الأصنام، وحين ولَّاه على الصدقات بنجران، ولا عمر حين أرسله إلى حرب اليرموك وقد أبلى في كل ذلك بلاءً حسنًا حتى قُلِعَتْ عيناه في المعارك وأصبح كفيفًا يقوده غلام له إلى حيث أراد؟! وقد ولى عمر ابنه يزيد على الشام، فلما مات أبلغه خبر وفاته وعزَّاه، فسأله أبو سفيان عمن ولاه الشام بعده، فقال له عمر: ولينا أخاه معاوية — يعني ابنه الثاني — فشكر له أبو سفيان عنايته به وببنيه (ننبه القارئ أنَّ أبا سفيان كان له ابنٌ اسمه يزيد، وهو غير حفيده يزيد بن معاوية).

فهل يُعقل أن يعمى جميع معاصري أبي سفيان عن دَخِيلة أمره، وما يختلج من نوايا السوء في صدره، فيولوه ويولوا أولاده الخِطَط الرفيعة، ويملِّكوهم نواصي الجيوش والولايات، ونطَّلع نحن بعد ألف وثلاثمائة سنة على ما كان يُخفيه في أقصى أحناء[٦٧] قلبه، وأخفى ثنايا جوانحه؟ هل حدَّث بذلك أحدًا فأفشاه بعد مماته؟ هل خان الأمانات التي عهدت إليه في حياة النبي أو بعد وفاته؟ هل حمل جيشًا على عصيانٍ، أو أثار قبيلةً

[٦٧] الأحناء: جمع حِنوٍ؛ وهو كل شيء فيه اعوجاجٌ كالضلع.

على شقِّ عصا للطاعة، أو خابر أمَّة أجنبية لمساعدته؟ أو عهد إلى ابنيه بتنفيذ مقاصده؟ وقد تولى أحدهما — وهو يزيد بن أبي سفيان — الشام ومات في حياة عمر، ثم تولاها ابنه الآخر معاوية بن أبي سفيان ولبث بها واليًا عشرين سنةً وخليفةً عشرين أخرى، فلم يبدُ من أحدهما ما يدل على السَّعي لتحقيق هذه الأمنية التي يلصقها الدكتور طه حسين بأبي سفيان بن حرب!

يقول الدكتور طه حسين: «لما تولَّى عثمان تقدمت الفكرة السياسية التي كانت تشغل أبا سفيان خطوةً أخرى.»

ومعنى هذا أنَّه كان هنالك تيارٌ سياسيٌّ يتوقع اشتداده بتولِّي بني أمية الخلافة. فإذا كان ذلك صحيحًا فكيف لا يفطن له بنو هاشم خاصةً، ولا تفطن له كذلك قريشٌ عامةً، فيولوا رجلًا من تلك الأسرة الخلافة، ويمكِّنوه من قلب دولتهم رأسًا على عقب؟ ألم يتنازل له الحسن بن علي عن الخلافة بعد مشاورة جمهور المهاجرين والأنصار؟ ألم يصبروا على خلافته عشرين سنة لم يحرِّك فيها أحدٌ منهم ساكنًا؟ هل الأمة التي ثارت على عثمان بن عفان الملقب بذي النورين لزواجه من ابنتين لرسول الله ﷺ الواحدة بعد موت الأخرى، وصاحب اليد البيضاء في الإنفاق على الجيش الملقَّب بجيش العسرة، والذي أجمع المسلمون بعد موت عمر على أنَّه أولى الناس بالخلافة؛ قلنا هل الأمة التي ثارت عليه وقتلته تخضع لمعاوية بن أبي سفيان وليس له ماضٍ مجيدٌ في الإسلام، ولا سابقةٌ حسنةٌ تذكر له مع السابقات التي لغيره من الذين كانوا لا يزالون أحياءً، فتتركه يدبِّر عود الجاهلية إليها ولا تفطن لما يعمله وما ينتويه من هذه الأمور الجسام. إنَّنا لأجل أن نصدق مثل هذا الخيال، يجب علينا قبل ذلك أن ندع عقولنا جانبًا ونجري وراء كل خاطرٍ يزينه لنّا الوهم باسم تصيد أسباب أيِّ أمرٍ كان.

يقول الدكتور طه حسين: «فلم تصبح الخلافة — بتولِّي عثمان — في قريش فحسب، بل أصبحت في بني أمية خاصةً، واشتدت عصبية قريش، واشتدت عصبية الأمويين، واشتدت العصبيات الأخرى بين العرب، وكان من نتائج ذلك قتل عثمان وانتهاء الأمر كله إلى بني أمية.»

ونحن نقول: إنَّ مصير الخلافة إلى بني أمية لم يكن يُعتبر شيئًا يُذكر في عهد الصحابة عامةً وبني هاشم خاصةٌ. ولو كان يُعتبر أمرًا يُعتدُّ به لاحتاطوا له، ولمنعوا وقوعه والسلطة في أيديهم.

إنَّ هاشمية زيدٍ وأموية عمروٍ وقرشية بكرٍ وأعجمية خالدٍ، كانت في عهد الصحابة معتبرةً من الأمور الجاهلية، وكانت هي والوثنية والتفاخر بالآباء في مستوىً واحد. ألا ترى أنَّه لما تُوفي رسول الله ﷺ ولَّى المسلمون أبا بكر وهو ليس من هاشم في شيء، وتركوا ابن عم رسول الله علي بن أبي طالب على هاشميته وكفايته، وقد احتج هو على ذلك وامتنع عن مبايعة أبي بكر وحمل امرأته بنت رسول الله على أن تطوف على جماعات الصحابة شاكيةً من هضم حق زوجها فلم يأبه لشكايتها أحدٌ؟ فلما تُوفِّي أبو بكر ولَّوها [أي الخلافة] عمر بن الخطاب وليس من هاشم في شيء! ألا تدل هذه الحوادث المتكررة على أنَّ المسلمين في ذلك العصر لم يكونوا يأبهون لمثل هذه السفاسف انقيادًا لوصية رسول الله ﷺ وهي قوله: «اسمع وأطع ولو لعبد حبشي كأن رأسه زبيبةٌ»[٦٨] ما دام قد انتخبته الأمة ليحكمها باسمها؛ عملًا بقوله ﷺ «ما رآه المسلمون حسنًا فهو حسنٌ.»[٦٩] و«لا تجتمع أمتي على ضلالةٍ.»[٧٠]

أما قول الدكتور: «واشتدت عصبية قريش» فليس بصحيح؛ لأنَّه لم يحدث أنَّ قريشًا في عهد عثمان سلبت من عَداها حقًّا كان لهم، أو خصت نفسها بمَزِيَّةٍ دونهم. فعلى أي دليل نستند للحكم عليها باشتداد العصبية؟ هل ثار عليها ثائرون متَّهميها بهذه النقيصة؟ هل استقلت بعض الولايات استثقالًا لنير هذه القبيلة؟!

أما قوله «واشتدت عصبية الأمويين» فهذا صحيحٌ، وقد ظهرت هذه العصبية بمظهرها الطبيعي من توزيع الولايات على الأقارب والأشياع، ولكن لا تنسَ أنَّ هذه العصبية قد لقيت جزاءها؛ إذ ثار الناس على الخليفة فقتلوه وأسندوا الخلافة لسواه، وهذا دليلٌ على أنَّ بِنْيَةَ المجتمع الإسلاميِّ في ذلك العهد كانت لا تحتمل العصبية، فلمَّا حَدَثَتْ لفظَتْها لفْظَ النواة بارتكاب أقسى ما ترتكبه أمةٌ لإصلاح ما فسد، وهو الثورة.

وأما قوله: «واشتدت العصبيات الأخرى بين العرب» فليس بصحيح؛ لعدم حدوث أي مظهرٍ يدل عليه، ومن أَدَلِّ مظاهرها انفصام الرابطة العامة بين عناصر الأمة، وزوال

---

[٦٨] ينظر صحيح البخاري ٦٩٦ قاله ﷺ لأبي ذر. وليس فيه «لعبد».

[٦٩] ينظر المعجم الأوسط للطبراني رقم ٣٦٠٢، وروايته بالفاء «فما رآه». وفيه «فهو عند الله حسن ...» وهو تكملة حديث.

[٧٠] ورد بروايات متعددة، وفي سنن ابن ماجه رقم: ٣٩٥٠، وردت هذه الرواية ولفظها: «إن أمتي لا تجتمع على ضلالة فإذا رأيتم اختلافًا فعليكم بالسواد الأعظم.»

الوحدة التي تجمعها؛ كأنْ تستقلَّ الأقاليم البعيدة عن المركز العام، وتُؤلِّف لنفسها حكوماتٍ خاصة بها، وكأن تقطع القبائل المتبدية[٧١] العلاقات التي تصل بعضها ببعض وتربطها جميعًا بالحكومة الرئيسية، فتمتنع عن تأدية ما عليها من الأموال قِبَلَ تلك الحكومة وتطرد عمالها، وكأن يُنتدب بعضها لمقاتلة بعضها الآخر ... إلخ إلخ، هذا أدل مظهر على اشتداد العصبيات، فهل حصل شيءٌ من ذلك؟ لا، بل تولَّى عثمان فرأينا القبائل والأقاليم المؤلِّفة للدولة الإسلامية على ما كانت عليه من الوحدة الاجتماعية، وعبث مستشاره بتلك الولايات، فأسندها إلى أُغَيْلِمَةٍ لا يُحسنون صناعة الحكم، ولا سياسة الجماعات، فأثر ذلك في نفوس أهل الأقاليم وحملهم على إحداث ثورة، ولكنَّه لم يَحُلَّ رابطتها العامة، أي لم يولِّد فيها روح العصبية التي أظهر مظاهرها استقلال كلٍّ منها برأيه وعدم تعلقه بغيره، مع أنَّ قتل عثمان كان يَصلح أن يكون فرصةً لحدوث تفكُّكٍ عام في أجزاء تلك المملكة الناشئة لو كان هنالك ظِلٌّ من عصبية فضلًا عن عصبية شديدة.

ثم لما تولَّى علي بن أبي طالب لم تتأثر تلك الوحدة، بل زادت وضوحًا وتماسكًا رغمًا عن عصيان معاوية، وخروج عائشة وطلحة والزبير والخوارج على الخليفة الجديد.

نعم زادت تلك الوحدة وضوحًا وتماسكًا دلت عليهما تلك الفتن الأهلية نفسها؛ فإنَّ الجنود والقُوَّاد الذين اشتركوا في هذه الفتن لم يكونوا جماعات متجانسةً جمعتهم العصبية القَبيلية، ولكنَّ فئاتٍ جمعتها المذاهب السياسية؛ فالجنود والقواد الذين انتصروا لمعاوية لم يكن فيهم بنو أمية إلا كقطرة في بحر؛ لأنَّ بني أمية أجمعين أبناء أسرة واحدة قد لا يبلغون المائتين عدًّا، ولكنَّ الجيوش الجرارة التي تحزبت لمعاوية كانوا من قبائل شتى جمعها المذهب السياسي لا العصبية القبيلية.

وكذلك تحزَّب لعلي بن أبي طالب الأنصار جميعهم وهم بنو الأوس والخزرج من القبائل اليمنية، وعشرات الألوف من الجنود من قبائل شتى كان القرشيون فيهم لا يبلغون جزءًا من مائة.

وكذلك الجيش الذي لَبَّى دعوة عائشة وطلحة والزبير؛ كان أكثرُه من العراق؛ قاموا يطالبون بقتلى عثمان الأموي (تأمَّل) وليس فيهم واحدٌ من الأمويين، بل ولم تك عائشة ولا طلحة ولا الزبير يمتون لعثمان بأقل قرابةٍ!

[٧١] أي التي تعيش بالبادية؛ أي الصحراء.

وكذلك الخوارج الذين خرجوا على عليٍّ بن أبي طالب وقاتلوه عند النهروان[٧٢] كانوا خليطًا من قبائل متفرقة.

فهل تريد دليلًا أقوى من هذا على أنَّ روح العصبية القبلية كانت سُحِقَتْ بتأثير الإسلام وحلت محلها وحدةٌ جامعةٌ لا تتأثر إلا من وجهة الآراء والمذاهب السياسية كما تتأثر بها كل أمة في الأرض إلى اليوم.

فإنْ كان الدكتور طه حسين يستنتج اشتداد العصبيات من صدور قصائد من شعراء في الافتخار بقبائلهم، أو من إغراء زعيمٍ فاجرٍ لبعض الشعراء على ذم بعض العناصر المكوِّنة للمجموع الإسلامي، فإنَّ هذا لا يصح أنْ يُعبَّر عنه في علم الاجتماع باشتداد العصبيات؛ لأنَّها أمورٌ شخصيةٌ لا يتعدى تأثيرها الأفراد، ومثلها يوجد في كل أمة وفي كل جيل من الناس، وإنَّما يُعنى علم الاجتماع بما يُؤثِّر على المجموع فيعمل على تفكيكه أو يُحدِث أعراضًا خاصَّةً مستقلةً من أعراض العلل العامة، فالتألُّب على قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، يُنظر فيه، فإنْ كان الباعث عليه أنَّه أمويٌّ كان ذلك من آثار العصبية، وإن كان الحامل عليه أمورًا عامة تُهِمُّ المجموع، فلا يكون من آثار العصبية، بل من آثار الغَيرة على الحقوق والكرامة العامة. فلننظر فيه نظرةً اجتماعيةً، لتحديد عوامله الحقيقية: يقول الدكتور طه حسين: «كان من نتائج اشتداد العصبيات قتل عثمان وانتهاء الأمر كله إلى بني أمية.»

ونحن نقول: إنَّ الناظر لهذا الإجمال يُخيَّل إليه أنَّ أمر المسلمين في عهد عثمان أصبح كله تابعًا لعوامل العصبيات الجاهلية التي تكون بين الأمم المنحلة أو التي على وشك أن تزايلها روح الوحدة الاجتماعية، وأنَّ قتل عثمان كان بسبب أنَّه من بني أمية لا لسببٍ آخر من الأسباب التي تدفع الأمم الحية إلى الثورة. فلإزالة ما عسى أن يعلق بالأذهان من هذا الخطأ التاريخي الخطير، وما يندسُّ في الصدور من تحقير ذلك المجتمع الناشئ، رأينا أن نكشف العوامل الحقيقية لهذه الثورة ونبين نتائجها على الأسلوب العلمي إنصافًا لتلك الدولة التي أُعِدَّت لإحداث أكبر الانقلابات الاجتماعية والعلمية والمدنية في الأرض فنقول:

تولى عثمان الخلافة بانتخاب المؤتمر الذي دعا إليه عمر وهو يجود بنفسه، ولم ينظر في تعيينه أنَّه من بني أمية أو من بني هاشم أو من غيرهما، بل نظرَ إلى كفايته.

[٧٢] «بلادٌ في العراق واقعة بين بغداد وواسط.» المنجد في الأدب والعلوم ص٥٤١.

يدل على ذلك أنَّ الذين انتخبوه لم يكونوا أمويين، وقد بايعه الناس كافةً مرتاحين إلى ولايته، مستبشرين بإمامته، باعتبار أنَّه من أصحاب السابقات الحسنة، والماضي الحافل بجلائل الأعمال. فاتُّفق أنَّه كان من ضَعف الإرادة بحيث تغلَّب عليه قريبٌ له يُدعى مروان بن الحكم وهو واحدٌ من الذين عضوا على الوثنية بالنواجذ حتى فتح النبي ﷺ مكة ومَنَّ على مشركيها بالعفو العام فدخلوا في الإسلام حقنًا لدمائهم، وربهم أعلم بنياتهم.

استولى مروان على إرادة عثمان فأحدث أحداثًا رآها الناس من أحكام الجاهلية، فنقموا[٧٣] على الخليفة وكرهوا حكومته. ونحن نؤاتيك بالوجوه التي نقَم الناس عليه من أجلها منقولة من كتاب «الإمامة والسياسة» لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة (٢٧٠) للهجرة صفحة ٣٦ من الطبعة الثانية قال:

> اجتمع ناسٌ من أصحاب النبي ﷺ وكتبوا كتابًا (يريد أن يقول نشروا بيانًا عن الحالة) ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صَاحِبَيه، وما كان من هبته خُمُسَ إفريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين، وما كان من تطاوله في البنيان حتى عدوا سبع دورٍ بناها بالمدينة؛ دارًا لنائلة ودارًا لعائشة وغيرهما من أهله وبناته، وبنيان مروان القصور بذي خَشَبٍ،[٧٤] وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ولرسوله، وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية أحداثٍ وغِلمةٍ لا صحبة لهم من الرسول ولا تجربة لهم بالأمور، وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلَّى بهم الصبح وهو أميرٌ عليها سكران أربع ركعاتٍ ثم قال لهم: إنْ شئتم أن أزيدكم ركعة زدتكم. وتعطيله إقامة الحد عليه وتأخيره ذلك عنه، وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم، واستغنى برأيه عن رأيهم، وما كان من الحمى الذي حمى حول المدينة، وما كان من إدراره القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبةٌ من النبي عليه الصلاة والسلام، ثم لا يغزون ولا يَذُبُّون، وما

[٧٣] نَقَمَ: أنكر وعاب.

[٧٤] ذو خشب — كما في القاموس المحيط: موضعٌ باليمن.

كان من مجاوزته الخيزران (في إقامة الحدود) إلى السوط، وأنَّه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس، وإنَّما كان ضرب الخليفتين قبله بالدِّرَّة والخيزران.[٧٥] انتهى.

هذا ما نقمه الناس على عثمان، وهو ما لم يعهدوه منذ تولَّى أمرهم رسول الله ﷺ ثم خليفتاه من بعده، فكان الصبر عليه فوق ما صبروا من أوَّل عهد عثمان مما لا سبيل إليه. فانتشر التذمُّر في الولايات، وعم القلق والاضطراب جميع البلاد، وانتدب قومٌ من مصر والكوفة للشخوص إلى المدينة لوضع حد بالقوة لهذه الحالة السيئة. فأقبل ألف رجلٍ من الكوفة وأربعمائة من مصر وَحَصَروا عثمان في داره، فدخل الدار معه مائة رجلٍ من قبائل شتى منهم عبد الله بن الزبير والحسن بن علي وعبد الله بن سلام وأبو هريرة والمغيرة بن شعبة وغيرهم. وكان ينصره خارج الدار رجالٌ آخرون. وكان لا يود رجلٌ يعتد به في المدينة أن يصيبه أذى وإن كان الجميع يودون أن يعتزل أو يستقيم، فحدث منه ما غيَّر جميع القلوب عليه، وذلك أنَّه كان ولى على مصر رجلًا من الذين كان استباح النبي ﷺ دمه لسوء أثره في مناهضة الإسلام والمسلمين، فاختفى ثم ظهر بعد وفاته ﷺ، وهو عبد الله بن أبي سَرْح، فسلك في مصر سيرة الجبَّارين العاتين، فأوفد أهلُها رجالًا منهم إلى عثمان يشكونه إليه ويرجونه أن يبدل به سواه؛ فلبى طلبهم وولى مكانه محمدَ بن أبي بكر، فخرج في جماعة من المهاجرين والأنصار، فلما كانوا على مسيرة ثلاث ليالٍ من المدينة صادفوا غلامًا أسود يُغِذُّ[٧٦] السير على بعيرٍ، فاستوقفوه وسألوه عن نفسه، فاضطرب في الجواب، وكان يقول تارةً إنَّه غلام عثمان، وطورًا إنَّه غلام مروان بن الحكم. ولَمَّا فتشوه وجدوا معه كتابًا بختم عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح، فقرءوه فإذا فيه: «إذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلانٌ وفلانٌ فاقتلهم وأبطل كتابهم وأقر على عملك حتى يأتيك رأيي.» ففزعوا مما قرءوا ورجعوا إلى المدينة وعرضوا على كبرائها الكتاب، فلم يبق أحدٌ إلا حنق[٧٧] على عثمان، وتركوا الثائرين يفعلون ما بدا لهم. فشددوا عليه الحصار ومنعوه الماء، وطلبوا إليه أن يسلِّم إليهم مروان بن الحكم

[٧٥] ينظر: الإمامة والسياسة ج١ ص٣٢، مصطفى الحلبي.

[٧٦] «أَغَذَّ السير، وفي السير: أسرع فيه.» المعجم الوسيط [غ ذ ذ].

[٧٧] حنق عليه: اشتد غيظه.

الذي اتهموه بأنَّه كاتب هذا الكتاب، فلم يَقبَل عثمان أن يسلمه. وبينما هم على تلك الحال إذ بلغهم أنَّ معاوية بن أبي سفيان قد أرسل إليه مددًا أربعة آلاف رجلٍ، فحملهم ذلك على الإسراع في الانتهاء منه، فأحرقوا الباب واقتحموا عليه الدار وقتلوه. فانهال النَّاس على علي بن أبي طالب من كل مكان يعرضون عليه الخلافة، فأبى، فما زالوا به حتى قبلها؛ فكان ما كان مما ذكرناه في الفَذْلكة[٧٨] التاريخية السابقة.

فماذا يرى القارئ في هذه الحادثة الاجتماعية غير ثورة قومية على حكومةٍ غاشمة استبدادية؟ أين أثر العصبية من عوامل هذه الثورة، وقد قام بها رجالٌ من قبائل شتى لا تجمعهم غير الوحدة السياسية، والمصلحة الاجتماعية؟

إنَّ من الأمور التي نقَمها المسلمون على عثمان عصبيته الأموية، وعدم مساواته بين النَّاس في الحقوق المدنية، فكيف يُقال: إنَّ الذي بعث إليها هي العصبية، وإنَّ الذي سبَّب قتل عثمان هي العصبية؟! اللهم إلا إن قيل إنَّها هي العصبية التي ظهر بها بنو أمية، ونفرت منها تلك الهيئة الاجتماعية.

إننا في هذا المقام لا نتمالك أنفسَنا من الدَّهَش العظيم من استعصاء تلك الوحدة التي أوجدها الإسلامُ للعرب على المحلِّلات، حتى إنَّها قاومت جميع عوامل التحليل وتغلبت عليها، وقد كان العرب يُضرب بهم المثل في الفرقة والعصبية.

نعم نرى ما يُوجب الدَّهَش والحَيْرَة: نرى قبائل كانت بالأمس في حالة تفكُّك لا يُرجى له التئام، لكلٍّ منها تاريخٌ خاصٌ، ومآثر قائمةٌ على النكاية بمن حولها من بني جنسها، ومفاخر مؤسَّسَةٌ على سفك دمائها واجتياح ثمراتها، وقد مر عليها في هذا الدور من التدابُرِ مئاتٌ بل ألوفٌ من السنين — تظهر في عهد الإسلام كتلة مندمجةً تستعصي على جميع عوامل التحليل، فلا يؤثِّر فيها ما يؤثر بعضُه في الأمم، ثم تخرج من جميع هذه الأدوار كتلةً مندمجةً كما كانت، فتحدث في العالم ذلك الحدث الضخم الذي قلبَ الأرض ومن عليها من حالٍ إلى حالٍ أخرى، لعمري إنَّ هذا لأعجب ما رأيناه في تطورات الأمم، فلا يصح أن تُرمَى العناصر المؤلِّفة لهذه الأمة بالعصبية، بل يجب أن ينوَّه بالتضحيات العظيمة التي بذلتها لإماتة العصبية، ممَّا لم يعهد له مثيلٌ في تاريخ الهيئات الاجتماعية على هذا النحو من الانتقالات الفجائية.

[٧٨] «الفذلكة: مجمل ما فصل وخلاصته.» المعجم الوسيط [ف ذ ل ك].

ولقد أثبتت هذه الثورة التي انتهت بقتل الخليفة الثالث على أنَّ الأصول التي كانت تقوم عليها الجماعةُ الإسلامية الأولى خير الأصول الاجتماعية، كما يدل على ذلك نص البيان الذي وُجِّه إلى الأمة ونقلناه في الصحف المتقدمة.

لقد كان أيسر على العرب وأشبه بما كانوا عليه منذ قليل أنْ ينتهزوا هذه الفرصة النادرة من اختلال الحكومة الرئيسية فتستقل كل ولايةٍ بنفسها، وكل قبيلة برأسها، وتتخلص من ولاة السوء، وعمال الفساد، ولكن الوحدة التي صبها الإسلام في قالبها كانت من الاندماج والتماسك بحيث آثرت هذه الولايات والقبائل أن تخاطر بنفسها وأموالها لإصلاح الحكومة المركزية على أن تحدث حدثًا يكون من ورائه تفكك روابطها الاجتماعية، كأنَّها أمةٌ عريقةٌ في الوحدة القومية، أصيلةٌ في النزعة الوطنية.

يقول الدكتور طه حسين: «وعاد العرب إلى شر ممَّا كانوا فيه من التنافس في جميع الأمصار الإسلامية، ويكفي أن أقص عليك ما كان من تنافس الشعراء من الأنصار وغيرهم عند معاوية ويزيد ابنه.»

ونحن نقول: إنَّ عبارة «وعاد العرب إلى شر مما كانوا فيه من التنافس في جميع الأمصار الإسلامية» فيها قسطٌ كبيرٌ من المبالغة الشعرية؛ لأننا نعلم وكل الناس يعلمون أنَّ العرب قبل البَعثة المحمدية كانوا على أشد ما يكونون من التفرق والتفكك: كل بلادهم العامرة الخصبة كانت واقعة تحت النِّير الأجنبي، وكانت قبائلهم في وسط بلادهم على حالةٍ من التناحر لا تُبقي ولا تذر؛ فلا يُعقل أنَّهم يكونون بعد مقتل عثمان قد عادوا إلى مثل هذا أو شر منه. وما حدا بالدكتور طه حسين إلى مثل هذه المبالغة إلا قصر نظره على أخبار الشعراء، واتخاذه ما حدث بين بعضهم والبعض الآخر أساسًا للحكم على هيئةٍ اجتماعية ناشئةٍ في حالة تطور تعمل فيها عوامل من أنواع شتى لاستجاشة ما كَمَن من خصائصها المعنوية والمادية، ولكنَّ أخبار الشعراء وأهل البطالة ممن يستمعون لهم أو يشترون ضمائرهم، ممَّا يحشوه مؤلفو كتب المحاضرات؛ كالأغاني، والعقد الفريد، والبيان والتبيين، وغيرها، ويحيطونه بجوٍّ من التهويل والبهتان؛ لا يصح أن يُعتبر ميزانًا تقدر به الأمور الاجتماعية!

أنا لا أنكر أنَّه كان تنافسٌ بين العناصر المؤلفة للمجموع الإسلامي في ذلك العهد، ولكني أرى أنَّ هذا التنافس في ذلك الجيل من النَّاس كان مظهرًا من مظاهر الحياة والحركة النفسية اللتين لا تتجرد منهما أمةٌ في حالة نمو وتطور. فماذا أنت قائلٌ لو قرأت

جرائد الأحزاب المتعارضة لأمة من الأمم المتمدينة المعاصرة لنا، وكل منها ترفع الحزب الذي تنتمي إليه إلى أرفع ممَّا يبلغه التصور، وتحط من قيمة الأحزاب الأخرى حطًّا لا تراعي فيه إلًّا ولا ذمة؛ هل تُسوِّغ لك هذه النظرة السطحية أن تقول: إنَّ هذه الأمم قد مزقتها العصبيات، وفرقتها المنافسات، وإنَّها لا تلبث أن تنحل انحلالًا لا دواء له؟ لا، لأنَّ الوحدة الاجتماعية متى استحكمت تنقلب إلى ما يُشبه الاندماج المادي فلا تتفكك من تلقاء نفسها بأيِّ عامل من العوامل الذاتية، ولا بد لتفكيكها من عوامل خارجية تقهرها على قبول هذه الحالة، ولكنَّها تعود إلى الوحدة متى زال عنها ذلك العامل الخارجي.

نعم قد يحدث أنْ تستقلَّ بعض أجزاء الأمة عن بعضها الآخر بسبب فتنة داخلية، ولكن تلك الأجزاء تميل دائمًا للالتئام، ويظهر ذلك الميل بميل بعضها إلى إدخال البعض الآخر في حظيرته بالقوة، ولا تزال تلك الأجزاء بين جذبٍ ودفع حتى يتم الأمر برجوع وحدتها إليها.

مثال ذلك: الأمة الإسلامية نفسها في أول تكونها؛ فإنَّها بعد أن انصبَّ مجموعها في قالب الوحدة الاجتماعية بتشابك مصالحها المادِّيَّة والمعنوية حدثت فيها أحداثٌ كان يكفي بعضُها لأن يرجعها إلى تفككها الأول! وتلك الأحداث كاستئثار القرشيين بالحكم بعد النبي ﷺ على منافاة الإسلام نفسه لهذا الاستئثار، فلم يسعَ الأنصار إلا تضحية منفعتهم في سبيل الوحدة، فخضعوا لرأي مناظريهم، و[هم] في مستقر عزهم وصولتهم. ثم حدثت فتنة ارتداد القبائل العربية بعد وفاة النبي ﷺ، فدفعت طبيعة الوحدة الاجتماعية الطائفة التي هي نواتها الأصلية إلى إخضاع ما شذَّ عنها بالقوة فتم لها الغَلَبُ.

ولما قُتل عمر وتولَّى الخلافة عثمان وكرهت النَّاس حكومته واضطربت أحوال الأقاليم، كانت هذه الفوضى تكفي لتفكيك عُرَى تلك الوحدة الناشئة إن كانت مصطنعةً، ولكن شيئًا من ذلك لم يكن، بل حدثت ثورةٌ ردت الأمر إلى نصابه.

ولما انتُخِبَ علي بن أبي طالب للخلافة وخرج عليه معاوية وعائشة وطلحة، والزبير والخوارج، لم يدعهم وشأنهم، بل انتدب لإعادة الوحدة إلى حالتها، فتغلَّب على جميع الخارجين عليه إلا معاوية، ولو عُمِّر قليلًا لتغلَّب عليه أو لخضع له في سبيل الوحدة العامة.

فلما تولى الحسن بن علي كانت الفرصة سانحة لتفكك تلك الوحدة، ولكنها لم تحدث، بل ضحى ذلك الأمير بمصلحته الشخصية، وتنازل عن الملك لمعاوية؛ صيانة لتلك الوحدة.

ولما مات معاوية وتولى الأمر ابنه يزيد، وكان متهتكًا ساقطًا، فشعر المجموع بأنَّ التضحية في الخضوع لهذا الطاغية تفضي إلى أسوأ النتائج، فتفككت الوحدة الاجتماعية، فخرجت المدينة ومكة ومصر والعراق، وتعدَّد الدعاة إلى أنفسهم، ولكنَّ طبيعة الوحدة اضطرت هذا المترَف للعمل على إخضاع الخارجين، فأتم إخضاع المدينة، ومات وهو يَجِدُّ في إخضاع مكة.

ولما خلفه ابنه خالدٌ ومروان بن الحكم لم يتمكَّنا من إرجاع الوحدة إلى ما كانت عليه؛ لتنازل الأول بعد أيام، ولموت الثاني بعد قليل من ولايته. فلمَّا خلفه ابنه عبد الملك سعى لهذا الأمر سعيَه؛ فرجعت الوحدة لتماسكها الأول، واستقرت على تلك الحالة.

هذه طبيعة كل وحدة اجتماعية تقوم على أساسٍ ثابتٍ وإيمانٍ صحيح.

بقيتْ مسألة المنافسات الشِّعرية التي يصادفها القارئ في كتب المحاضرات محاطة بلفائف من التلفيقات والتهويلات، وهي ليست بشيءٍ سوى أغراضٍ ملازمةٍ لكل مجتمع إنساني قريب عهدٍ بالحياة القبيلية.

على أنَّ النظرة السطحية في تلك الحكايات تريك أنَّها ملفقةٌ تلفيقًا خاليًا من كل مهارةٍ وذوق.

مثال ذلك ما نقله الدكتور طه حسين أنَّ عبد الرحمن بن حسان شبَّب برملة بنت معاوية نكايةً فيه، وتبعًا لذلك نكاية في ابنه يزيد أخيها الذي يقول عنه الدكتور طه حسين: إنَّه كجده أبي سفيان في أنَّه كان مطبوعًا على القوة والجاهلية والفتك. قال الدكتور: «فاصطنع معاوية الحِلْم وقال له: أين أنت من أختها هند؟»

لعمري إنَّه يجب أن يكون لدى القارئ قسطٌ غير قليل من البَلَه ليستطيع أن يصدِّق أنَّ معاوية بن أبي سفيان زعيم قريش وأمير المؤمنين يقابل — شاعرًا فاسقًا ساقط المنزلة ينتهك حرمته بأشنع ما يأنف منه الرجل الساذج بَلْهَ الشريف العظيم — بمثل هذا الدم البارد، ويغريه بالتغزُّل بأختها؛ أي بابنته الثانية! فأين كان يزيد الذي يوصف بالقوة والفتك ليدافع عن كرامة أخته، ويحمي عرضها من لسان رجل لا في العير ولا في النَّفير؟

ولا ننسى هنا أنْ نقول في هذه المناسبة: إنَّ الدكتور يصف يزيد بأنَّه كان صورة لجده أبي سفيان في العصبية والفتك والسخط على الإسلام. ولكن المعروف بالإجماع أنَّ

أبا سفيان أسلم وهدم بعض الأصنام وأبلى في المعارك لنصر الإسلام بلاءً حسنًا حتى فقد كلتا عينيه، وأنه وُلِّيَ — لأمانته وصدق عزيمته — على صدقات نجران باليمن فأدَّى كل ما عهد إليه بجِدٍّ وباستقامةٍ حتى توفَّاه الله؛ فمن أين استنتج الدكتور طه حسين أنَّه كان رجُل عصبية وقوة وفتكٍ، وأنَّه كان يكره الإسلام وما سنه للنَّاس من سنن؟! لعمري لو صح أن نفسيته كانت على ما يصفها به الدكتور طه حسين مع سلوكه هذه السيرة حيال النبي ﷺ، وحيال الإسلام، وحيال الوثنية، وحيال أنصار الجاهلية؛ لوجب أن نصم أبا سفيان هذا بأنَّه كان أجبن الجبناء، وأضعف المنافقين، وأخس من مشى على الغبراء!

يقول الدكتور طه حسين: «ولقد يستطيع الكاتب السياسي أن يضع كتابًا ضخمًا في هذه العصبية بين قريش والأنصار وما كان لها من التأثير في حياة المسلمين أيام بني أمية، لا نقول في المدينة ومكة ودمشق، بل نقول في مصر وأفريقيا والأندلس. ويستطيع الكاتب في تاريخ الأدب أن يضع سِفرًا مستقلًّا فيما كان لهذه العصبية بين قريش والأنصار من التأثير في شعر الفريقين الذي قالوه في الإسلام، وفي الشعر الذي انتحله الفريقان على شعرائهما في الجاهلية، وقد تجاوزت العصبية هؤلاء إلى العرب كافةً، فتعصبت العدنانية على اليمانية، وتعصَّبت مضر على بقية عدنان، وتعصبت ربيعة على مضر، وانقسمت مضر نفسها فكانت فيها العصبية القيسية والتميمية والقرشية، وانقسمت ربيعة فكانت فيها عصبية تغلِب وعصبية بكرٍ، وقُلْ مثل ذلك في اليمن؛ فقد كانت للأزد عصبيتها ولحميرٍ عصبيتها ولقضاعة عصبيتها. وأنت تعلم حق العلم أنَّ هذه العصبيات هي التي أزالت سلطان بني أمية؛ لأنَّهم عدلوا عن سياسة النبي التي تريد محو العصبيات، وأرادوا أن يعتزُّوا بفريق من العرب على فريق. قوَّوا العصبية ثم عجزوا عن ضبطها، فأدالت منهم، بل أدالت من العرب للفرس.»

ونحن نقول: إنَّ مؤدى هذا الكلام أنَّ العصبية الجاهلية التي أماتها الإسلام عادت ففشت في العرب بين قبائلهم الكبرى، وطَمَّت حتى فرقت بين بطون وأفخاذ تلك القبائل، فأصبح الكافةُ على شرٍّ ممَّا كانوا عليه من الانقسام والتدابر. ولكن الكاتب السياسي الذي يذكره الدكتور طه حسين لا يستطيع أن يقيم لهذا الكلام وزنًا: لأنَّه يرى النتائج المحسوسة لا تتفق وهذه المقدمات المفروضة، وهو ليس لديه من ميزانٍ لتقدير قيمة العوامل الاجتماعية التي عملت في أمة من الأمم السابقة، ولا من مَحَكٍّ لتمييز صالحها

من فاسدها غير ثمرات الجهود التي بذلتها تلك الأمة؛ فهي الشاهد الذي لا يكذب المؤرِّخَ المحقِّقَ، وهي الواقع الذي لا معدلَ عنه إلى غيره في الحكم على جيل من الناس تختلف الأقوال في أمره.

فماذا يرى السياسي من الأمور الواقعية في عهد الدولة الأموية منذ استقام الأمر لعبد الملك بن مروان إلى انقضاء دولة بني أمية سنة (١٣٢هـ)؟

يرى أمرين لا سبيل إلى إنكارهما؛ أولهما: استمرار الوحدة الاجتماعية في الأمة العربية، وثانيهما: اتساع المملكة الإسلامية في عهدها إلى حَدٍّ لم تدركه دولةٌ قبلها.

ولكن كتب المحاضرات — كالأغاني، والعقد الفريد، والبيان والتبيين، وغيرها — تذكر لنا حكاياتٍ عن الشعراء والأدباء قد اختلق أكثرها المختلقون، وموَّه ما صح منها المموِّهون، فيقرؤها القارئ اليوم، فيخيَّل إليه أنَّ العصبية الجاهلية واختلاف الأهواء القبيلية كانت قد بلغت من الأمة الإسلامية في العصر الأموي إلى حد ليس بعده غايةٌ، ثم يُلقي بنظره على التاريخ فيجد أنَّ الأمة الإسلامية في ذلك العهد نفسه قد بلغت من المُلك إلى مدًى لم تستطع الدول التي جاءت بعدها أن تزيد عليه شبرًا واحدًا. فإذا كانت العصبيات قد وصلت إلى الحد الذي تخيِّله لنا حكايات الشعراء في العصر الأموي، فكيف تبقى معها وحدةٌ اجتماعيةٌ؟! وإذا كانت الوحدة الاجتماعية قد تفكَّكت عراها باشتداد تلك العصبيات؛ فكيف نمت قوى الأمة وفاضت حتى امتدت إلى خارج بلادها وبسطت سلطانها على أمم قوية لم تحمل نِيرَ أُمَّة قبلها قَطُّ؟!

هنا يجب علينا أن ننبِّه الذين يقرءون الكتب الأدبية المؤلَّفة في العهد العباسي — وهو ما بين القرن الثاني إلى السابع الهجري — إلى أمرٍ جديرٍ بالنظر، وهو أنَّ العباسيين كانوا يكرهون الأمويين ويحقدون عليهم إلى حد أنَّهم نبشوا قبور خلفائهم، وأخرجوا هياكلها العظمية، وصلبوها على قارعات الطرق، ثم أحرقوها وذَرُّوها في الهواء. وكان الذي يذكر للأمويين حسنة يُتَّهَمُ بأنَّه مشايعٌ لهم فيذيقونه ألوان العذاب. وكثيرًا ما كان مؤلفو المحاضرات يختلقون الأكاذيب على الأمويين ليتقربوا بها إلى أصحاب الدولة في العهد العباسي؛ فكل ما يُرى من المذامِّ في الدولة الأموية في كتب المحاضرات يجب أن يؤخذ بتحفُّظٍ. وإذا كان هذا فيما يتصل بأخبار الخلفاء والوزراء وأمور الدولة التي يمكن الاستدلال على حقيقتها من التاريخ، فما ظنُّك بما لا شاهد عليه من التاريخ كأخبار الشعراء، ونوادر الأدباء، وحوادث القبائل البعيدة عن كُتَّاب تلك المحاضرات؟! أفلا يحسن

بنا أن نطبِّق أسلوب ديكارت على هذه الأقاصيص فلا نغلو في اعتبارها مصادر جديرة بالثقة المطلقة في حين أنَّ الواقع يكذبها وحوادث التاريخ تشهد ببطلانها؟!

يقول الدكتور طه حسين: «فأدالت هذه العصبيات من بني أمية، بل أدالت من العرب للفرس.»

يريد الدكتور طه حسين بقوله: «بل أدالت من العرب للفرس» أنَّ الفرس صارت لهم الدولة على العرب بتغلُّب رجالٍ منهم على الخلفاء؛ كبني بُوَيْه الذين تغلبوا على الخلفاء العباسيين، وكغيرهم من الذين توزَّعوا الممالك الإسلامية وحكموها باسم الخلافة ظاهرًا، أما باطنًا فكانوا أصحاب الحَلِّ والعقد في جميع الممالك الإسلامية.

وهذا الكلام خطأٌ من الوجهة الإسلامية الدينية، ومن الوجهة الاجتماعية؛ فأمَّا من الوجهة الإسلامية الدينية فإنَّ الإسلام جاء معلِنًا وحدة النوع البشري كله، فلم يعتَدَّ بالفوارق الجنسية، ولا بالميِّزات الاجتماعية؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقد أعطى النبي ﷺ مثالًا من هذه الوحدة العامة؛ فولَّى المدينة رجالًا ذوي جنسيات مختلفة بين رومية وفارسية وحبشيةٍ كصهيب وسلمان وبلال، وولى على اليمن الهرمزان وهو فارسي الأصل.

والفرس الذين حكموا العرب كانوا مسلمين مثلهم، وقد حذقوا العربية حتى صاروا أعلم بها من أبنائها، وأتقنوا العلوم الدينية حتى صاروا أئمتها وحفظتها.

فالمسلمون في هذا الموطن لا يقولون: إنَّ الفرس حكموا العرب؛ لأنَّه لا جنسية في الإسلام، وإنَّما يقولون: إنَّه قد حكمهم أصلحُهم للحكم، غير ناظرين إلى شيء من الفوارق الوهمية التي أوجدتها العصبيات الجاهلية.

أما خطأ الدكتور طه حسين من الوجهة الاجتماعية فلا يحتاج لكبير تأمل؛ فإنَّ العلم لا يعنيه — في تقدير العناصر المؤلِّفة للجماعات — الأجناس والألوان، وإنَّما يعنيه الروح المحرِّك للمجتمع، والأصل الذي يقوم عليه بناؤه، والغاية التي تتجه إليها الميول العامة. فإذا نظرنا من هذه الوجهة إلى العرب والفرس بعد دخولهم في الإسلام نجد الأَخِيرين قد فَنُوا في الأولين فناءً لم تعد معه جنسيتهم بمُغْنِيَة عنهم شيئًا؛ فقد تسمَّوا بأسماءٍ عربية، وأتقنوا لغة القرآن حتى أصبحوا أكبر حفظتها، وتبحروا في العلوم الإسلامية حتى صاروا أعظم أئمَّتها، وانقلبوا أغْيَرَ على القرآن والعربية والإسلام منهم

على أعزِّ شيء لديهم. فلا يُقال لمثل هؤلاء — إن سبقوا العرب إلى عروش الملكيات، ودُسُوت[٧٩] الوزارات: إنَّه قد صارت لهم الدولة على العرب، بل يُقال: إنَّهم قد فنوا فيهم وأضاعوا شخصيتهم الفارسية، وأضحَوا أعضاء في مجتمع إنساني محضٍ ليس فيه اعتبارٌ للجنسيات واللغات والألوان. وتغلبهم على العرب في الحكم لم يتم لهم بفضل جنسيتهم، ولا لغتهم، ولا روحهم الفارسية؛ ولكن بفضل مبدأ اللاجنسية الذي قرره الإسلام، وبفضل لغة القرآن وروح الوحدة العامة التي أتى بها محمدٌ عليه السلام. فلا يصح بعد هذا أنْ يُقال مثلُ ما يقول الدكتور طه حسين: «بل قد أديل من العرب للفرس.» وإنَّما يُقال: تسابق الأخَوان لتولي الحكم وزعامة العلم، فسبق أحدهما الآخر؛ لمرانه عليهما وتبريزه فيهما على جميع العناصر المكونة للمجتمع الإسلامي. ولم تحس بنية العالم الإسلامي بأي اضطراب من جراء تغلب بعض العناصر على بعضها الآخر في تولِّي الحكم وفي قيادة الأرواح والعقول بالتبريز في علوم الدين واللغة؛ لعدم وجود المقتضي لذلك في مجتمع تقرر فيه مبدأ اللاجنسية.

يقول الدكتور طه حسين: «وإذا كان هذا تأثير العصبية في الحياة السياسية فأنت تستطيع أن تتصوَّر هذه القبائل العربية في هذا الجهاد السياسي العنيف تحرص كل واحدة منها على أن يكون قديمُها في الجاهلية خير قديم. وقد ضاع الشعر الجاهلي بموت رواته في الحروب، وهذه القبائل في حاجة إلى الشعر تُقدِّمه وقودًا لهذه العصبية المضطرمة، فاستكثرت من هذا الشعر ونحلته شعراءها القدماء.»

ونحن نقول: إنَّ العصبية لم يكن لها تأثيرٌ في الحياة السياسية لدى العرب الأولين كما أثبتنا ذلك بتوسُّع في كلامنا السابق؛ فكل الذي أمامنا هو أنَّ أحد الولاة — وهو معاوية — خرج على الخليفة القائم بالأمر محفوزًا بمطامع طافت برأسه انتحل لها سببًا مزوَّرًا، فلم يطُل عُمر ذلك الخليفة حتى يُخمِد ثورة معاوية، فاتفق كبار الصحابة على تولية ابنه الخلافة، فرأى هذا أنَّ حقن دماء المسلمين أولى من التمسُّك بحقه في الخلافة؛ فتنازل عنها لخصمه وخصم أبيه، وقبل هذا التنازل جميعُ المسلمين؛ فلو كان للعصبية سلطانٌ فيما نحن بصدده لتجددت العداوة بين معاوية والحسن.

[٧٩] دَسْتُ الوزارة: منصبها.

فلما تولَّى يزيد بن معاوية لم يُطِقِ العالم الإسلامي أن يحمل نير هذا الطاغية لفسقه وفجوره، وكان الحسن قد مات، فخرج عليه الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، لا لأنَّه من بني أمية، ولكن لعدم صلاحيته للخلافة. فلما مات يزيد خلفه ابنه خالدٌ ثم قريبه مروان بن الحكم، فلم يطُل عهدهما، ولما تولى عبد الملك بن مروان تمكن بواسطة قائده الحجاج بن يوسف الثقفي — ولم يكن من بني أمية — من إخضاع المنشقِّين، واستقام له الأمر وورثه أبناؤه وأبناء أبنائه؛ فاتسعت مملكة المسلمين في عهدهم حتى صارت أكبر من مملكة الإسكندر المقدوني، فأي تأثير للعصبية الموبِقة في هذه الحياة السياسية المركزة؟!

فإن كانت القبائل في ذلك الوقت تنتحل الشعر فلم يَكُ ذلك لأسباب سياسية ولكن لأسباب أخرى معقولة، وهي الإشادة بذكر آبائها لإثبات أصالتها في العلم والأدب وعراقتها في الفضيلة والحسب. وهذه العوامل تكفي لتعليل كل الأكاذيب والتلفيقات التي عثر عليها الدكتور طه حسين وغيره في كتب المحاضرات. أما تطرُّف شعراء بعضها لِذكر مثالب بعضها الآخر، فله سببٌ ليس منه العصبية ولا السياسة في شيء؛ وهو أنَّ الذي اجترأ على ذلك هم الشعراء، والشعراء في الأجيال السالفة كانوا من طائفة المتسوِّلين، حتى إنَّ أشراف القبائل كانوا يأنَفُون من قول الشعر؛ ترفُّعًا من أن ينسبوا لتلك الفئة التي كانت تُعتبر ساقطة في نظرهم؛ فقد رُوي أنَّ حُجْرًا أبا امرئ القيس أَنِفَ أن يقول ابنُه الشعر واستتابه مِرَارًا، فلما أعياه أمره أمر بقتله، فرحمه الموكَّل به وأطلقه. يجوز أن تكون حكاية امرئ القيس هذه ملفَّقةً، ولكن الثابت المقرر أنَّ أشراف النَّاس كانوا يأنفون من قول الشعر، وقد عده الصدر الأول مزريا بأهل العلم؛ فقال الإمام الشافعي [من الوافر]:

وَلَولَا الشِّعر بالعُلَمَاء يُزري   لَكُنت اليَومَ أَشْعَر مِنْ لَبيدِ[٨٠]

[٨٠] مطلع ثلاثة أبيات في ديوانه ص٣٩ طبعة مكتبة الآداب، تدقيق: صالح الشاعر، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

ومثل هذه الطائفة التي كانت تتخذ الشِّعر وسيلة للارتزاق لم يكن لها حريجةٌ من دينٍ ولا من عقل ولا من أخلاقٍ، فكانت ترمي القول جزافًا وتسرف فيه إسرافًا؛ حتى إنَّ عمر بن عبد العزيز لَمَّا ولي الخلافة في آخر القرن الأول قصده الشعراء بمدائحهم، فحجبهم عنه، فلما ألَحَّ عليه ابن أرطاة في إدخالهم أنشد لكل منهم بيتين أو ثلاثة فيها ما يؤخذ على قائله، وأقسم أن لا يدخل عليه، حتى انتهى إلى جرير، فأنشد له قوله [من الكامل]:

طَرَقَتكَ صَائدة القُلوبِ وَلَيسَ ذَا   وَقْتَ الزِّيارَةِ فَارْجِعِي بِسَلَامِ[٨١]

ثم قال: لا بأس بهذا، فليدخل.

فلا يصح لنا أن نقف أنفسنا لتصيُّد أقوال صدرت من هذه الطائفة فنؤوله تأويلًا، ونوجِّهه توجيهًا، ونعتصره اعتصارًا لنستخرج منه تاريخًا للعصبية عند العرب، تلك العصبية التي لو صحت لتمزَّقت وحدة المسلمين شذر مذر،[٨٢] ولم يبقَ لنا عنهم اليوم عين ولا أثرٌ. وقد أثبتنا لك أنَّ تلك الوحدة قد عجزت كلُّ العوامل المحلِّلة عن العبث بها، وقد انتابتها على وجوهٍ شتى.

إن شئت أن أعطيك مثالًا محسوسًا من ذلك فانظر إلى أشعار جرير والفرزدق والأخطل وهم يتهاجَوْن، تجد أنَّ كلَّ واحدٍ منهم قد سب قبيلة خصمه، وألصق بها أشد ما يتصوره العقلُ من المخازي، ولم يكن ذلك لسبب سياسيٍّ؛ فكذلك فعلت طبقات الشعراء الذين تقدموهم، وطبقات الشعراء الذين خلفوهم.

وهذا لا يمنع أنَّ بعض الرؤساء يكون قد أوعز إلى شاعر بهجاء قبيلة، حمله على ذلك حِقدُه على سيدها، أو غرضٌ آخر في نفسه، ولكن هذا كان لا يُغيِّر رأي النَّاس في تلك القبيلة ولا يطمس معالم مجدها.

[٨١] ينظر ديوان جرير، ت. د. نعمان محمد أمين طه، ط دار المعارف، القاهرة ط٣، ١٩٨٦م، ج٢ ص٩٩٠.

[٨٢] «يُقال: تفرقوا شَذَرَ مَذَرَ: ذهبوا مذاهب شتى مختلفين، ولا يُقال ذلك في الإقبال» المعجم الوسيط [ش ذ ر، م ذ ر].

وقد سجل القرآن على شعراء ذلك الجيل حُكمًا لم تقم لهم بعده قائمةٌ، وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقد عرف عرب الجاهلية قبل القرآن خفة وزن الشعراء، وأنَّهم ممن لا يصح التعويل على أقوالهم، ولا الثقة بآرائهم؛ فقالوا فيما قالوه من المذَامِّ التي وجهوها للنبي ﷺ كما حكى عنهم القرآن: إنَّه ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]؛ أي قالوا إنَّ محمدًا شاعرٌ لا يصح الركون إلى أقواله؛ لأنَّها خيالاتٌ كخيالات الشعراء، فلنصبر عليه غير حافين به حتى يموت فنرتاح منه. وقالوا عن القرآن: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥] أي قالوا إنَّ ما أتى به محمدٌ أوهامٌ كالأحلام، بل إنَّه افترى هذه الأقوال من عنده، بل هو شاعرٌ يقول ما ليس بحق؛ فلا يصح أن يُؤبه لقوله.

هذا كان مقام الشعر والشعراء في الجاهلية والإسلام، فهل نأتي نحن في القرن العشرين فنجعل الشعر دليلًا على أمورٍ جسامٍ، وانقلاباتٍ عظامٍ، بينما لم يكن له أدنى تأثير خارجَ دائرة الخيال؟!

وليس يعني هذا أنَّ الإسلام يستهجن الشعرَ ويراه من لغوِ الكلام، بل هو يريد أن تكون له أغراضٌ ساميةٌ، ومرامٍ عاليةٌ؛ فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ من الشعر لحكمة وإنَّ من البيان لسحرًا»،[٨٣] وكان يجب أن يُنْشَدَ من جيد الشعر، وقد نوَّه به فقال: إنَّ أصدق بيتٍ قالته العرب قول لبيد [من الطويل]:

أَلَا كُلّ شَيءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ   وَكُلُّ نَعيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائلُ[٨٤]

[٨٣] ورد في المعجم الكبير للطبراني، وفيه أيضًا برواية: «إنَّ من البيان لسحرًا وإنَّ من الشعر لحكمة.» رقم: ٧٥٦، ١٠٠٢٥، ١٠٠٩٤.

[٨٤] ينظر ديوان لبيد، ت. د. إحسان عباس، ط الكويت سلسلة التراث العربي، عدد ٨، ١٩٦٢م، ص٢٥٦. وينظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث ٩٨٦٧، وفيه: «قالته الشعراء.»

ولما أنشده الشاعر قوله [من الطويل]:

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا[٨٥]

استحسنه جدًّا وقال له: لا فَضَّ الله فاك. وَحَثَّ عمرُ بن الخطاب الآباء — وهو من أورع الناس — على أن يرووا أولادهم الشعر لتعذُب ألسنتهم وتتلطف طباعهم.

وقد أنشأ كثيرٌ من عُبَّاد المسلمين وزهادهم ومتصوِّفتهم قصائد ضافية الذيول، وجُمِعت لكثير منهم دواوين.

الخلاصة: أنَّ الإسلام لا يذم من الشعر إلا ما فيه هجوٌ أو مجونٌ أو كذبٌ أو حثٌّ على شرب الخمر، أو الجري مع الهوى.

أما مسألة سيادة بني أمية على جميع العرب فليس فيها شيء أكثرُ من سيادة أسرة مالكة في أمة من الأمم. وأي هضيمة لحقت الأمة الإسلامية من جرَّاء أن كان أميرها من بني أمية، ودينها قد محق لها الفوارق الجنسية والقبيلية، ونص فيما يختص بمسألة الإمارة على ذلك نصًّا لا يقبل التأويل وهو قوله ﷺ: «اسمع وأطع ولو لعبدٍ حبشي كأن رأسه زبيبةٌ»؟[٨٦] فإن صح هذا الحديث عن النبي فهو الدِّين، وإن لم يصح فقدر قدر رسوخ أمةٍ في هذا الأصل العمراني بحيث تكذب على رسولها مثل هذا المبدأ العظيم!

ثم نهضت الأسرة العباسية لإسقاط الأسرة الأموية، وأنجحت في ذلك بعد حربٍ ضروسٍ، فلم نَرَ ولم يَرَ أحدٌ في ذلك أمرًا مخالفًا لسُنَنِ البشر؛ فهو عامٌّ في جميع الأمم، ولم يعزه أحدٌ في تلك الأمم لتفاقم أمر العصبية، ولا جعلوه سببًا للتلفيقات الشعرية؛ ذلك لأنَّ منطقة تأثير الشِّعر محدودةٌ، ولأهله دائرة اختصاصٍ معروفةٌ، وللعوامل التي

---

[٨٥] هذا البيت من الأبيات السائرة، قاله النابغة الجعدي والبيت التالي له:

ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أورد الأمر أصدرًا

العقد الفريد، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج١ ص١١١، وينظر: دلائل النبوة للبيهقي، باب ما جاء في دعائه ﷺ لنابغة بني جعدة: والنابغة نفسه هو الذي أنشد النبي ﷺ.

[٨٦] ينظر صحيح البخاري ٦٩٦ قاله ﷺ لأبي ذر. وليس فيه «لعبد».

تبعثهم للمدح والذم مصدرٌ لا يخفى على أحدٍ؛ ولذلك لا يعبأ العلم بهم ولا بأقوالهم إلا بقدرٍ لا يتعداه. خذ مثلًا لذلك: لقد مدح أبو الطيب المتنبي كافورًا الإخشيدي بقصائد هي عيون شعره، لم يقل مثلها شاعرٌ لملكٍ، ثم ذمَّه ذمًا جرَّده فيه من كل فضيلةٍ إنسانية، فهل أثَّر ذلك في مقام كافورٍ وحط من قيمته، وهل عوَّل علم التاريخ عليه [أي: على هذا الشعر] في استنتاج حكم من الأحكام؟!

فَقِسْ على هذا جميع الشعر المختلق وغير المختلق؛ فهو لا يدل على شيء غير ما يعرف عن أخلاق أهله في ذلك العهد. فمن الخطأ البيِّن أن يخوض الدكتور طه حسين هذا الخوض في تكوين الأمة الإسلامية الأولى، ويجوس خلال أدوارها وحوادثها هذا الجوس المجهد ليثبت أمرًا قليل القيمة، قاله قبله أهل القرن الأول والثاني، وهو أنَّ الشعر الجاهلي مختلقٌ منحولٌ، وأنَّه قد حمل على شعراء لم يقولوه. هذه ثمرةٌ تافهةٌ لمجهودٍ هائلٍ أوجَب على الدكتور طه حسين أن يصدر أحكامًا لا تتفق والحوادث، ولا تلتئم وعلم التاريخ، مع أنَّ هذا الاختلاق كله يمكن تعليله بحب الرواة للإغراب وللاستكثار من الرواية!

الدِّينُ وانْتِحَالُ الشِّعر[١]

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان ما مُلخصه:

«لم تكن العواطفُ والمنافعُ الدينية أقلَّ من العواطف والمنافع السياسية أثرًا في تكلُّف الشعر وانتحاله وإضافته إلى الجاهليين؛ فكان هذا الانتحال في بعض أطواره يُقصد به إلى إثبات صحة النُّبُوَّة وصدق النبي، وكان هذا النوع موجَّهًا إلى عامة النَّاس، ومن هذا كلُّ ما يُروَى مِنَ الشِّعر الجاهلي ممهِّدًا لبعثة النبي. وفي سيرة ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ والسير ضروبٌ كثيرةٌ من هذا النوع. وهناك شعرٌ آخر أضيف إلى الجاهليين من شعراء الجن.[٢]

وكما أنَّ القُصَّاص والمنتَحِلين قد اعتمدوا على الآيات التي ذُكِرَت فيها الجن ليخترعوا ما اخترعوا من شِعر الجن وأخبارهم المتصلة بالدين؛ فهم قد اعتمدوا على القرآن أيضًا فيما رَوَوْا وانتحلوا من الأخبار والأشعار والأحاديث التي تُضاف إلى الأحبار والرُّهبان الذين كانوا يتوقعون بعثة النبي ويدعون الناس إلى الإيمان به.[٣]

ونوع آخر من تأثير الدِّين في انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين، وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه؛ فلأمر ما اقتنع النَّاس بأنَّ النبي يجب أن يكون صفوة بني هاشم، وبنو هاشم صفوة بني عبد منافٍ، وبنو عبد مناف صفوة بني

---

[١] شغل مضمون هذا العنوان في كتاب الدكتور طه حسين من ص٦٩ حتى ص٨٩.

[٢] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٦٩، ٧٠.

[٣] ينظر السابق ص٧٢.

قُصي، وقصي صفوة قريش، وقريشٌ صفوة مضر، ومضر صفوة عدنان، وعدنان صفوة العرب، والعرب صفوة الإنسانية. وأخذ القُصَّاص يجتهدون في تثبيت هذا النوع من التصفية والتنقية وما يتصل منه بأسرة النبيِّ خاصة،[٤] والقصص عند العرب تستتبع الشعر، ولا سيما إذا كانت العامة هي التي تراد بهذه القصص.[٥]

وقد أرادت الظروف أن تكون الخلافة والملك في قريش، وأن يستقر الملك حينًا في بني أمية، وينتقل منهم إلى بني هاشم، ويشتد التنافس بين أولئك وهؤلاء، ويتخذ أولئك وهؤلاء القصصَ وسيلة من وسائل الجهاد السياسي. فأمَّا في أيام بني أمية فيجتهد القُصَّاص في إثبات ما كان لأمية من مَجْدٍ في الجاهلية، وأما في أيام العباسيين فيجتهد القُصَّاص في إثبات ما كان لبني هاشم من مجدٍ في الجاهلية، وتشتدُّ الخصومة بين قصاص هذين الحزبين السياسيين، وتكثر الروايات والأخبار والأشعار.[٦]

وكانت البطون القرشية على اختلافها تنتحل الأخبار والأشعار وتغري القصاص وغير القصاص بانتحالها.[٧]

ولأضرب لك مثلًا واحدًا يوضح ما قلت من أنَّ بطون قريشٍ كانت تَحُثُّ على انتحال الشعر منافسةً للأسرة المالكة أموية كانت أو هاشميةً. وهذه القصة التي سأرويها تمس بني مخزوم من قريش.[٨]

[٤] يراجع رد الشيخ محمد الخضر حسين — رحمه الله — على هذا الكلام في كتابه «نقض كتاب في الشعر الجاهلي»، ط المكتبة الأزهرية للتراث، ص١٩٦ وما بعدها. ويكفي أن تعلم من رده أن هذا الذي عابه الدكتور طه حسين هو كلام النبي ﷺ أو مأخوذ من كلام النبي ﷺ في حديث صحيح! روى الإمام أحمد في حديث واثلة بن الأسقع أنَّ النبي ﷺ قال: «إنَّ الله — عز وجل — اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشًا، واصطفى من بني قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم.» رقم: ١٦٩٢٤. ولعل هذه الرواية بالذات هي التي أحرجت المستشرفين الذين تابعهم الدكتور طه حسين؛ إذ فيها التعريض باليهود «بني إسحاق».

[٥] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٧٢، ٧٣.

[٦] السابق ص٧٣.

[٧] السابق ص٧٣، ٧٤.

[٨] السابق ص٧٤.

تحدث صاحب الأغاني بإسنادٍ له عن عبد العزيز بن أبي نَهْشَل قال: قال لي أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: يا خال، هذه أربعة آلاف درهم وَأَنْشِدْ هذه الأبيات الأربعة وقُلْ سمعت حسانًا ينشدها رسول الله ﷺ، فقلت: أعوذ بالله أن أفتري على رسول الله، ولكن إذا شئت أنْ أقول سمعت عائشة تُنشدها فعلت، فأبى وأبيت. ثم أرسل لي وقال: قل أبياتًا تمدح بها هشامًا وبني أمية واجعلها لأبيك. فقلت [من الهزج]:

أَلَا لـلــهِ قَــومٌ وَ ... لَدَتْ أُخْتُ بَنِي سَهْمِ
هِـشَـامٌ وَأَبُـو عَـبْـدِ ... مَنَافٍ مِدْرَهُ الخَصْمِ

إلخ إلخ.

ثم جئته فقلت: هذه لأبي. فقال: لا، ولكن قل: قالها ابن الزِّبَعْرَى. قال: فهي الآن منسوبة في كتب الناس إلى ابن الزِّبَعْرَى شاعر قريش.[9]

نَحْوٌ آخر من تأثير الدِّين في انتحال الشعر، وهو هذا الذي يختلقه القُصَّاص لتفسير ما يجدونه في القرآن من أخبار الأمم القديمة. فالرواة يضيفون إليهم شعرًا كثيرًا، وقد كفانا ابنُ سلام نقده وتحليله حين جدَّ في طبقات الشعراء في إثبات أنَّ هذا الشعر وما يشبهه ممَّا يضاف إلى تُبَّع وحمير موضوعٌ منتحلٌ وضعه ابن إسحاق ومن إليه من أصحاب القصص.[10]

ونحوٌ آخر من تأثير الدِّين في انتحال الشعر: وذلك حين ظهرت الحياة العلمية عند العرب بعد أن اتصلت الأسباب بينهم وبين الأمم المغلوبة، فأرادوا هم أو الموالي أو أولئك وهؤلاء أن يدرسوا القرآن درسًا لغويًّا ويثبتوا صحة ألفاظه ومعانيه؛ فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر العرب يثبت أنَّ هذه الكلمة القرآنية عربيةٌ لا سبيل إلى الشك في عربيتها. وقد عرفت رأينا في ذلك؛ وهو أننا نعتقد أنَّه إذا كان هناك نصٌّ عربيٌّ لا تقبل لغته شكًّا — وهو لذلك أوثق مصدر للغة العربية —

[9] السابق ص٧٤، ٧٥، وتجريد الأغاني ص٣٥، ٣٦.

[10] الوارد في الطبقات: «ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته، وإنَّما قُصِّدت القصائد وطُوِّلَ الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف، وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتُبَّع.» الطبقات ص٢٦. فلفظ «الانتحال» لم يرد. وينظر: في الشعر الجاهلي ص٧٦.

فهو القرآن. فكان يجب أن نستشهد به على ما يُسمّونه الشعر الجاهلي بدل أن نستشهد بهذا الشعر على نصوص القرآن.[11]

هنا نوعٌ جديدٌ من تأثير الدين في انتحال الشعر، وهو الخصومات بين العلماء في تفسير القرآن؛ ومن هنا كانوا حِراصًا على أن يظهروا دائمًا مظهر المنتصرين في خصوماتهم. وأي شيءٍ يتيح لهم هذا مثل الاستشهاد بما قالته العرب قبل نزول القرآن؟!

هذا ولم نصل بعدُ إلى أعظم هذه الفنون من الانتحال خطرًا وأبعدها أثرًا؛ وهو هذا النَّوع الذي ظهر عندما استؤنِف الجدال بين المسلمين وأصحاب المِلَل الأخرى. وقد ذهب المجادلون في هذا النوع من الخصومة مذاهبَ لا تخلو من غرابة؛ إذ أراد المسلمون أن يُثبتوا أنَّ للإسلام أولية في بلاد العرب كانت قبل أنْ يُبعث النبي، وأنَّ خلاصة الدين الإسلامي هي خلاصة الدين الحق الذي أوحاه الله إلى الأنبياء من قبلُ؛ فالقرآن يُحدِّثنا عن التوراة والإنجيل، ويذكر معهما شيئًا آخر وهو صحف إبراهيم، ويذكر غير دين اليهود والنصارى دينًا آخر هو مِلَّة إبراهيم، هو هذه الحنيفية التي لم نستطع إلى الآن أن نتبين معناها الصحيح. وقد أخذ المسلمون يَرُدُّون الإسلام في خلاصته إلى دين إبراهيم الذي هو أقدم وأنقى من دين اليهود والنصارى.[12]

وشاعت في العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أنَّ الإسلام يُجدِّد دين إبراهيم، ومن هنا أخذوا يعتقدون أنَّ دين إبراهيم هذا قد كان دينَ العرب في عصرٍ من العصور ثم أعرضت عنه وانصرفت إلى الأوثان. ولم يحتفظ بدين إبراهيم إلا أفرادٌ قليلون كانوا يتحدثون به قبل الإسلام؛ فأحاديث هؤلاء الناس قد وُضِعَتْ لهم وحُمِلَتْ عليهم حملًا بعد الإسلام لتثبت أنَّ للإسلام في بلاد العرب قُدمة وسابقة ... إلخ إلخ.»[13]

[11] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٧٦، ٧٧.

[12] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٧٩–٨١.

[13] ينظر السابق ص٨١.

رأينا في هذا الكلام

يقول الدكتور طه حسين: «لم تكن العواطف والمنافع الدينية أقلَّ من العواطف السياسية أثرًا في تكلُّف الشعر وانتحاله وإضافته إلى الجاهليين؛ فكان يُقصد به إلى إثبات النُّبُوَّة وصدق النبيِّ، وكان هذا النوع موجَّهًا إلى عامة الناس ومن هذا كلُّ ما يُروى من الشِّعر الجاهليِّ ممهِّدًا لبعثة النبيِّ. وهناك شعرٌ أُضِيف إلى الجاهليين من شعراء الجن.»

ونحن نقول: إننا نوافق الدكتور طه حسين على أنَّه قد اختُلق شعرٌ كثيرٌ من هذا النوع ولهذا الغرض، ولكنَّا ننتقد عليه إيراد هذا الموضوع على هذا النحو؛ فإنَّه يُشعر القارئ غير المُلِمِّ بتاريخ الدِّين الإسلاميِّ أنَّ الذي وضع هذه الأشعار هم قادة الدِّين للتأثير به على العامة، أو أنَّها وُضِعَتْ عن رضًى وممالأة منهم. والواقع أنَّ الذي وضعها صِنْفَانِ من الناس: أولهما أعداء الدين؛ لإفساده بإدخال عنصر الغُلُوِّ فيه، وإلصاق الخرافات به، وثانيهما جهلة المتديِّنين؛ ظنًّا منهم أنَّ الكذب في هذا المعنى حلالٌ لا شِيَةَ فيه.[١٤] وربما عَدُّوه وسيلة للمثوبة الحسنة عند الله. وقد نبه قادة الدِّين على هذين الأمرين وعَدُّوهما من العبث بالدِّين، والنُّكُوب[١٥] عن طريق المؤمنين.

على أنَّ طبيعة الدين الإسلامي تأبى هذا الغلو في تعظيم النبي ﷺ؛ لكثرة ما ورد في الكتاب والسنة من النهي عنهما؛ فقد صرح القرآن بأنَّ النبي لا يفترق عن سائر النَّاس إلا بالوحي؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقد نصَّ القرآن في آيات كثيرة على أنَّ النبيَّ لا حول له ولا حيلة، وعلى أنَّه عبدٌ مربوبٌ[١٦] قد يرتكب خلاف الأولى فيلومه الله ويؤدبه، وعلى أنَّه إنَّما أرسل لتبليغ الناس

[١٤] أي: لا حَرَجَ ولا ضَرَرَ.

[١٥] النُّكوب: الميل.

[١٦] «ربَّ الولدَ ربًّا: ولِيَهُ وتعهَّده بما يغذيه وينمِّيه ويؤدِّبه. فالفاعل: رابٌّ، والمفعول: مربوب.» المعجم الوسيط [ر ب ب].

أمر ربه لا للسيطرة عليهم، والتحكم في ضمائرهم؛ فقال تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢] ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧] ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥] ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠] ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الجن: ٢٥][١٧] «إن» هنا بمعنى «ما» النافية. ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠].

وقد زاد النبي ﷺ إيضاحًا فقال: «أنا فيما لم يُوحَ إليَّ كأحدكم.»[١٨] وقال لرجل جاءه وقد أصابته رعدةٌ من هيبته: «هوِّن عليك أنا لست بملك، إنَّما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد.»[١٩] وقال لقومٍ جاءوه فقالوا: «أنت سيدنا»: «لا تقولوا سيدنا فإنَّ السيد الله.»[٢٠]

وقد نبَّه عليه السلام على أنَّ الأحداث الطبيعية لا تحدث لميلاد أحد ولا لوفاته؛ فقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يَكسِفان لموت أحدٍ ولا لحياته؛ فإن رأيتم ذلك فاذكروا الله.»[٢١]

---

[١٧] ذكر المصنف — رحمه الله — آية الأحقاف: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الآية: ٩] ووضع «إن» موضع «ما»، وهو مجانِب للصواب، لأن «إن» في صورة الجن؛ ولذلك وضعت آية الجنِّ ولعل ذلك من تداخل الحفظ عند المؤلف رحمه الله. والله أعلم.

[١٨] المعجم الكبير للطبراني الباب الرابع رقم ١٦٥٤٨.

[١٩] سنن ابن ماجه رقم ٣٣١٢، وصحة الرواية: «هوِّن عليك فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد.»

[٢٠] ورد برواية أبي داود في حديث وفد بني عامر: «عن أبي نضرة، عن مُطَرِّف قال: قال أبي: انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا. فقال: السيد الله تبارك وتعالى. قلنا: وأفضلنا فضلًا وأعظمنا طولًا. فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا سوِّ الطور يستجرينَّكم الشيطان» سنن أبي داود باب كراهية التمادح.

[٢١] صحة هذه الرواية ما ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس — رضي الله عنهما: رقم ٣٢٠٢: «إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسِفان لموت أحدٍ ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله.»

فكلُّ ما يروى إذن من الإرهاصات التي سبقت النبوة، ومن الأشعار التي عزيت إلى الجاهليين؛ أكاذيبُ لا يصح الالتفاتُ إليها. ويكفي في إسقاطها أنَّها ركيكة المباني، سقيمة المعاني، ظاهرٌ عليها طابع الوضع، تدل على أنَّ مختلقيها ليسوا من الشعر في شيء، وأنَّها تنافي أصول الإسلام.

ويضاف إلى هذا الباب كلُّ ما ورد على ألسنة القُصَّاص معزوًّا إلى الأحبار والرهبان الذين كانوا يتوقعون بعثة النبي ﷺ؛ فكلُّ ما رُوي عنهم أحاديثُ خرافة تنافي طبيعة الدّين الإسلامي، وتدل بذاتها على أنَّ مختلقيها قصار العقول، ليسوا حتى من المهارة في التلفيق على شيء.

أما التغالي في الإشادة بذكر نسب النبي ﷺ فهو ينافي طبيعة الإسلام أيضًا، ويتنافر وروحه الديموقراطية المحضة؛ فقد نص كتابه على أنَّ الناس كلهم سواء بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقد شرح ذلك النبي ﷺ بقوله: «لقد أذهب الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها بالآباء؛ كلكم من آدم وآدم من تراب.»[٢٢]
وقال عليه الصلاة والسلام: «لا فضل لعربيٍّ على أعجميّ إلا بالتقوى أو بعمل صالح.»[٢٢]

فإذا كان الكتاب قد مَحَقَ الفوارق الجنسية وعَفَّى على آثار العصبية إلى هذا الحَدِّ، وصرَّح النبي ﷺ نفسُه بأنَّه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى أو بعمل صالح؛ فمن الفُضُول أن يُعنى رجلٌ مسلمٌ بتعظيم النبي من ناحية نسبه.[٢٣]

ومن الأدلة المحسوسة على أنَّ النبي لم يَمْتَزْ على سواه من ناحية أهله أمام العدل الإلهي ما تقرر من أنَّ عمَّه أبا طالب مات على غير الإسلام، وأنَّ الله أنزل قرآنًا في ذمِّ عمِّه الآخر أبي لهب فقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ١–٣].

[٢٢] سبق ذكره في رأي المؤلف في منهج البحث.

[٢٣] يراجع: الدين وانتحال الشعر.

يقول الدكتور طه حسين: «اشتد التنافس بين بني أمية وبني هاشم، واتخذ أولئك وهؤلاء القصص وسيلة من وسائل الجهاد السياسي. فأمَّا في أيام بني أمية فيجتهد القُصَّاص في إثبات ما كان لبني أمية من مجدٍ في الجاهلية، وأما في أيام العباسيين فيجتهد القُصَّاص في إثبات ما كان لبني هاشم من مجد في الجاهلية، وتشتدُّ الخصومة بين قُصَّاص هذين الحزبين السياسيين، وتكثر الروايات والأخبار والأشعار.»

ونحن نقول: أمَّا اشتدادُ التنافس بين أسرتين إحداهما تَوَدُّ الاستمرار في المُلك والأخرى تعمل على إسقاطها لتحل محلها فأمرٌ طبيعيٌّ حدث في كلِّ أمةٍ مُنِيَتْ بأسرتين متناظرتين على الزعامة العامة. وإغراؤهما الوضَّاعِين والمختلقين على الإشادة بذكرهما، والتنويه بفضلهما، أمرٌ طبيعيٌّ أيضًا. ولكن كُلَّ هذا لم يخفَ على الأئمة الناقدين في العصور الأولى، وقد نبَّهوا إليه في مؤلفاتهم؛ فكلام الدكتور طه حسين موافقٌ في هذه الناحية لرأي الأقدمينَ، ولكنَّه استشهد أولًا على تنافُس بطون قريش في حمل النَّاس على اختلاق الشِّعر على الجاهليين بقصة نقلها عن الأغاني بإسنادٍ له عن عبد العزيز بن أبي نهشل الذي ادَّعى أنَّ أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قد أغراه أن يمدح جَدَّه هشامًا وبني أمية وأن يعزو ذلك لأبيه، ثم حمله على أن يعزوه لابن الزِّبَعْرَى شاعر قريش ففعل.

فنحن نلاحظ على الدكتور في استشهاده بهذه القصة وأمثالها أمورًا:

أولها: جواز أن تكون القصةُ كلها مختلقة، وهو لم يُظهر الشك فيها.

ثانيها: اعتماده على إسناد صاحب الأغاني، وللثقة بالأسانيد طرقٌ لا بد من تحرِّيها. وقد كذب الرواة على النبي ﷺ فكيف لا يكذبون على الأدباء والزعماء؟! لا سيما وأبو الفرج الأصبهانيُّ مؤلف الأغاني كان شيعيًّا يلذُّه النَّيْل من كرامة بني أمية، والحط من قدرهم.

ثالثها: ثقته بما رواه عبد العزيز بن أبي نهشل عن نفسه مع أنَّه اعترف بأنَّه اقترح أن يكذب على عائشة وعلى أبيه بأربعة آلاف درهم، ثم أَقَرَّ بأنَّه كذب متعمدًا على ابن الزِّبَعْرَى شاعر قريش. ورجُلٌ هذه حاله من الإفك والبهتان، والتهتُّك في الاختلاق، لا يصح أن يُؤخَذ بقوله للاستشهاد به في كتاب أدبي يؤلَّف لأبناء القرن العشرين، ويُنهج فيه منهج ديكارت.

فكان الأولى بالدكتور طه حسين أن يستشهد بحادثة محقَّقة ليسوِّغ له أن يصدر حكمًا في باب من أبواب الاختلاق القديم.

وقال الدكتور طه حسين: «ونحوٌ آخر من تأثير الدِّين في انتحال الشعر؛ وهو هذا الذي يلجأ إليه القُصَّاص لتفسير ما ورد في القرآن من أخبار الأمم البائدة؛ فالرُّوَاة يضيفون إليهم شيئًا كثيرًا، وقد كفانا ابن سلام نقدَه وتحليله حين جَدَّ في طبقات الشعراء في إثبات أنَّ هذا الشعرَ وما يُشبهه مما يُضاف إلى تُبَّع وحمير موضوعٌ منتحلٌ وضعه ابن إسحاق ومن إليه من أصحاب القصص.»

ونحن نقول: إنَّ هذا مصداقٌ لما قلناه من أنَّ جميع الأشعار والأخبار التي رويت عن الجاهليين من الشعراء والأحبار في تعظيم شأن النبي ﷺ قد نبَّه النَّقَدَة من العلماء على أنَّها مختلقةٌ قد حُمِلَتْ على أصحابها زورًا وبهتانًا، وابن إسحاق هذا من أقدم كُتَّابِ السيرة النبوية. وهنا لا نتمالك أنفسنا من الإعجاب بالنَّقَدَة القدماء من المسلمين؛ فإنَّهم لم يُعفُوا من نقدهم حتَّى الأشعار والأخبار المثبِتة للدِّين؛ لأنَّهم يرون أنَّ هذه التلفيقات أَضَرُّ على الدين من الطعن فيه، وأنَّ الرجل محاسَبٌ على كل شيء ومسئولٌ عن دليله فيه.

وأمَّا ما قاله الدكتور طه حسين عن وضع الوضَّاعين للأشعار ونسبتها للجاهليين لإثبات عربية ألفاظ القرآن، وللانتصار على الخصوم في فهم معاني القرآن؛ فهذا كلُّه صحيحٌ، ولكنه لم يجرؤ عليه إلا أهل البُهتان من المشتغلين بالقرآن، وعلماء السوء الذين يَوَدُّون الظهور على خصومهم بأيِّ سلاح كان. وقد عرف ذلك النَّقَدَة الأقدمون ونبهوا إليه، ولم يُغفِل هذه الملاحظة الأستاذ مصطفى صادق أفندي الرافعي في كتابه آداب العرب.

وقال الدكتور طه حسين: «أعظمُ هذه الفنون من الانتحال خطرًا وأبعدها أثرًا هو هذا النوع الذي ظهر عندما استؤنف الجدال في الدِّين بين المسلمين وأصحاب الملل الأخرى. وقد ذَهَبَ المُجادلون في هذا النوع من الخصومة مذاهب لا تخلو من غرابة؛ إذ أراد المسلمون أنْ يُثبِتوا أنَّ للإسلام أوليةً في بلاد العرب كانت قبل أن يُبعث النبيُّ، وأن خلاصة الدِّين الإسلاميِّ هي خلاصةُ الدين الحق الذي أوحاه الله إلى الأنبياء من قبلُ، فالقرآن يحدِّثنا عن التوراة والإنجيل، ويذكر معهما شيئًا آخر هو صحف إبراهيم، ويذكر غير دين اليهود والنصارى دينًا آخر هو مِلَّة إبراهيم، هو هذه الحنيفية التي لم نستطع

للآن أن نتبين معناها الصحيح. وقد أخذ المسلمون يرُدُّون الدين في خلاصته إلى دين إبراهيم الذي هو أقدم وأنقى من دين اليهود والنصارى.»

«وشاعت في العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أنَّ الإسلام يجدد دين إبراهيم؛ ومن هنا أخذوا يعتقدون أنَّ دين إبراهيم هذا قد كان دين العرب في عصر من العصور ثم أعرضت عنه وانصرفت إلى الأوثان، ولم يحتفظ بدين إبراهيم إلا أفرادٌ قليلون كانوا يتحدثون به قبل الإسلام. فأحاديث هؤلاء النَّاس قد وُضِعَتْ لهم وحُمِلَتْ عليهم حملًا بعد الإسلام لتثبت أنَّ للإسلام في بلاد العرب قُدْمَةً وسابقة.»

ونحن نقول: إنَّ الأمر الذي يستغربه الدكتور طه حسين — وهو أنَّ للإسلام أولية كانت قبل أن يبعث النبيُّ، وأنَّه خلاصةُ الدين الحق الذي أوحاه الله إلى الأنبياء من قبلُ؛ هذا الأمر قد قرره القرآن نفسه، وجَدَّ في بثه في العقول، ونشره في الشرق والغرب، لا المجادلون من المسلمين الذين كانوا يجادلون أصحاب الملل الأخرى.

وهذا الأمر نفسه الذي يستغربه الدكتور طه حسين هو المبرِّر الوحيد لأن يتقدم الإسلام إلى الأمم، وهي تموج في خضمٍّ زاخر من الديانات، بعنوان أنَّه دينٌ عامٌّ لجميع العالمين، وأنَّ الآتي به هو خاتم النبيين.

وهذا الأمر الذي يستغربه الدكتور طه حسين هو مصدر القوة الخارقة للعادة التي أوجد بها الإسلام لنفسه مكانًا بين الأديان، وسوَّغت له أن يصف نفسه بأنَّه دين آخر الزمان. وإليك البيان:

جاء الإسلام والعالم غاصٌّ بالأديان، حافلٌ بالملل، قد توزعت أُمَمَه الكبرى أديانٌ رسخت أصولها، وشمخت صروحها، وعزَّت قاداتها، وتنوعت وجهاتها وغاياتها، حتى لم يبق بينها متنفَّس لدين جديد، ولا مُتَبَوَّأٌ لرأي طريف؛ فقد كانت البرهمية والبوذية في الهند، والبوذية والكونفسيوسية في الصين، واليهودية مبعثرة في الأقطار، والمسيحية في أوروبا، والوثنية في أفريقيا وهنا وهناك، ولكلٍّ منها دولةٌ وصولةٌ، ومذاهب وتقاليدُ، وبجانبها أديانٌ أخرى صغيرةٌ لا تدخل تحت حصر، وقد تنوعت في جميعها المذاهبُ، وتعددت الفرق بحيث لم يبقَ شيءٌ يمكن خُطُوره على البال عن الأمور الدينية والرُّوحية لم يخُضْ فيه قاده هذه الأديان، فهل كان موجِبٌ لحدوث دين جديد؟ وهل يُصادف هذا الدِّين لو ظهر مكانًا من العقول؟ وهل يجد مذهبًا في الأمور العلوية لم يأتِ به ما سبقه من المِلَل؟ وهل يمكن أن يتَّخذ غرضًا لم يخطُر على بال كل هؤلاء القادة من المتكلمين والكُهَّان؟

كانت الأديان قبل الإسلام محتكَرة في أيدي طوائف ممتازة من الشعوب نحلوا أشخاصهم حقَّ الوساطة بين الله وخلقه، ونصبوا أنفسهم قُوَّامًا عليهم في شئونهم الجسدية والرُّوحية معًا، وحصروا في جماعتهم حَقَّ تقرير العقائد، وفرض التقاليد والإيعاز إلى النَّاس بما يجب أن يعملوه، وما يجب أن يجتنبوه، مستسلمين لإرادتهم استسلام الطفل لمربيه، لا حق لهم في إجالة نظر، أو تعقُّل أثر، أو تفهُّم خبر، مسوقين إلى حيث يعلمون ولا يعلمون، مؤاخَذِين بما يفهمون وما لا يفهمون.

فلمَّا استحكمت حلقات هذا القهر، واستعدَّت النفوس للخلاص من هذا الأسر، وسُمِحَ للنفوس الرازحة تحت نِير العبودية، أن تتمتع بحُريتها الفطرية، وللمواهب الراسفة في أصفاد الجبرية، أن تتمتع بحقوقها الطبيعية، جاء الإسلام فأعلن للنَّاس كافة أن أصل الأديان كلِّها واحدٌ، وإنَّما اختلفت في أمورها التشريعية، تبعًا لحالة الجماعات من الناحية الاجتماعية، وأنَّ هذا الأصل هو أن يقوم الإنسان على الفطرة التي فطر الله النَّاس عليها؛ أي على الحالة الطبيعية التي يتأدى الإنسان إليها بما رُكِّب فيه من ميولٍ طبيعية، وخصائص جِبِلِّيَّة، ومواهب عقلية، فلا يحتاج في تديُّنه لتلقين ملقِّنٍ، ولا تعليم معلِّمٍ، وأن كل ما يضاف إلى هذه الحالة الفطرية — من التفصيلات عن ذات الله، وعن الكون والكائنات، والعوالم العُلوية والسفلية، مما افترق النَّاس فيه شيعًا، وتحزبوا له أحزابًا، وتنازعوا من أجله؛ فسفكوا دماءهم، وأخربوا بلادهم — فإنَّما هو من وضع الزعماء والسادة الذين خوَّلوا أنفسهم حق الوصاية على الأمم، واستغلوا جهلها إلى ما لا حدَّ له لمصلحة شهواتهم.

وإليك مرامي الآيات التي وردت في القرآن في هذا الباب: قرر القرآن بأنَّ أصل الأديان الإسلامُ أي الاستسلام بمعنى الانقياد وهو يعني به الحالة التي يكون عليها الإنسانُ حين يعجزُ عن تصوير الله بصورة أو تحديده بحدٍّ، أو تخيُّل أنه شيءٌ من الأشياء المرئية أو المتوهمة. ويظهر هذا التحديدُ لمعنى الإسلام مما أورده في قصة إبراهيم، وهو: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥–٧٩].

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٢٧–١٣٢].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فالإسلام بهذا المعنى هو أصل كل الأديان، وقد صرَّح القرآن بهذا في غير آية فقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

فإذا كان أساس الدِّين الاعتراف بالعجز عن تحديد الله بحدٍّ، أو تعيينه بصورة؛ فمن أين يأتي التفرُّقُ في الدين، والاختلاف في أصوله؟ ولذلك قال لرسوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وإذا كان الدِّين هو هذا فهو أسهل ما يكون كلفة على النَّفس؛ فما على الإنسان إلا أن يعترفَ بالعجز عن تحديد الخالق ثم يأخذ في التقرُّب إليه بالصالحات وكفى؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

ثم قرر القرآن بأنَّ الإسلام هو الفطرة؛ أي الخِلقة التي فطر الله النفوس عليها؛ فإنَّ الإنسان قد فُطِر على أن يعترف بالعجز عن تحديد ما لا يمكنه تحديده، لا على أن يتناوله بالتخيُّل والتصوُّر فيوقع نفسه في الخطأ وهو عالمٌ بوقوعه فيه؛ فقال تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢٤] [الروم: ٣٠].

وقد شرح النبي ﷺ معنى الفطرة بأنَّها الحالة التي يكون عليها ذهن الإنسان خاليًا من كل صورة، نقيًّا من كلِّ خيالٍ، على نحو ما عليه الطفلُ ساعة ميلاده فقال: «كلُّ مولود يولد على الفطرة، وإنَّما أبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه.»[٢٥]

ثم قرر القرآن بأنَّ الله شرَع هذا الدِّين لجميع الأمم؛ فالإسلام ليس بجديد حتى يُتَرَدَّدَ في قبوله، بل هو الأصل الأقدم الذي أمرت بالأخذ به الأمم كافَّة فانحرفوا عنه بغيًا بينهم؛ قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ✽ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ✽ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٣–١٥].

وإذا كان الأمر كذلك، فيجب على الإنسان أن يؤمن بجميع الأنبياء وما جاءوا به، لا يفرق بين رسول ورسولٍ؛ لأنَّهم جميعًا جاءوا بأصل واحد ودعَوْا إلى دين عام. وقد أمر الله الآخذين بالإسلام أن يقولوا: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ✽ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ✽ صِبْغَةَ اللهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦–١٣٨].

[٢٤] حَنِيفًا: أي مائلًا عن العقائد الزائغة.

[٢٥] ينظر: المعجم الكبير للطبراني، رقم ٨٢٨.

فالإسلام — والحالة كما ترى — كما صرح بوحدة النوع البشري ودعا الأمم كافة لمحق ما بينها من الفوارق الاجتماعية، كذلك دعاها إلى الأخذ بدينها العام الذي ينحصر في كلمتين: الإسلام لله، والعمل الصالح؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

نقول بعد هذا البيان: أيُّ غرابة يراها الدكتور طه حسين في هذا الموضوع وهو أجملُ ما حمله دينٌ من الأديان إلى العالم، بل أجمل ما حمله دينٌ من الأديان من شُبَه الملحدين المعاصرين؟! ألم يقولوا: إذا كان الله واحدًا، والإنسان هو الإنسان في كلِّ زمانٍ، فَلِمَ تَخَالفت الأديان، وتباينت تعاليمها في كل مكان؟ ولو اطَّلَعوا لوجدوا أنَّ الإسلام قد حل هذه الشبهة حلًّا ليس وراءه مذهبٌ لمشتبهٍ، بل الإسلام نفسه هو الحل العملي لهذه الشبهة.

أما استغراب الدكتور طه حسين مِنْ زَعْمِ مَنْ زَعَمَ أنَّ لهذا الدين سابقة وقُدْمَة في بلاد العرب، فلا حق له فيه؛ لأنَّ التَّوراة نصت على أنَّ إبراهيم زار البلاد العربية ووافقهم العربُ على هذا، وقالوا: إنَّه بنى فيها بيتًا للعبادة سمَّوْه الكعبة، وقد عالجنا هذه المسألة فيما مرَّ من الفصول، فرأينا أنَّه وإن لم يثبت ذلك على الأسلوب التاريخي الذي يتطلب الآثار المحسوسة، إلا أنَّه كذلك لا يوجد في التاريخ ما ينفيه، وقُلنا: إنَّ المرجِّحات كلها متظاهرةٌ على زيارته لبلاد العرب. فهل من غرابة بعد هذا أن يأخذ بدينه رجالٌ من العرب الذين اتصلوا به في ذلك العهد؟ وهل كان دين إبراهيم فوق متناوَل العقول حتى يستغرب أن يأخذ به رجالٌ من مخالطيه لهم قلوبٌ يفقهون بها، ولهم آذانٌ يسمعون بها، ولهم ذوقٌ يفرِّقون به بين الخبيث والطيب؟ وهل كان دين إبراهيم إلا التوحيد الذي دلّت الآثار على أنَّه وُجِدَ من أقدم العهود في مصر والهند والصين وسواها وأخذ به رجالٌ في تلك الأزمان البعيدة؟ فأيُّ غرابة في أن توجد منه آثارٌ في بلاد العرب بَقِيَتْ من عهد إبراهيم، ولكنَّ الوثنية تغلبت عليه كما هو شأنها في جميع البلدان؟!

القَصَص وانْتِحَالُ الشِّعر[1]

عقد الدكتور طه حُسين فصلًا تحت هذا العنوان قال فيه:

«القَصَصُ في نفسه ليس من السياسة ولا من الدِّين، وإنَّما هو فنٌّ من فنون الأدب العربيِّ توسَّط بين آداب الخاصة والآداب الشعبية وكان مرآة للون من ألوان الحياة النفسية عند المسلمين وأزهر في عصر غير قصير من عصور الأدب العربي الراقية؛ أزهر أيام بني أمية وصدرًا من أيام بني العباس، حتَّى إذا كثر التدوين وانتشرت الكتب، واستطاع النَّاس أن يلهوا بالقراءة دون أن يتكلفوا الانتقال إلى مجالس القُصَّاص ضعُف أمر هذا الفن، وأخذ يفقد صفته الأدبية الراقية حتى ابتُذِل وانصرف عنه الناس.[2]

كان قُصَّاص المسلمين يتحدثون إلى الناس في مساجد الأمصار فيذكرون لهم قديم العرب والعجم وما يتوصل بالنُّبُوَّات، ويمضون معهم في تفسير القرآن والحديث ورواية السيرة والمغازي والفتوح إلى حيث يستطيع الخيالُ أن يذهب بهم لا إلى حيث يُلزمهم العلم والصدق أن يقفوا. وكان النَّاس كَلِفين بهؤلاء القُصَّاص، مشغوفين بما يلقون إليهم من حديث. وما أسرع ما فطن الخلفاء والأمراء لقيمة هذه الأداة الجديدة من الوجهة السياسية والدينية، فاصطنعوها وسيطروا عليها واستغلُّوها استغلالًا شديدًا،

[1] شغل مضمون هذا العنوان في كتاب الدكتور طه حسين الصفحات من ٩٠ حتى ١٠٥.

[2] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٩٠.

وأصبح القصص أداة سياسيةً؛ فكانت الأحزابُ السياسية تصطنع القصاص ينشرون لها الدعوة، كما كانت تصطنع الشعراء يناضلون عنها.[٣]

وقد استمد القصص قوته من مصادر مختلفة أهمها أربعةٌ:

الأول: مصدرٌ عربيٌ هو القرآن، وما كان يتصل به من الأحاديث والروايات، وما كانت تتحدث به العربُ في الأمصار من أخبارها وأساطيرها، وما كانت تروي من شعرٍ، وما كان يتحدث به الرُّواةُ من سيرة النبيِّ والخلفاء وغزواتهم وفتوحهم.

الثاني: مصدرٌ يهوديٌّ نصرانيٌّ؛ وهو ما كان يأخذه القُصَّاصُ عن أهل الكتاب من أخبار الأنبياء والأحبار والرهبان وما يتصل بذلك.

الثالث: مصدرٌ فارسيٌّ؛ وهو هذا الذي كان يستقيه القُصَّاصُ في العراق خاصةً من الفرس ممَّا يتصل بأخبارهم وأساطيرهم وأخبار الهند وأساطيرها.

ثم المصدر الرابع مصدرٌ مختلطٌ هو هذا الذي يمثل نفسية العامة غير العربية من أهل العراق والجزيرة والشام من الأنباط والسريان[٤] ومن إليهم من هؤلاء الأخلاط.[٥]

وأنت تعلم أنَّ القصص العربيَّ لا قيمة له إذا لم يَزِنْه الشعر من حين إلى حين. وإذن فقد كان القصاصُ أيام بني أمية وبني العباس في حاجة إلى مقادير لا حد لها من الشعر يُزيِّنونَ بها قصصهم، وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون وفوق ما كانوا يشتهون.[٦]

فقد كانوا يستعينون بأفرادٍ من النَّاس يجمعون لهم الأحاديث والأخبار ويلفقونها، وآخرين ينظِمون لهم القصائد وينسِّقونها، حتَّى إذا استقام لهم مقدارٌ من تلفيق أولئك وتنسيق هؤلاء طبعوه بطابعهم ونفخوا فيه من رُوحهم وأذاعوه بين الناس.[٧]

وقد فطِن بعض العلماء إلى ما في هذا الشعر من تكلُّفٍ وسخفٍ وإسفاف، وإلى أنَّ بعض هذا الشعر يستحيل أن يكون قد صدر عن الذين يُنسب إليهم. ومن هؤلاء العلماء محمد بن سلَّام، وكان ابن هشام يروي في السيرة ما كان يرويه ابن إسحاق حتى إذا

[٣] ينظر السابق ص٩٢.

[٤] ينظر في التعريف بالأنباط والسريان، المنجد في الأدب والعلوم ص٢٥٣ وص٥٣٠.

[٥] ينظر: في الشعر الجاهلي ص٩٣، ٩٤.

[٦] ينظر السابق ص٩٤، ٩٥.

[٧] السابق ص٩٥.

فرغ من رواية القصيدة قال: وأكثر أهل العلم بالشعر أو بعض أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة أو ينكرها لمن تضاف إليه. ولكن لم يكن صناع الشعر جميعًا ضعافًا ولا مُحَمَّقِينَ، بل كان منهم من يجيد الشعر ويحسن انتحاله وتكلفه ويجتهد في إخفاء صنعته.[8]

وهناك لونٌ آخر من ألوان القصص كان الناس يتحدثون به ويميلون إليه ويروون في الأكاذيب والأعاجيب، وهو أخبار المعمرين الذين مُدَّتْ لهم الحياة إلى أبعد مما أَلِفَ النَّاس. وقد رويت حول هؤلاء المعمَّرين أخبارٌ وأشعارٌ قَبِلَهَا العلماء الثقات في القرن الثالث للهجرة كأبي حاتم السجستاني وابن سلام نفسه.[9]

والرواة أشد انخداعًا حين يتَّصِلُ الأمر بالبادية اتصالًا شديدًا؛ وذلك في هذه الأخبار التي يسمونها «أيام العرب» أو «أيام الناس»، فقَبِلُوا ما كان يروى منها على أنه جدٌّ من الأمر، ورووه وفسَّروه وفسروا به الشعر، واستخلصوا منه تاريخ العرب، وليست هذه الأخبار إلا المظهر القصصيَّ للحياة العربية القديمة، ذكره العرب بعد أن استقرُّوا في الأمصار فزادوا فيه وزيَّنُوه بالشعر كما ذكر اليونان قديمهم فأنشئوا فيه «الإلياذة» و«الأودسَّا» وغيرهما من الشعر القصصي.[10]

فكل ما يُروى عن عادٍ وثمود وطسم وجديس وجُرْهُم والعماليق وعن تُبَّع وحِمير وشعراء اليمن وأخبار الكُهَّان وما يتصل بسيل العرم وتفرُّق العرب البائدة؛ موضوعٌ لا أصل له.[11] وكلُّ ما يُروى من أيام العرب وحروبها وخصوماتها وما يتصل بذلك من الشعر أكثره موضوعٌ من غير شك. وكل ما يروى من الأخبار والأشعار التي تتصل بما كان بين العرب والأمم الأجنبية من العلاقات قبل الإسلام — كعلاقاتهم بالفرس واليهود والحبشة — خليقٌ أن يكون موضوعًا وكثرته المطلقة موضوعةٌ من غير شك.»[12]

[8] السابق ص٩٨، ٩٩.
[9] السابق ص١٠٢.
[10] السابق ص١٠٣، ١٠٤.
[11] السابق نفسه.
[12] السابق ص١٠٥.

رأينا في هذا الكلام

إنَّ ما ذكره الدكتور طه حسين عن أخبار المعمَّرين وأيام العرب وما يروى عن عادٍ وثمود وطَسْمٍ وجديس وجرهم والعماليق وعن تُبَّع وحمير وشعراء اليمن وأخبار الكهان وما يتصل بسيل العرم من أنَّ كل ما ورد منه أو أكثره موضوعٌ ومبالغٌ فيه؛ صحيحٌ نوافقه عليه. وكلُّ من اتفق له مطالعةُ ما جاء من هذا كله في كتب الأدب، وكان له دربةٌ في النقد، وذوقٌ في تقدرير الحوادث يدرك معنا لأول وهلة أنَّه مختلقٌ مكذوبٌ أو بعيدٌ عن حقيقته بما حمل من التمويهات والتلفيقات، وما أحيط به من المبالغات والتهويلات.

وكيف لا يكون كذلك والعرب إنَّما التفتوا لتدوين شيء من تاريخهم الجاهلي بعد مُضِيِّ قرن من دخولهم في الإسلام، ولم يكن العرب الجاهليون على شيء من العلم بالخطِّ فيكتبوا حوادثهم؛ فلم يبقَ منها إلا ما كان يتحدث به الناس ويزيدون فيه أو ينقصون على ما يتَّفِق لهم؛ وهو الذي تلقفه الرواة من أفواههم وزادوا عليه ما زادوه من بضاعتهم، استكثارًا لمحصولهم، واستجلابًا للمنافع ممَّن كانوا يحرصون على الأخذ عنهم.

ولم يقف الاختلاق والتلفيق في نظرنا عند حد أخبار العصر الجاهلي؛ فإنَّ أكثر ما نقل لنا عن الخلفاء وعن لهوهم وقصفهم، وعن مجالسهم مع الشعراء والندمان، مختلقٌ أو مبالغٌ فيه مبالغةً منكرة، يدرك ذلك من أوتي خاصة النقد بأدنى تأمُّل؛ ولذلك أؤاخذ الدكتور طه حسين على اعتماده في تعيين أسباب الاختلاق في الشعر الجاهليِّ على الحكايات التي وردت في كتب المحاضرات، فإنَّه لو أتقن تسرية منهج ديكارت عليها لرمى بأكثرها عُرض الحائط، ولما استنتج منها ما استنتجه من الصورة المشوَّهة للحياة الاجتماعية والسياسية للمسلمين في عهدهم الأول، عهد الوحدة المحكمة التي ملكوا بها ناصية العالم في سنين معدودةٍ.

وما كان مذهبُ ديكارت مشكاةً يستهدي به الباحثون في ظلمات المسائل إلا لأنه جعل أساسه الشك، وهذه الحكايات التي وردت في كتب المحاضرات أولى بهذا الشكِّ من كل نوع آخر من أنواع الرواية عن الأقدمين؛ فإنَّها أُلِّفَتْ للتفكُّه والتسلي، وناهيك بما يؤلَّف لهذا الغرض قبل ألفٍ ومائتي سنة، بل وما يُؤلَّف منه أيضًا في القرن العشرين عصر التثبت والتحقيق.

أما ما ذكره الدكتور طه حسين عن القصص والقُصَّاص، فكلامٌ ثمينٌ من ناحية تحديد القصص وتصوير نفسية القُصَّاص. وكلُّ ما نلاحظه عليه أنَّ القارئ لما ذكره

عنهم يخيل إليه أنَّهم من الطوائف ذات الاتصال الوثيق برجال الدين، وأنَّهم مالَئوهم على التأثير على عقول العامة من هذا الطريق. والحقيقة أنَّ بنية العالم الإسلامي لفظت القُصَّاص من يوم أن ظهروا بعد خلافة عمر بن الخطاب، وأنَّهم قد طوردوا كما تطارد المبتدِعة في كل الأجيال الإسلامية؛ ذلك لأنَّ هؤلاء القُصَّاص كانوا يخلطون بين الإسلاميات وبين ما يجمعونه من هنا وهناك من أخبار الأمم وأخبار الأفراد وبنيةُ العالم الإسلامي قامت على التثبُّت والتمحيص، حتى إنَّ المسلمين تولوا الأحاديث المروية عن النبي ﷺ بالتَّفْلِيَة والتحقيق، فأقروا نحو عُشر ما كان متداولًا مشهورًا منها، واعتبروا نحو تسعة أعشارها مصنوعًا لا يؤخذ به. فبنيةٌ هذا شأنها من عدم الأخذ بغير الحق وإن كان دينًا، لا تحتمل القصص بوجهٍ من الوجوه؛ فكان يجب على الدكتور طه حسين — دفعًا لتوهم رضاء الدين أو أهله عنهم — أن يصور لقرائه مكانهم من الإسلام وذويه من عهد ظهورهم الأول إلى اليوم. وإذا كان هذا قد فات الدكتور طه حسين فنحن ننبِّه إليه وننقل ما ورد عنه في كتب أئمة المسلمين: قال العلامة أبو عبد الله محمد العبدري المتوفى سنة (٧٣٧هـ) في المجلد الأول والثاني من كتابه (المدخل):

> جاء ابن عمر — رضي الله عنه — إلى مجلسه من المسجد فوجد قاصًّا يقص، فوجَّه إلى صاحب الشرطة (أي مدير البوليس) أن أخرجه من المسجد، فأخرجه.[١٣]

«وقال الإمام أبو طالب المكيُّ: كانوا يرون القصص بدعة، ويقولون: لم يُقَصَّ في زمن الرسول ﷺ، ولا في زمن أبي بكر، ولا في زمن عمر، حتى ظهرت الفتنة، فلما وقعت الفتنة ظهر القُصَّاصُ.»

«وروى الزُّهري عن سالم[١٤] عن ابن عمر أنَّه خرج من المسجد وقال: ما أخرجني إلا القاصُّ، ولولاه ما خرجت.»

[١٣] هذا النص وما بعده ينظر في كتاب: قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، لأبي طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي. فصل: ذكر وصف العلم وطريقة السلف ... ج١ ص٤١٤، ٤١٥، ٤٢٠، ٤٢١، ط مكتبة التراث بالقاهرة، ت د. محمود إبراهيم الرضواني ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، وكتاب: المدخل، لابن الحاج، ج٢ ص١٤٤–١٤٦، ط مكتبة التراث بالقاهرة (د ت).

[١٤] هو سالم بن عبد الله مولى ابن عمر — رضى الله عنهم.

«وقال ضمرة:[١٥] قلت للثوري:[١٦] نستقبل القاصَّ بوجوهنا؟ فقال: وَلُّوا البدع ظهوركم.»

«ودخل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مسجد البصرة فوجد به قُصَّاصًا، فوقف على كل منهم وسمع ما يقول، ثم طردهم من المسجد جميعًا إلا الحسن البصري فإنَّه أبقاه.» والحسن البصري سيد التابعين بالإجماع، وكان أعلم أهل زمانه وأورعهم.

«وقال تميمٌ الداري الصحابي لعمر بن الخطاب: دعني أدعو الله وأقص وأذكِّر النَّاس. فقال عمر: لا. فأعاد عليه. فقال: أنت تريد أن تقول: أنا تميمٌ الداريُّ فاعرفوني.»

«وقال أبو إدريس:[١٧] لئن أرى في ناحية المسجد نارًا تأجَّج أحبُّ إليَّ من أن أرى في ناحيته قاصًّا يقصُّ.»

«وروى الطُّرطُوشي[١٨] قال أبو معمر: رأيت يسارًا أبا الحكم يستاك على باب المسجد وقاصًّا يقصّ في المسجد، فقلت له: يا أبا الحكم، النَّاس ينظرون إليك. فقال: الذي أنا فيه خيرٌ مما [هم] فيه، أنا في سُنَّة وهم في بدعة.»

«قال ولما دخل سليمان بن مهران الأعمش البصرة فنظر إلى قاصٍّ يقص في المسجد، فقال: حدثنا الأعمش عن أبي إسحاقٍ عن أبي وائل. قال: فتوسَّط الأعمش الحلقة وجعل ينتف شعر إبطيه! فقال له القاص: يا شيخ ألا تستحي، نحن في علم وأنت تفعل مثل هذا؟! فقال له الأعمش: الذي أنا فيه خيرٌ من الذي أنت فيه. قال: كيف؟ قال: لأني في سُنَّةٍ وأنت في بدعةٍ، أنا الأعمش وما حدثتك مما تقول شيئًا. فلمَّا سمع النَّاس ذكر الأعمش انفضوا عن القاصِّ واجتمعوا حوله، وقالوا: حدثنا يا أبا محمد.»

هذه قيمة القُصَّاص وقيمة ما كانوا يُطرِفون الناس به من نثر وشعر؛ فإذا كان قد اعتمد عليهم بعض المغفَّلين من الزعماء والقادة في نشر دعوة أو بَثِّ فرية، فإنَّما هم قد اعتمدوا على غير معتمَدٍ، واستندوا إلى أوهى سندٍ.

---

[١٥] هو ضمرة بن سعيد المازني.

[١٦] هو سفيان الثوري [٩٧–١٦١هـ].

[١٧] وأبو إدريس هو أبو إدريس الخولاني: عائذ الله بن عبد الله بن عمرو (٨–٨٠هـ).

[١٨] هو الإمام أبو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي (٤٥١–٥٢٠هـ) له من المؤلفات «سراج الملوك» و«الفتن» و«الحوادث والبدع».

الشُّعوبيةُ وانتحالُ الشِّعر[1]

قال الدكتور طه حسين تحت هذا العنوان:

«إنَّ هؤلاء الشُّعوبية قد انتحلوا أخبارًا وأشعارًا كثيرة وأضافوها إلى الجاهليين والإسلاميين، وقد اضطروا خصومهم إلى الانتحال والإسراف فيه. وأصل هذه الفرقة إنَّما هو هذا الحِقد الذي أضمره الفرس المغلوبون للعرب الغالبين، وقد أخذت هذه الخصومة مظاهر مختلفة منذ تم الفتح للعرب، وأحدثت آثارًا مختلفة بعيدة في حياة المسلمين السياسية والأدبية.[2]

لم يكد ينتصف القرن الأول للهجرة حتى كان فريقٌ من سَبْيِ الفرس قد استعرب وأتقن العربية واستوطن الأقطار العربية، وأخذ يكون له فيها نسلٌ وذريةٌ، وأخذ هذا الشباب الفارسيُّ الناشئ يتكلم لغة العرب، ويحاول نظم الشعر العربي، وتجاوز هذا إلى مشاركة العرب في أغراضهم الشعرية السياسية؛ فكان منهم شعراء يتعصبون للأحزاب العربية السياسية، ولا يكاد واحدٌ منهم يظهر تأييده لحزب حتى يفرح به ذلك الحزب ويجزل الصلات له. كذلك كان يفعل بنو أمية وبنو هاشم وآل الزُّبير، فأباحت لهم الخصومة بين الأحزاب العربية أن يتدخلوا في السياسة العربية، وأن يهجوا أشراف قريش وقرابة النبي.[3]

[1] شغل مضمون هذا العنوان في كتاب الدكتور طه حسين الصفحات من ١٠٦ حتى ١١٧.

[2] ينظر: في الشعر الجاهلي ص١٠٦.

[3] السابق ص١٠٦، ١٠٧.

لم يكن هؤلاء الموالي مخلصين للعرب حقًّا، إنّما كانوا يستغلون هذه الخصومة السياسية ليعيشوا وليحيوا حياة السادة الأحرار ثم ليشفوا ما في صدورهم من غلٍّ ضد العرب.[٤]

وكانت نتيجة استنصار الأحزاب بهم أن استباح هؤلاء الموالي لأنفسهم هجو العرب أولًا ثم ذكر قديمهم والافتخار به ثانيًا.[٥]

وقد هجا أبو نواس العرب وقريشًا؛ فيُقال إنَّ الرشيد أطال حبسه لذلك. وأنشد إسماعيل بن يسار بين يدي هشام بن عبد الملك[٦] فخره بالفرس؛ فغضب عليه، وأمر بإلقائه في بركة كانت بين يديه، ولم يخرج منها إلا وقد أشرف على الموت.[٧]

وهؤلاء الموالي قد أنطقوا العرب بكثير من النثر والشعر اللذين فيهما مدحٌ للفرس وتقرُّب منهم. وزعموا أنَّ الأعشى[٨] زار كسرى ومدحه وأخذ من جوائزه، وأضافوا إلى عدي بن زيد[٩] ولقيط بن يعمر[١٠] وغيرهما من إياد والعباد[١١] كثيرًا من الشعر فيه الإشادة بملوك الفرس وسلطانهم وجيوشهم، وأنطقوا شاعرًا من شعراء الطائف بأبيات وهي تضاف لأبي الصلت بن ربيعة يمدح فيها الفرس.[١٢] على هذا النحو انتحل الموالي الشعر والأخبار وأضافوها للعرب؛ ذكرًا لمآثر الفرس وما كان لهم من مجدٍ وسلطان في الجاهلية، فكان العرب مضطرِّين إلى أن يجيبوا بلون من الانتحال يشبه هذا اللون، فيه تغليبٌ للعرب على الفرس.[١٣]

[٤] السابق ص١٠٨.

[٥] السابق ص١٠٩.

[٦] ينظر ترجمة إسماعيل بن يسار، وموقف هشام منه في تجريد الأغاني ص٦٠٧ وما بعدها.

[٧] ينظر: في الشعر الجاهلي ص١٠٩، ١١٠.

[٨] توفي سنة ٧هـ. تنظر ترجمته في الأعلام للزركلي ج٧ ص٣٤١.

[٩] توفي نحو سنة ٣٥ق.هـ. تنظر ترجمته في الأعلام للزركلي ج٤ ص٢٢٠.

[١٠] توفي سنة ٢٥٠ق.هـ. تنظر ترجمته في الأعلام للزركلي ج٥ ص٢٤٤.

[١١] إياد: حيٌّ من مَعَدٍّ، والعِباد: قبائل شتى اجتمعوا على النصرانية بالحيرة. ينظر: القاموس المحيط [أ ي د، ع ب د].

[١٢] ينظر: في الشعر الجاهلي ص١١١.

[١٣] السابق ص١١٣.

ومن هنا مواقف هذه الوفود التي تتحدث أمام كسرى بمحامد العرب وعزتها، ومن هنا هذه المواقف التي تُضاف إلى ملوك الحيرة والتي تُظهر هؤلاء الملوك أحيانًا عصاة مناهضين للملك الأعظم، ثم من هنا هذه الأيام التي كانت للعرب على الفرس والتي تحدَّث النبي عن بعضها وهو يوم ذي قار.[١٤]

فالشعوبية في مظهرها السياسي الأول قد حملت الفرس على انتحال الأشعار والأخبار وأكرهت العرب على أن يلقوا هذا الانتحال بمثله.

على أنَّ هذه الشعوبية لم تلبث أن استحالت[١٥] بعد سقوط الأمويين وقيام سلطان الفرس على يد العباسيين إلى خلافٍ له صورةٌ علميةٌ أدبيةٌ. وكان هذا النحو من الشعوبية أخصب من النوع السابق وأبلغ في حمل العرب والفرس على الانتحال والإسراف فيه.[١٦]

ولعلك تلاحظ أنَّ الكثرة المطلقة من العلماء كانوا من العَجَم الموالي، وكانوا يستظلون بسلطان الوزراء من الفرس أيضًا، وكانت غايتهم قد استحالت[١٧] من إثبات سابقة الفرس في الملك إلى ترويج هذا السلطان الذي اكتسبوه أيام بني العباس وإقامة الأدلة على أنَّ الأمر قد رُدَّ إلى أهله، وأنَّ العرب الذين حِيل بينهم وبين السيادة الفعلية لم يكونوا أهلًا لتلك السيادة.[١٨]

فأما أبو عبيدة[١٩] الذي يرجع العرب إليه فيما يَرْوُون من لغةٍ وأدبٍ فكان من أشدِّ الناس بُغضًا للعرب وكان وضع كتابًا اسمه «مثالب العرب». وأما غيره من علماء الموالي، فقد كانوا يمضون في ازدراء العرب إلى غير حدٍّ: ينالونهم في حروبهم وشعرهم وخطابتهم ودينهم أيضًا؛ فليست الزندقة إلا مظهرًا من مظاهر الشعوبية، وليس تفضيل النَّار على الطين، وإبليس على آدم إلا مظهرًا من مظاهر الشعوبية الفارسية التي كانت تفضل المجوسية على الإسلام.[٢٠]

---

[١٤] «ذو قار: موضع ماءٍ بين واسط والكوفة. ويوم ذو [كذا] قارٍ من أيام العرب؛ تواقع فيه عرب وائل مع الفرس أوائل القرن السابع [الميلادي].» ينظر: المنجد في الأدب والعلوم، ص٢٠٨.

[١٥] أي: تحولت.

[١٦] ينظر: في الشعر الجاهلي ص١١٣، ١١٤.

[١٧] أي: تحولت.

[١٨] ينظر: في الشعر الجاهلي ص١١٤.

[١٩] يراجع الأعلام للزركلي ج٧ ص٢٧٢.

[٢٠] السابق ص١١٤، ١١٥.

والذي يعنينا من هذا كله أن نلاحظ أنَّ الجاحظ وأمثالَه من الذين كانوا يُعنَوْنَ بالرد على الشعوبية؛ مهما يَكُنْ علمهم لم يستطيعوا أن يعصموا أنفسهم من هذا الانتحال الذي كانوا يضطرون إليه ليُسكتوا خصومهم من الشعوبية. وكانت الشعوبية تنتحل من الشعر ما فيه عيبٌ للعرب وغضٌّ منهم، وكان خصوم الشعوبية ينتحلون من الشعر ما فيه ذودٌ عن العرب ورفعٌ لأقدارهم.[٢١]

ونوعٌ آخر من الانتحال دعت إليه الشعوبية، ذلك أنَّ الخصومة بين العرب والعجم دعت العرب وأنصارهم أن يزعموا أنَّ الأدب العربي القديم لا يخلو أو لا يكاد يخلو من شيء تشتمل عليه العلوم المحدَثة، فإن عرضوا لشيء من هذه العلوم الأجنبية فلا بُدَّ من أن يثبتوا أنَّ العرب قد عرفوه أو ألمُّوا به أو كادوا يعرفونه ويُلِمُّون به، وهم مضطرون إلى ذلك ليثبتوا فضلهم على هذه الأمم المغلوبة، واضطرارهم كان يشتدُّ بمقدار ما يفقدون من السلطان السياسي وبمقدار ما ترفع هذه الأمم المغلوبة رءوسها.»[٢٢]

رأينا في هذا الكلام

يُستخلص ممَّا كتبه الدكتور طه حسين في الشعوبية أنَّ الفُرس والعرب كانوا من التحاقُد والتضاغُن، حتى بعد أن جمع بينهم الإسلام، بحيث بات كل فريق منهم يتربص بالفريق الآخر الدوائرَ، وأنَّ هذه الخصومة أحدثت آثارًا بعيدة المدى في حياة المسلمين السياسية والأدبية فكان شعراؤهم يتعصَّبُون للأحزاب السياسية لا عن إخلاصٍ وحسن نيةٍ، بل لجرِّ المغانم، وكسب الدراهم. وقد تذرَّعوا بذلك إلى ثلب أشراب قريش وقرابة النبي ﷺ.

وقد قوَّلوا العرب الجاهليين ما لم يقولوه من الشعر في مدحهم والإشادة بذكرهم، واضطروا العرب لأن يَنْحُوا نحوهم في وضع الشعر المناقض لمزاعمهم، واختلق العرب من جَرَّاء ذلك حكايات الوفود التي قيل إنَّها أُوفِدت إلى كسرى تذكر محامد العرب ومناقبهم، ووقائع لم تحدث زعموا أنَّهم انتصروا فيها على العجم، وشفوا صدورهم من الإثخان[٢٣] فيهم.

---

[٢١] السابق ص١١٦.

[٢٢] السابق ص١١٦، ١١٧.

[٢٣] أثخن في العدو: بالغ في قتاله. المعجم الوسيط [ث خ ن].

ثم استحالت[٢٤] الخصومةُ بين الأمتين — بعد سقوط الدولة الأموية — إلى خلافٍ علمي حمل الفريقين على الإغراق في انتحال الشعر والأخبار الكاذبة. وبما أنَّ أكثر العلماء الإسلاميين كانوا من الفرس، ووزراء الدولة من الفرس، فقد أخذوا يقيمون الأدلة على أنَّ الأمر قد عاد إلى أهله، وأنَّ العرب لا يستحقون تلك السيادة التي كانوا حصَّلوها ثم زالت منهم. وكان هؤلاء العلماء يمضون في ازدراء العرب إلى غير حدٍّ حتى في دينهم؛ فإنَّ الزندقة وتفضيل المجوسية على الإسلام كانت إذ ذاك أثرًا من آثارهم.

ذكر الدكتور طه حسين كل هذا ولم يستثنِ طائفةً ولا جيلًا، فلا يتمالك القارئ نفسه من الازدراء بالفريقين: بالفرس لخبثهم وخيانتهم وإلحادهم، وبالعرب لجبنهم وغباوتهم واستخذائهم. فإنْ سأل سائلٌ كيف يُعقل أنَّ أمة وصل الدَّخيلُ من جُثمانها إلى النُّخاع تستطيع أن تُؤسِّس في عهد الدولة الأموية لنفسها ملكًا لم ينبغِ لأُمَّةٍ من الأمم قبلها، ثم تُوجِدَ لنفسها في عصر العباسيين الذي تلاه مدنيةً لم تُشرق الشمس على أكمل منها إلى عهدها، تنتهي إليها فيها الخلافة العلميةُ والعمليةُ والفنيةُ في الأرض؟

لو سأل سائلٌ عن هذا لم يجِد أحدٌ جوابًا شافيًا ولو كان أعدى أعداء الإسلام، اللهم إلا ساقطًا من القول، وآفِنًا من الرأي، وهراء من المزاعم، ومتى أغنى مثل هذا في طمس الواقع المحسوس؟!

إنَّ الدكتور طه حسين — في بحثه عن مصادر الشعر المختلق المنسوب للجاهليين، وفي تحرِّيه عن علل هذا الاختلاق — اضطر أن يعوِّل على كتب المحاضرات؛ كالأغاني، والعقد الفريد، والبيان والتبيين، وغيرها. ولا ندري كيف فاته أنَّ هذه الكتب أدبيةٌ فكاهية قاصرةٌ على البحث في أطوار فنٍّ واحد يكثر فيه الخلط والخبط، وكان يغلب على أهله — وهم أدباء العصور الخالية — المجانة والإباحة والجري وراء الخيال، وتصيُّد الرزق بالمدح والهجاء، والتقرب إلى الرؤساء بكل وسيلة من الجد والهزل؛ حتى كان منهم من هجا أمه وأباه وامرأته وهجا نفسه أيضًا.[٢٥] فلا مذهب ديكارت، ولا أي أسلوب فلسفي في الأرض، يسمح لواحد من شيعته في القرن العشرين أن يصدر على أمة كان لها أكبر

[٢٤] أي: تحوَّلت.

[٢٥] فعل ذلك الحُطيئة جرول بن أوس، [توفي سنة ٤٥هـ]. ينظر: الأعلام للزركلي ج٢، ص١١٨، والمحاسن والمساوئ للبيهقي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف، القاهرة ١٩٩١م، ج١، ص٢٤٩–٢٥١.

الآثار في العالم مثل هذه الأحكام المنافية لطبيعة الأشياء؛ اعتمادًا على مثل هذه المصادر التي لو سُلِّطَ عليها نقدٌ جِدِّيٌّ لنفى تسعة أعشار ما فيها لعدم موافقته للمألوف، وشطرًا من العشر الباقي لنقص سنده التاريخي!

نحن لا ننكر أنَّ نفرًا من الشعراء الذين أصولُهم فارسيةٌ، ونفرًا آخرين من أبناء جِلدتهم الذين لم يتأدبوا بأدب الإسلام في مسألة الجنسية، قد لعبت بعقولهم الميول الوراثية، فلجئوا إلى إحياء العصبية في دائرتهم المحلية. كما لا ننكر أنَّ رجالًا من العرب الذين لا حَظَّ لهم من الإسلام إلا الالتحاق بأهله، لم يقفوا مع نصِّ الدِّين في إماتة الفوارق الاجتماعية؛ قام الفريقان بإحياء سُنَّةِ الجاهلية، من التفاخر بالآباء، والتنابز بالألقاب والأسماء، وارتكبوا في تسكُّعِهم[٢٦] في هذا السبيل جريمة الاختلاق على الأقدمين. ولكنَّا نرى أنَّ هذا من الأمور الطبيعية حتى في الأمة الواحدة التي يجري في عروقها دمٌ واحدٌ، وتعيش كلها في بيئة واحدة، وفي القرن العشرين نفسه؛ فهل يجهل أحدٌ ما أوجده العُرف من الفوارق بين الأغنياء والفقراء، وبين ذوي البيوت والصعاليك، وبين البيض والسود؟ ثم أليس كتابُ الدكتور طه حسين مشحونًا بأخبار عصبية القبائل العربية ذات القرابة القريبة، وما ابتنى على تلك العصبية قبل الإسلام من حروبٍ ساحقةٍ، وحزازاتٍ ماحقةٍ، فهل يستغرب بعد ذلك أن يقوم بين زعانف من أمَّتَيْنِ مختلفتين، ما قام مثله ويقوم إلى اليوم بين أبناء الأمة الواحدة؟!

ولكن أين الدكتور طه حسين من هذا المثل الأعلى الذي أوجده الإسلام من إدماج الأمم بعضها في بعض، وسلَّ ما بينها من السَّخَائم الموروثة منذ أجيالٍ، وتأليفه منها دولةً قامت لأول مرة في تاريخ البشر على المبادئ لا على الجنسيات؟ إن من شاء أن يرى المثل المحسوس من هذا الأمر المُدهش، الذي عجز عنه الأوَّلون والآخرون، فلينظر إلى الأمة الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى من حياتها ليرى أنَّ العربي القُحَّ كان يأخذ لغته وأدبه ودينه وتصوفه وسياسته وعلمه عن ناسٍ لا يسألهم عن أنسابهم وأجناسهم، ولا يبالي بألوانهم ولا صُوَرهم، حتى اتفق أن كانت جمهرتهم من أجناسٍ أجنبية، وقد أدى إليهم من الاحترام والتبجيل ما كان يؤدِّيه لبني جَلدته الذين كانوا في مثل رتبتهم؛ فكانت حالُ هذه الأمة في هذا الأمر من أغرب الأحوال، تدل على مبلغ ما أفاده الإسلام للأمة العربية،

[٢٦] تسكع: تمادى، وتسكَّع في الباطل وفي الظلام وفي الضلال: تخبط. المعجم الوسيط [س ك ع].

ذات العصبية الحادة، من الأدب الاجتماعي العالي الذي قصرت عن مثله الفلسفة في كل أدوارها إلى يومنا هذا.

كانت الأمصار والأقطار التي تُعتبر مراكز للعلم والدين — يُشِعَّان منها على ما حولها من البلدان في عصر بني أمية — مكة والمدينة والبصرة والكوفة واليمن ومصر والشام والجزيرة وخراسان. فكان في كل عاصمة من هذه العواصم، ومدينة من هذه الأقطار إمامٌ يقلِّده أهلها في الدين، ويرجعون إليه في الفتوى. أفلا تعجب إن ذكرت لك أنَّ كلَّ هؤلاء الأئمة الذين أخذ المسلمون عنهم الدينَ والعلم كانوا من الموالي الذين يقول عنهم الدكتور طه حسين: إنَّهم كانوا يكرهون العرب، ويُضمرون لهم الخصومة، إلا واحدًا هو إبراهيم النخعي[٢٧] الذي كان إمام أهل الكوفة، فإنَّه كان عربيًّا خالص العروبة. أما من عداه فكانوا فرسًا أو ديلمًا أو تُركًا أو من أجناسٍ أخرى؛ فقد كان عطاء بن أبي رباح[٢٨] إمامًا في مكة، وطاووسٌ[٢٩] في اليمن، ومكحول[٣٠] في الشام، ويزيد بن أبي حبيب[٣١] في مصر، وميمون[٣٢] في الجزيرة، والضحاك بن مزاحم[٣٣] في خراسان، والحسن البصري[٣٤] في البصرة، وكلهم من الموالي.

ذكر السخاويُّ في شرح ألفية الحديث للعراقي أنَّ هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي قال للزهري: «من يسود أهل مكة؟ قال: عطاء. قال: بِمَ سادهم؟ قال الزهري: سادهم بالديانة والرواية. قال هشام: نعم؛ من كان ذا ديانة حُقَّتْ الرياسة له. ثم سأله الخليفة عن اليمن؟ فقال الزهري: إمامها طاووس. وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة؟ فأخذ الزهري يعد له أسماء سادات هذه البلاد، وكلما سمَّى له رجلًا كان هشام يسأله: هل هو عربي أم مولى؟ فكان الزهري يقول: مولى. إلى أن أتى على

[٢٧] «إبراهيم بن يزيد [٤٦–٩٦هـ].» ينظر: الأعلام للزركلي ج١ ص٨٠.

[٢٨] «عطاء بن أسلم بن صفوان [٢٧–١١٤هـ].» ينظر: الأعلام ج٤ ص٢٣٥.

[٢٩] «طاووس بن كيسان [٣٣–١٠٦هـ].» الأعلام ج٣ ص٢٢٤.

[٣٠] «مكحول بن أبي مسلم [ت١١٢هـ]» الأعلام ج٧ ص٢٨٤.

[٣١] «يزيد بن سويد [٥٣–١٢٨هـ].» الأعلام ج٨ ص١٨٣.

[٣٢] «ميمون بن مهران الرِّقِّي [٣٧–١١٧هـ] ... استوطن الرقة — من بلاد الجزيرة الفراتية.»

[٣٣] «البلخي الخراساني [ت١٠٥هـ].» الأعلام ج٣ ص٢١٥.

[٣٤] «الحسن بن يسار البصري [٢١–١١٠هـ].» الأعلام ج٢ ص٢٢٦.

ذكر النخعي! فقال: إنَّه عربيٌّ. فقال هشام: الآن فرَّجت عني، واللهِ ليسودن الموالي العرب ويُخطَب لهم على المنابر.»

وهذا الحسن البصري الذي يعتبر إمام أئمة هذه الأمة، والمرجع الأعلى للدين والعلم والفتيا كان فارسيًّا من الموالي. وقد بلغ من الشرف والسؤدد أن شدد النكير على الحجاج بن يوسف الثقفي وأغلظ له في القول.

وكان رأس التابعين والمقدَّم عليهم سعيد بن جبير وهو أسود اللون، وكان قد ولاه الحجاج إقامة الصلاة في الكوفة، والكوفة إذ ذاك مُعَشَّشُ العرب، وقبة الإسلام.

وكان سليمان الأعمش الإمام المشهور عبدًا أعجميًّا، وقد كان من العزة والمنعة بحيث يزدري بأمر هشام بن عبد الملك، فقد ذكر ابن خَلِّكان في ترجمته[٣٥] أنَّ هذا الخليفة الأموي طلب إليه أن يكتب له مناقب عثمان ومساوئ علي؛ فأخذ كتاب هشام وألقمه عنزًا كانت عنده وقال للرسول: قل لأمير المؤمنين: هذا جواب كتابك!

وكان أبو حنيفة صاحب المذهب فارسيًّا، وقد لقبه العرب أنفسهم بالإمام الأعظم، وأخذوا عنه الدِّين غير متحرِّجين، ولا متأثِّمين. وجمهرة العلماء الذين حفظوا القرآن والأحاديث كانوا من الفرس وغيرهم، وهم البخاريُّ ومسلمٌ صاحبا الصحيحين، والترمذي والنسائيُّ وابن ماجه والدارقطني والسِّجِسْتاني وغيرهم أصحاب بقية كتب الستة الصحيحة، لم تَحُلْ جنسيتهم في نظر العرب دون اعتبارهم أئمة علم الحديث، وحسبانهم كتبَهم المراجعَ الوثيقة له.

وقد كان وهب بن مُنَبِّه[٣٦] من أقدم رواة الحديث وأصحاب التفسير وهو فارسي الأصل، وكان نافعٌ[٣٧] صاحب القراءة المشهورة ديلميًّا.

أما أقدم الفقهاء الذين أخذ عنهم الأئمة مذاهبهم غير من ذكرنا: فالحسن بن أبي الحسن، ومحمد بن سيرين[٣٨] بالبصرة، ومجاهد،[٣٩] وسليمان بن يسار[٤٠] في مكة، وزيد

[٣٥] وفيات الأعيان، ج٢/٤٠٢ ت الدكتور إحسان عباس، ط دار صادر بيروت، والنص هنا يحمل مضمون كلام ابن خَلِّكان.

[٣٦] «[٣٤–١١٤هـ]» تنظر ترجمته في الأعلام للزركلي ج٨ ص١٢٥.

[٣٧] «نافع بن عبد الرحمن [ت١٦٩هـ]» الأعلام ج٨ ص٥.

[٣٨] «البصري الأنصاري بالولاء، أبو بكر [٣٣–١١٠هـ]» الأعلام ج٦ ص١٥٤.

[٣٩] «مجاهد بن جبر [٢١–١٠٤هـ]» الأعلام ج٥ ص٢٧٨.

[٤٠] «أبو أيوب، مولى ميمونة أم المؤمنين [٣٤–١٠٧هـ]» الأعلام ج٣ ص١٣٨.

بن أسلم،[41] ومحمد بن المنكدر،[42] ونافع بن أبي نجيح في المدينة، وربيعة الرأي،[43] وابن أبي الزناد[44] في قُباء، وكل هؤلاء كانوا من الموالي.

ولو أردت سرد أسماء علماء الموالي الذين يُعتبرون السلفَ الصالح لهذه الأمة لكتبت صحفًا كثيرةً، فلأكتفِ بهذا القدر؛ لشهرة هذا الأمر شُهرَةً مستفيضة في جميع مراكز العالم الإسلامي.

فهؤلاء هم أئمة الدين الإسلامي؛ أخذوه عن أصحاب النبي ﷺ مباشرة ونشروه بين الناس، فشُحِنَتِ الكتب بآرائهم ومذاهبهم، واحترمها المسلمون من أول عهدهم إلى اليوم.

فإن كان صحيحًا ما قاله الدكتور طه حسين عن الموالي، وجب أن يكون المسلمون منذ ألف وثلاثمائة سنة إلى اليوم من الغفلة والغباوة والبلادة في الحضيض الأسفل؛ إذ أخذوا دِينهم عن قوم من الطراز الذي وصفه الدكتور طه حسين بإضماء الخصومة للمسلمين الأوَّلين، وبكراهة الإسلام وتفضيل المجوسية عليه ... لا يقول بهذا عاقلٌ!

---

[41] «العدوي العمري [ت ١٣٦هـ]» الأعلام ج٣ ص٥٦.

[42] «ابن عبد الله بن الهُدير [٥٤–١٣٠هـ]» الأعلام ج٧ ص١١٢.

[43] «ابن فروخ التيمي [ت ١٣٦هـ]» الأعلام ج٣ ص١٧.

[44] «عبد الرحمن بن أبي الزناد عبد الله بن ذكوان [١٠٠–١٧٤هـ]» الأعلام ج٣ ص٣١٢.

الرواة وانتحال الشعر[1]

ختم الدكتور طه حسين كلامه عن الأسباب المختلفة التى حَمَلت على انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين بفصلٍ تحت عنوان «الرواة وانتحال الشعر» لم نجد فيه شيئًا يستحق النقد، وقد مرَّ كلامنا على الرواة في أول الكتاب، وإنَّ فيه لبلاغًا.

[1] شغل مضمون هذا العنوان في كتاب الدكتور طه حسين الصفحات من ص١١٨ حتى ص١٢٤.